رواية

ثارات جليلة

محمد خلف

مدارك

تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

ثارات جليلة

القرية القديمة

محمد خلف

الفصل الأوّل

الكَنزْ

(1)

لقد كان كنزًا، كما وصفته الأساطير وحَكايا الطّفولة. قطع معدنيّة لامعة، تصطفّ في صندوق خشبيّ متهالك، من وراء بئر قديمة مُعطّلة وشجرة زيتون ضاربة في القدم، يقعان على أطراف قرية تفوق التّاريخ قدمًا.

كانت الشمس آخذة في الأفول، تختلس الوصول إلى السّبائك من بين وريقات الأشجار المحيطة، فتنعكس على سبائك الذّهب فتبهر عيون النّاظرين إليها. ثلاثة أزواج من العيون كانت معلّقة بالصّندوق، تتقلّب بين السّبائك وبين بعضها البعض، تتعجب وتتساءل إن كان هذا حقيقة أم حلمًا من أحلام الشّقاء. كانوا ينحنون على الصّندوق، يقلّبون السّبائك بأيديهم، يردّدون بصوت خافت عبارات لا أهمية لها سوى أنها تؤكّد أن هذا ليس حلمًا. يقومون من مكانهم، يتلفّتون حولهم، يختلسون النّظر من بين الشّجيرات، يتأكدون أن لا زوجًا آخر من العيون يشاركهم النّظر، ثم يعودون فيقلّبون السّبائك مرّة أخرى، يحصونها، يحتضنونها، ثم يرفعونها فيقبّلونها في فرحٍ صامت، ثم يعودون فيتلّفتوا حولهم، فلا يجدون أحدًا، فيخافون حينها من لعنة تصيبهم، يخافون أن يظهر جنٌّ فيقطف رؤوسهم، فلكل كنز حارس، أما هذا الكنز فلم يكن له حرّاس سوى البئر القديمة وطبقة رقيقة من التّراب غطّت وجه الصّندوق.

(2)

لقد كان يومًا عاديًّا، يبدأ بالحرث ونثر البذور أو الحصاد والتّعامل مع الدّواب، ولا يخلو بالطّبع من صراخ كبير الفلّاحين والدّركيّ اللذين يرافقان مجموعة الفلّاحين أثناء العمل، وغالبًا ما كان يتطوّر ذاك الصّراخ ويتحوّل إلى جلدة أو عدة جلدات بسوط الدّركي على ظهر أحد الفلّاحين أو على ظهورهم جميعًا، يحدث ذلك حين يشعر الدّركي بأن سير العمل

غير مرضٍ بالنّسبة إليه، أو عندما يرغب بإعطاء دافع أكبر للفّلاحين لاتمام العمل غير قوت يومهم، فلا يجدون حينها دافعًا أقوى من تجنّب الألم. وفي أيام الصّيف هذه كانت الشّمس أيضًا تتواطأ مع الدّركي فتصبّ لهيبها فوق رؤوس الفلّاحين المتعبة، فيصبح السّبيل الوحيد إلى الخلاص من الألم هو إنهاء العمل في أسرع ما يكون، واستجداء الشّمس بأن تأفل أسرع مما تفعل كلّ يوم.

لا شكّ في أن نزعات التمرّد كانت تأخذ الفلّاحين خلال النّهار، خلال ذروة الألم، ولكنّ تلك النّزعات كانت تبقى فرديّة، لا تنتقل من فلّاح إلى آخر، ولا تجد المتّسع الكافي من الوقت لتفعل ذلك، فعندما ينتهي نهار العمل، ويبدأ الفلّاحون جلسات السّمر الليلية الخاصة بهم، وتدور كؤوس الشّاي ولفافات التّبغ بين رؤوس الحاضرين، تنطفئ جذوة التمرّد تلك حتّى لا يبقى لها أثر، فيعودون إلى عملهم في اليوم التّالي، فتشتعل مرّة أخرى، ثم تعود لتنطفئ في المساء، وهكذا دواليك. هكذا كان يعالج الفلّاحون بؤسهم بأنفسهم، دون تدخّل من أصحاب العمل من السّادة، فبالنّسبة للسّادة، لم يكن تمرّد الفلّاح أكثر خطرًا من تمرّد الدّابة، يحاولون إخضاعها بالجلد أولًا، ثم يردونها قتيلةً إن لم تستجب. لقد صنع السّادة للفلّاحين دون أن يدروا رفاهية خاصة بهم، فهم فوق أنهم يسمحون لهم بالطّعام والشّراب والتزاوج والتناسل، فإنهم يوفّرون لهم الشاي والتّبغ، ويسمحون لهم بإقامة تجمّعات ليلية، كانت هذه طريقتهم في معاملتهم كبشر طالما أنهم لم يشقّوا عصا الطّاعة ويتمرّدوا بقول أو فعل، أو حتى بنظرة أو إيماءة.

انتهى يومُ العمل ذاك، التقى الثّلاثة ككلّ يوم قبل الغروب بساعة. عبروا بين أزقّة القرية، كان النّاس يتجمّعون في مجموعات على أطراف الأزقة استعدادًا لبدء جلسات السّمر اللّيلية. يصفّون أغصان الأشجار اليابسة حتّى تصنع دائرة يلتفّون حولها ويشعلونها مساءً، ويحضّرون أباريق الشّاي ولفافات التّبغ. لم يكن هؤلاء الثّلاثة ينضمّون إلى أي من تلك المجموعات، بل كانوا يصنعون مجموعة خاصّة بهم، كانوا يذرعون أزقّة القرية جيئة وذهابًا، يقتربون من الهضبة، يسترقون النّظر إلى فتيات السّادة، يعيشون حكايات حبٍّ صامتة يتداولونها بينهم كلّ يوم. كانوا في بعض الأحيان يعبرون إلى الحقول حين يشعرون بالملل من صخب القرية الدّائم، فبالنسبة إليهم كانت أصوات البهائم والحمير وعواء الكلاب وضوضاء الأطفال في الأزقة صخبًا لا يمكن احتماله أحيانًا، وعادةً ما كانت تنتهي جولتهم تلك بالاستقرار عند البئر القديمة ومن ثم العودة إلى كوخ آصف لاحتساء الشاي وإكمال ما تبقّى من لفافات التّبغ.

كان يبدو أن ذلك اليوم هو أحد الأيام التي شعر فيها آصف بالملل من أزقّة القرية وملاحقة صديقيه للفتيات العابرات. قال إنه يريد أن ينعم ببعض الهدوء. استجاب له كلٌّ من كنان وتيم كالعادة، ثم انطلقا في طريقهم إلى البئر القديمة.

كانت منطقة البئر القديمة تقع على أطراف القرية الشّرقيّة، في بداية الطّريق المؤدي منها إلى المدينة، يلتفّ حولها أشجارٌ لا تقلّ قدمًا عنها، وتحيط بها الكثير من الشجيرات والحشائش التي تصل في أيام الرّبيع إلى عنق البئر فلا يظهر منه إلا قائمتان خشبيّتان معلق في وسطهما دلوٌ خشبي متهالك. لم تكن منطقة البئر القديمة من المناطق التي يحبّذ الفلّاحون المكوث فيها أو زيارتها، لعدّة أسبابٍ كان أهمّها أن البئر القديمة ما عادت تفيض بالمياه منذ زمن لا يذكره الفلّاحون ولا يذكره حتّى آباؤهم، والسبب الآخر أن البئر القديمة هذه ترتبط بحكايات مخيفة اعتاد أهالي القرية أن يتناقلونها جيلًا بعد جيل، عن ساحر عاش في القرية منذ سنين كثيرة خلت، كان اسمه شائيل، وارتبط اسمه بلعنة ألقاها على القرية بعد أن أخرجوه منها، ثم لحق به الأهالي وقتلوه مكان البئر القديمة. قيل إنه ألقى بلعنة على القرية قبل موته، وقيل إن قطرات من دمه سقطت في البئر القديمة فجفّت مياهها بعدها، وقال البعض إن الذين قتلوه ألقوا بجثّته في البئر القديمة، وحين حاول البعض النّزول إلى البئر وإخراج جثته منها فقدوا ولم يخرجوا بعدها. تناقلوا الكثير من الحكايا عن شائيل ولعنته، ولكنّ جميع تلك الحكايا كانت تتفق على أن سبب جفاف البئر القديمة كانت لعنة شائيل، وأن أي قارعة تحلّ بالقرية يكون سببها تلك اللعنة. فمثلًا، يقول سكّان هذه القرية إنهم كانوا يعيشون أحرارًا وسعداء قبل لعنة شائيل، وإن هذه القرية كانت تسود المدينة، وإن مياه هذه البئر كانت تكفي الجميع، وإن مياهها كانت عذبة صافية تشفي جميع الأمراض. قالوا إن المرض والوباء والجفاف لم يعرف طريقه إلى القرية إلا بعد هذه اللّعنة، هذا على مستوى القرية ككل، أما على مستوى عائلات القرية، فقد كانوا يعتبرون فساد الأولاد والفتيات امتدادًا للعنة شائيل أيضًا. كذلك حين يطرأ طارئ على المحاصيل فيصيبها مرضٌ وتفسد، أو حينما تتسلط عليها الحشرات والطّيور، لقد كان شائيل حاضرًا في أذهان أهالي القرية دائمًا. ولأن لعنة شائيل لعنة مستمرّة وتعيش مع النّاس كلّ يوم، كان لا بدّ من مجابهتها بشكلٍ ما، فكان في القرية اثنان فقط باستطاعتهما أن يجابها لعنة شائيل، كان أحدهما الشّيخ نعيم الذي كان يطلب من أهالي القرية الاستعانة بالله والتضرّع إليه للخلاص من كلّ الشّرور، وكان الآخر الشّيخ يوسف، الذي كان يستعين برجال صالحين موتى، رُوي عنهم أنهم كان لهم قدرات خارقة، كان يدعوهم بأولياء الله، فهو بهذا لم ينكر قدرة الله أبدًا، وانما كان يستعين بآخرين قريبين منه. على كلّ حال، كان الشّيخ نعيم قد توفّي منذ سنين مضت، ولم يكن في القرية في هذا الوقت سوى الشّيخ يوسف ليقوم بهذا الدّور. ولعل حضور لعنة شائيل لدى الفلّاحين بشكلٍ يومي ومكافحتها بطرقٍ أخرى لم يكن حائلًا دون التنبّؤ بحلٍّ دائم وجذري لهذه اللّعنة، فقد ربط أهالي القرية عودة البئر القديمة بقائد مخلّص تنتهي معاناة الفلّاحين على يديه، وتنتهي لعنة شائيل بقدومه، وأخذ الأجيال في هذه القرية ينتظرون ذاك المخلّص جيلًا بعد جيل.

وكعادة كلّ السّحرة واللّعنات، ارتبطت قصّة شائيل بكنزٍ عظيم من الذّهب، خبأه شائيل عند البئر القديمة أيضًا، فأشبعت بذلك أجيال الفلاحين المتعاقبة المنطقة من حول البئر القديمة حفرًا وتنقيبًا، حتّى يئسوا منها وتوقّفوا أخيرًا عن البحث، واستقروا في نهاية المطاف أن الكنز موجود في قاع البئر، ولم يجد أحد الجرأة في نفسه للنّزول والبحث.

هكذا ظنّ كنان وتيم حينما وجد آصف الكنز، إنّه كنز شائيل المفقود، أما آصف فلم يكُن يصدّق الحكاية، فالكنز لم يكن مخبًّا ولم يكن الوصول إليه صعبًا، لقد وجده آصف بمجرّد أن دار حول البئر، عندما لاحظ تغيّرًا في صوت إيقاع قدميه على الأرض، نبش التّراب بطرف نعله فظهر الصّندوق الخشبي. حاججهم مرّة بأن كنز شائيل لا يمكن أن يوجد تحت طبقة هشّة من التّراب. قالوا له بأن الأمر خارج العقل، وأنهم كانوا مُختارين بشكلٍ ما. تصنّع آصف الاقتناع، وشاركهم رؤيتهم بأن الأمر غيبـيٌّ محض، وأن هذا هو كنزُ شائيل المفقود.

انتظر الثّلاثة إلى أن سقطت الشّمس، حمل اثنان منهم الصّندوق، وتقدّمهم واحد. أخذوا طريقهم إلى القرية عبر الحقول، يراقبون خطواتهم، وكلماتهم، وحتّى أنفاسهم. يتظاهرون بأنهم نسمات هواء تهزّ رؤوس القمح، أو كلاب ليلٍ ضالة، تمنوا في تلك اللحظة أن يكونوا أي شيء، سوى أن يكونوا بشرًا. استمرت قلوبهم بالخفقان، تحاول أنفاسهم مجاراتها، وترفض أقدامهم الاستجابة للاثنين معًا. كانوا قد اقتربوا من وجهتهم قبل أن يسمعوا صرخات مدوّية، وأشباح فلّاحين تتسارع خطواتهم نحوهم. تعثّر تيم فسقط أرضًا، وانحنى كنان واختفى بين عيدان القمح، أما آصف فبقي واقفًا مكانه. مرّت لحظة قبل أن يتقدّم آصف راكضًا نحو الجمع الآتي، فكانوا يركضون في اتجاهين متعاكسين، وقبل أن يلتقي آصف بالجمع قفز في الهواء ثم اختفى بين عيدان القمح، كانت عيدان القمح تهتز بشكلٍ هستيري، بدا أن صراعًا ما يدور بينها. هدأت عيدان القمح، واستقام آصف واقفًا، وكان يجرّ شيئًا ما بكلتا يديه. كان الجمع حينها قد وصلوا إليه، أعطاهم ذاك الشيء، ثم شكروه وانصرفوا؛ فلم يكن الأمر إلا شاة هاربة من الحظيرة.

لم يكن آصف بحاجة لأن يبرّر للفلّاحين وجوده هناك، فقد كان كوخه يبعد مسافة قصيرة عن مكانه، فقد كان كوخه يقع على أطراف القرية الشّمالية ملاصقًا للحقول من جهة ولطاحونة الهواء من جهة أخرى. عاد آصف إلى كنان وتيم، كان تيم قد نالت منه ضربة في صدره على أثر السّقطة، ولكنّها على كل حال لم تكن مؤثّرة كما قال. أعادوا السّبائك التي سقطت إلى الصّندوق ثم استقرّوا أخيرًا في كوخ آصف. وضعوا الصّندوق في زاوية مخفيّة من الكوخ، ثم جلسوا يلتقطون أنفاسهم. اعتذر كنان وانصرف، على أن يلتقوا في اليوم التّالي في الموعد نفسه.

(3)

أخذ كنان طريقه الى البيت بخطًى حثيثة، كأنه يستعجل أمرًا ما، أو أنه ترك أمرًا ما خلفه قبل رحلته مع صديقيه. بدأت تصل إلى أذنيه أصوات صراخ مع اقترابه من المنزل، اعتقد

في البداية أنها أصوات أطفال يلهون، ولكن مع اقترابه أكثر بدا واضحًا أن تلك الأصوات لم تكن إلا أصوات نساء نائحات. زاد من إيقاع خطواته، أخذت دقّات قلبه تتسارع من جديد. تراءى له بيته الطّيني من بعيد، كان باب المنزّل مشرّعًا. رأى جلبة غير معهودة. تحوّلت خطواته إلى ركض حتّى وصل إلى المنزل لاهثًا. كان محاطًا بالكثير من أهالي القرية، كان البعض ينظر إليه بحزن وشفقة، والبعض الآخر يتجنّب النّظر إليه. لم يستطع الاحتمال أكثر، اقتحم المنزل حتّى وصل إلى حجرة أمه، وجد جثمانًا مسجّى على سرير والدته، مغطّى من رأسه إلى أسفل قدميه يلتفّ حوله مجموعة من نساء القرية الباكيات. فهم أنها كانت أمه. لفظت أمه أنفاسها الأخيرة بينما كان غائبًا.

انسل من الباب خارجًا كأنه لم يرَ شيئًا، لم يكن عقله قادرًا على استيعاب الأمر، لازالت عيناه غير قادرة على استيعاب البكاء، ففكرة الفقد لم تكتمل بداخله بعد. جلس بعدما رفضت قدماه أن تحملانه. وضع رأسه بين كفيه وأخذ يسترجع أقرب ذكرى، وإذا بطوفان من الذكريات يعبر أمامه، رأى كل شيء، رأى سنينًا كثيرةً في لحظات. أي قيمة يحملها الوقت بعد الفقد، أي قيمة يحملها بعد أن يمضي، فالزمن هو الحقيقة التي تؤدي الى الحقيقة الوحيدة في الوجود: الموت، الفقد، التلاشي.

أخذ يعبر بالذكريات قديمها وجديدها، حتى وصل إلى آخرها، «لمَ لا تبقى معي اليوم؟»، بدأت الدموع تفرّ من عينيه دمعة تلو الأخرى، اعتقد في تلك اللّحظة أنها كانت تعلم بحقيقة موتها، ولكنّها رحلت على كلّ حال دون وداع. أصبح يلومها لأنها لم تستجدِه أكثر ليبقى. أخذ يبكي أكثر حتّى تحوّل بكاؤه نشيجًا، ثم استحال نواحًا قبل أن يقوم من مكانه ويصرخ بعبارات كثيرة، فهم منها الفلّاحون أنه كان يقول:«لقد كانت تعلم»، وكان يكرّرها بين عبارة وأخرى. أصيب بهستيريا من البكاء والسباب والصراخ، تجمهر حوله الناس محاولين تهدئته، أخذ يدفعهم بعيدًا ويصرخ أكثر، حتى تمكن منه مجموعة من الرّجال.

في الأيام التالية، لم يكرّر كنان الصّراخ والبكاء، لقد كان صامتًا فقط. صمتٌ متفكّر. كان عقله يحاول تحليل ظاهرة جديدة طرأت عليه، يحاول تفكيك لغز كان يحيط به دائمًا، ولكنّه واجهه لأول مرةٍ عند موت أمه. ألا تؤدّي كل الطرق الى الموت؟ ألم تخلق الحياة كلها من أجل الموت؟ ألسنا مصنوعين من الفناء والى الفناء؟ ألسنا مخلوقات فانية لا تشعر بوجود الأشياء إلا بعد فنائها؟ لقد وجد أن الأشياء تمتلك قيمتها البديهية بناء على احتمالات فنائها، لو كان يعلم ليلتها أنها ستموت، لو أنّه حتّى شكّ بالأمر لتغيّر كلّ شيء، كانت أمّه لتمثّل لديه في تلك اللّحظة كلّ شيء.

(4)

عاد الثلاثة لاجتماعهم اليومي بعد أن توقفوا عن ذلك لعدة أيام بسبب الفاجعة التي حلت بكنان، وكانت هذه أيضًا أولى جلساتهم بعد عثورهم على الكنز. لم يكن هذا اللّقاء مشوّقًا بالنّسبة للثلاثة، فكان كنان شاردًا منذ بداية اللقاء. يمسُك بعود شجرة يابس يقلّبه بين يديه متأملًا إياه في صمت. أما آصف وتيم فقد كانا ينتظران منه أن يبدأ بشيء ما. لم يطل انتظارهما، قال كنان وعيناه لازالتا معلّقتان بالعود اليابس:«ماذا سنفعل بالذهب؟»، قالا له إنّ بامكانهم أن يفعلوا الكثير، حاول آصف إقناعه:

- يمكننا أن نصبح سادة!

- ثم ماذا؟

- نودّع البؤس!

- ثم ماذا؟

- لا يهمّ!

تلا ذلك لحظة صمت. عاد كنان بعدها وقال:«وماذا إن كنت لا أستطيع أن أودّع البؤس؟» لم يجبه أحد. استطرد:«إنها لعنة!»، قام بعدها مغادرًا. لم يعقب أحد بعده، ولم يحاولا حتى أن يقنعاه بالعودة.

لقد كانت الحياة بالنّسبة إليه لعنة، سواءً كانت هي لعنة شائيل أو لعنة الكنز، لم يكن يهتمّ للمسمّى. كان يرى آثار اللّعنة في نفسه، في فقده لأمه، في توقّف الحياة عن كونها ذات قيمة بالنّسبة إليه. ما الهدف من هذه الدّنيا إذًا إن كان كلّ شيء مصيره الفناء؟ فالموت هو الحقيقة الوحيدة وكلّ ما سواه خداع، حتّى وإن لم يكن هو الحقيقة ذاتها، فلا شكّ أنّه المنفذ نحو الحقيقة، أمّا السّيادة والذّهب والنّساء، أما هذه الدّنيا، فلا وجود لها إلا في رؤوس البشر، فلا أحد يراها سواهم. لم يدرِ حينها كيف قادته قدماه نحو البئر القديمة. تقدّم نحوها. مدّ قدمه صاعدًا نحو فوّهتها حتّى استقر قائمًا فوق الحافة. أمعن النّظر في فوّهة البئر، لم يكن يرى شيئًا سوى الظّلام، وقد كان هذا ما ينشده: الظّلام، الموت، العدم!

الفصل الثّاني

مقتلُ السيّد

(1)

تتكوّن هذه القرية من عدّة طبقات، ولكنّها جميعًا تتفرّع من طبقتين أساسيّتين، طبقة الأسياد وطبقة العبيد. تنقسم طبقة الأسياد بدورها إلى طبقتين، طبقة الأشراف الذين يحكمون القرية والهضبة معًا، وهم ينحدرون من نسل الشّريف سليم ، وطبقة السّادة الذين يسكنون الهضبة مع الأشراف وينحدرون من عائلات متفرّقة، وهم من الدّرك ومُلّاك الأراضي. أمّا العبيد وهم الفلّاحون، فلم يكن مسموح لهم بامتلاك الأراضي أو بالانضمام لصفوف الدّرك. كان هذا ليجعل منهم طبقة واحدة، لولا أن السّادة كانوا يقومون باختيار أشخاص محدودين منهم يسمّونهم «كبار الفلّاحين». كان هؤلاء يمثّلون الجسر الذي يربط السادة بالفلّاحين، فكانوا يتمتّعون بسلطة محدودة على الفلّاحين، وبامتيازات أكثر يقدّمها لهم السّادة، وهذا ما صنع منهم طبقة مستقلة تعلو طبقة العاملين في الأراضي، ولكنّها تندرج تحت طبقة العبيد أو الفلّاحين.

لم يحدث في القرية القديمة يومًا أن حاول العبد أن يكون سيّدًا، أو أن دارت الدّوائر على سيّد فأصبح عبدًا. فذاك الجدار الصلب، وتلك الهوّة الساحقة لم يستطع أحد من الفلّاحين عبورها، ولم يرغب أحد من السّادة بفعل ذلك. لقد كان السّادة المفلسون يفضّلون دومًا الرّحيل عن القرية عن البقاء فيها ومعاملتهم كفلّاحين. فكلّ القرية تذكر حالات مشابهة للسّادة الذين رحلوا بعد إفلاسهم والذين كان آخرهم السيّد نائل. ولا شكّ أن رحيل السيّد نائل أو بقاءه لم يكن خيارًا مطلقًا له أو لغيره؛ فحتّى إن اختار السيّد نائل البقاء، فإن مجلس الأشراف لا يمكن أن يسمح لسيّد أن يصبح عبدًا، لا يمكنه أن يغامر باهتزاز صورة السّادة أمام الفلّاحين، أو أن يقدّم ايحاءً واقعيًا للفلّاحين بأن السّيادة يمكن أن تزول. ولهذا لم يحاول أحد من الفلّاحين يومًا أن يصبح سيّدًا، فهي صورة ذهنيّة تم رسمها بدقّة عبر أجيال في الوعي العام لدى سكّان هذه القرية.

هذه القرية تسمّى القرية القديمة، الفلّاحون يسمّونها كذلك، ولعلّ تسميتها بالقرية القديمة لم يأتِ كتمييز لها عن قرى أخرى جديدة نشأت بعيدًا عنها، بل كان تمييزًا لها عن قرى أخرى نشأت فوقها، وحلّت مكانها، وحاولت مسحها. يقال إن هذه القرية هجرها الأهالي

بعد لعنة شائيل حينًا من الزّمان، وسمّيت خلال تلك الفترة بالقرية القديمة، أو القرية المهجورة، ولكنّ الاسم الذي بقي من تلك الحقبة هو اسم القرية القديمة. بقيت القرية القديمة مهجورة إلى أن سكنها الشّريف سليم، سكن الهضبة التي تشرف عليها من جهة الغرب، وسكنت معه عائلات أخرى تلك الهضبة، نسل الشّريف سليم أصبحوا ما يسمّون اليوم بالأشراف، وهم الذين يتكوّن منهم مجلس الأشراف الذين يحكمون القرية، وبقيّة العائلات هم بقية سكّان الهضبة ممن يسمّون السّادة، أمّا الفلّاحون، فقيل إنهم كانوا عبيدًا عند الشّريف سليم وبقيّة عائلات السّادة وأتوا بهم معهم وأسكنوهم المنطقة شرق الهضبة. كانت هذه رواية الأشراف والسّادة للقصّة، ولتاريخ القرية، غير أن بعض الفلّاحين من كبار السّن يملكون رواية أخرى للأحداث: قالوا إن القرية القديمة لم تكن مهجورة يومًا، لم يهجرها أهلها حتّى بعد لعنة شائيل، بل كان أهلها أحرارًا إلى أن أتى الشّريف سليم ومن معه واستعبدوهم وأسكنوا معهم عبيدهم. كانت هذه الرّواية تجرّم الشّريف سّليم وبقيّة السّادة وتعتبرهم مغتصبين وظُلّامًا على عكس ما كانت تصوّرهم الرّواية الأولى كمنقذين وبناة. هذه الرّاوية الأخيرة لم تكن محلّ تداول كبير بين الفلّاحين لأسبابٍ معروفة وسريعة الوصول إلى الذّهن، فتناقل حكاية كتلك كانت تعدّ علامة تمرّد لا يسمح بها. فلم يكن الفلّاحون يروون حكاية كتلك في تجمّعاتهم الليلية، بل كان الأفراد يتناقلونها همسًا.

بهذا قامت فوق القرية القديمة قرية الأشراف كما يحبّ أحفاد الشّريف سليم أن يسمّونها، وقرية السّادة كما تحبّ عائلات السّادة أن تسمّيها باعتباره اسمًا يشمل كلّ سكان الهضبة بمن فيهم الأشراف، أما الفلّاحون الذين كانوا يعيشون في القرية في هذا الوقت فلم يكن الكثير منهم يلتفتون لتلك المسمّيات سوى أولئك الذين لديهم اهتمامات أخرى غير التّكاثر والطّعام والشّراب ولفافات التّبغ وكؤوس الشّاي، أولئك الذين كان لديهم الوعي الكافي للإلمام بتراكب طبقات هذه القرية، أولئك الذين كان لديهم الوعي الكافي ليدركوا حقيقة أن الفلّاحين كما هم السّادة كما هم الأشراف بشرٌ لا فضل لأحد منهم على الآخر، وأن المال الذي يتميّز به السّادة والأشراف لم يكن إلا حقّ الفلّاحين المنهوب. لقد دعّمت الرّواية القائلة بأن الشّريف سليم كان مغتصبًا هذه الرؤية، أن الفلّاحون لم يكونوا عبيدًا منذ البداية، وأنهم يرزحون منذ عقود وربّما قرون تحت وطأة عبوديّة دخيلة.

لا شك أن بين هؤلاء الفلّاحين من كانوا يملكون هذا الوعي الكافي، كنت تعرفهم حين تنظر إلى عيونهم فترى تلك اللّمعة التي تدلّ على الذكاء الواعي، أولئك غير السعداء وغير المبالين، الذين راهنوا مرارًا على غضب الفلّاحين ولكنّ رهانهم دومًا كان يفشل، الّذين ملّوا من الانتظار، فلم يعودوا يعوّلون سوى على انقضاء هذه الحياة بأسرع ما يمكن، الذين فقدوا الأمل في الخلاص وهم أحياء فأصبحوا يرون في الموت خلاصهم الوحيد. كان آصف أحد هؤلاء، أحد الذين يشقّ الوعي رؤوسهم ويجعل من حياتهم منفى قصريًّالا يمكن الخلاص منه. لا شيء يجعل الإنسان يقع ضحيّة تلك الحالة من البؤس المزمن سوى التّساؤلات التي تتردد في ذهنه كلّ حين، ولا شيء يحفّز العقل ليتساءل سوى المعاناة، معاناة تكون أشدّ وطأة من تلك التي تعتبرها الجموع السّعيدة الرّاضية معاناة. لا يذكر

آصف أنه كان له أبٌ في يوم من الأيام، لقد أخبروه بذلك حينما كبُر وبدأ يتفتّق ذهنه بتلك الأسئلة التي تصنع الوعي، والتي كان أولها:"لمَ لا أب لي؟". أخبروه أن والده قد رحل عن القرية منذ كان رضيعًا لأسباب لا يعلمها أحد، كان رحيله مفاجئًا ودون مقدّمات، هذا ما قاله النّاس، أمّا أمه فقد قالت له إن والده كان متمرّدًا، ولم يكن يطيق السّادة، ولم يستطع أن يستمرّ بالعيش كأي فلّاح عادي، وحينما سألها عن مكان رحيله، قالت له إنها لا تعلم، قالت إنه ربّما يكون في المدينة، المكان الذي كان يقصده أغلب الرّاحلين عن القرية. كان آصف يكره والده لأنه رحل وتركه رضيعًا، ولكنّه في الوقت ذاته كان يجلّه ويرى فيه بطلًا لم يرضَ بالقهر والظّلم. بعد رحيل والده تزوّجت أمه من آخر، تزوّجت من فلّاح عادي، لم يكن رجلًا سيّئًا، ولكنّه لم يكن يتعاطى مع آصف كابن له، وحتّى وإن فعل، فإن آصف لم يكن ليتعاطى معه كوالد له. بعد أن أنجبت أمه من زوجها الجديد إخوة له، أصبح آصف يشعر بغربة ووحدة، وعدم انتماء، وكان في طفولته لا يكفّ عن رؤية أمه خائنة، خائنة له بزواجها من هذا الفلّاح وإنجابها منه أطفالًا آخرين، فعاش بهذا طفولة غاضبة متخمة بالتّساؤلات، تطورت إلى مراهقة صاخبة يتملّكها الحقد والعنف في أغلب الأحيان، وفي آخر سنين مراهقته اختار أن يستقلّ في كوخ مجاور لمنزل أمه وزوجها.

حين كبر آصف، تحوّل حقده على والده وأمه وزوجها إلى حقد مستطر على السّادة والأشراف، لاسيما بعد أن سمع بالحكايات الممنوعة التي تتحدث عن اغتصاب الأشراف لأراضي الفلّاحين، فربط بين تلك الحكايات ومغادرة والده القرية، فأصبح يرى أن كل الذنب يقع على عاتق السّادة والأشراف، أنهم كانوا هم يد القدر التي تسبّبت في بؤسه ولعنته، فالأمر بالنسبة إليه لم يكن مرتبطًا بقضية الفلّاحين ككل، ولكنّه كان مرتبطًا بشخصه ومعاناته فقط.

قبل أشهر، ألمت بالفلّاحين فاجعة تركت أثرها في نفوسهم، اختطف أحد أبناء السّادة إحدى فتيات الفلّاحين، كانت تدعى جليلة، قتلها السيّد بعد أن اغتصبها وألقى بجثّتها في أحد الحقول. غضب الفلّاحون حينها، ولكن غضبهم ذاك لم يكن إلا على صورة مطالبات بالقصاص من القاتل، وكان الرّد من السّادة على صورة وعودات بالقصاص على ألسنة كبار الفلّاحين. بعد هذه الحادثة، لم يعد آصف يطيق القرية ولا سُكّانها ولا حُكّامها، لم يعد يطيق النّظر لوجه أمه ولا زوجها ولا حتّى صديقيه، كانت تجربة والده ماثلة أمامه، كأن التّاريخ يعيد نفسه وتفاصيله بدقّة بالغة، كان يتملّكه هوس أن يعلم كيف آل الحال بأبيه بعد أن ترك القرية، لم يكن ذاك الشغف للمعرفة نابعًا من عاطفة ابن نحو أبيه بقدر ما كان نابعًا من شخصٍ متفكّر نحو شخصيّة مُلهمة، فقرّر أخيرًا الرّحيل من القرية إلى المدينة مع إحدى قوافل المحاصيل بحثًا عن أبيه، وابتعادًا عن القرية. ولكنّ فترة رحيله تلك لم تطل، فعاد إلى القرية بعد أسابيع قليلة، لم يخبر أحدًا عمّا حصل معه في المدينة، ولم يخبر أحدًا عن سبب عودته، واكتفى بالصّمت والعمل فقط، ثم عثر على الكنز بعد أيام من عودته.

(2)

كانت الشمس تتوسط السماء ورؤوس الفلاحين الذين استعانوا بلفافات القماش المبللة لتقيهم لهيبها، فاختلطت قطرات الماء المتساقطة من اللفافة بالعرق المنهمر من الرؤوس والوجوه. كان آصف ممسكًا بالمنجل كمجموعة الفلاحين من حوله، قاطعين رؤوس القمح في مجموعات منتظمة وبسرعة فائقة، ففي أيام الحصاد هذه لم يكن يسمح بالتهاون في العمل ولا التأخير ولو للحظة واحدة. كان هذا يظهر بوضوح في ملامح ذاك الدركيّ الغليظ الذي يتجول بين الفلاحين ممسكًا بسوط ضخم يهتز بين يديه منذرًا بالعقاب الذي سيحل بأي متقاعس أو متكاسل، ويظهر على خاصرته سلاح آلي ينذر بعقاب أشد إذا استفحلت الأمور، فهذا هو موسم الحصاد، الموسم الذي ينتظر فيه السّادة أرباح تجارتهم بعد أن تصدّر إلى المدينة.

كان الفلّاحون يعملون بكدّ، من أمامهم القمح ومن خلفهم سوط الجلّاد، ومن فوقهم لهيب الشّمس، ومن تحتهم أرضٌ تميد بهم تحت وطأة القمح والشّمس وسوط الجلّاد. ترجو الأرض أن تنشق فتبتلعهم فتخلّصهم من الثلاثة، ولكنّها كانت تعذرهم بأملهم، أملهم بكؤوس الشّاي ولفافات التّبغ.

على عكس جميع الفلّاحين الذين يعملون، لم يكن آصف يهتمّ بموسم الحصاد ولا بالدّركي الذي يقف خلفه ولا بحزم القمح. كانت يداه تتحرك بشكلٍ آلي قاطعة رؤوس القمح دون حضور لها في ذهنه، فقد كانت أمورٌ أخرى تشغله غير تلك التي يفكر فيها الفلّاحون. كان يشغله الذّهب، وما حصل معه في المدينة، وصديقه كنان الذي اختفى بعد آخر لقاء جمعهما. لقد راهن هو وتيم وقتها أنها مسألة وقت، مسألة حزنٍ عابر سيترك أثره ويمضي، ثم يعود صديقهما كما كان، ولكنّ رهانهما كان قد خاب، ورحل صديقهما دون أن يترك أثرًا. لم يكن الصّمت قادرًا على أن يشبع فوضى الاحتمالات التي تعصف برأس آصف عن مصير كنان، فلم ينم في منزل أمه بعد أن تركهم، ولم يحضر إلى العمل لا في هذا اليوم ولا الذي قبله. لقد بحثوا عنه في كل القرية، سألوا عنه كلّ سكّانها تقريبًا، لم يره أحد، ولم يسمع عنه أحد. في تلك اللحظة، كان مجرّد طرح تساؤل بصوت مسموع يمكن أن يشعر آصف بشيء من الرّاحة، يمكن أن يوقف فوضى الاحتمالات التي تعصف برأسه. كان بجانبه صديقه تيم، اختار أن يشاركه ظنونه، قال له:"هل سيكون بخير؟" فهم تيم على الفور مقصد آصف، فلم يكن شيء يشغل رأسيهما في تلك السّاعة سواه. أجابه تيم:"أتمنّى ذلك". اكتفى آصف بذلك، ولكنّ عودته للعمل بعدها لم تكن مريحة له بشكلٍ ما. أفلت آصف المنجل من يده واعتدل علّه ينال لحظات من الرّاحة يعيد خلالها تبليل القماشة التي تغطّي رأسه. أزال القماشة. لم يدرِ بعدها ما حصل. أظلمت السّماء، ثم أبرقت. شيء ما شقّ ظهره نصفين. شعر به اخترق ظهره إلى صدره، ثمّ ترنّح وسقط. بدت له عيدان القمح ملتصقة بعينيه

ووجهه، ورائحة الطّين تخترق أنفه. أخذ الألم يلتئم في ظهره مصحوبًا بقشعريرة. التفت ناظرًا للأعلى. كان الدّركي يهوي بسوطه على ظهر صديقه تيم أيضًا.

استمرّ الدّركي بجلد ظهور الفلّاحين تباعًا، أراد أن يختبر الفلّاحون شعور الألم فيتلاشون بالعمل الدّؤوب، العمل الذي لا يتخلّله أي حديث جانبي، أو لحظة راحة. أراد أن يثبّت في أذهان الفلّاحين أنّهم مخلوقون للعمل، وأشياء أخرى لا يفعلونها إلّا حين يسمح لهم السّادة بذلك. لم يحاول أيٌّ من الفلّاحين أن يهرب، أن يطلق قدميه للرّيح قبل أن يصله الدّركي، كلٌّ منهم يقف في مكانه منتظرًا عقابه المحتوم، يأخذ دوره من الألم ثم يعود إلى عمله، فيصبّ غضبه بعدها ليس على الدّركي الذي جلده، ولا على السّادة الذين أمروه بذلك، وإنما يصبّ غضبه على الفلّاح الذين تسبّب في العقاب، فقد كان وجود الدّركي والسّوط قدرٌ حتميّ لا يقبل التّصحيح، أما ذاك الفلّاح الذي أخطأ كان مخيرًا، واختار هو الخطأ، ويجب لومه على خطئه. كان الفلّاحون حينها مستعدّون تمامًا لأن يلوموا آصف على خرقه للقانون، على تبادله كلمات قليلة مع تيم، وعلى رغبته بأخذ لحظات من الرّاحة. أخذوا يرمونه بنظرات عدائية، يطلقون عبارات غاضبة بصوت لا يسمعه الدّركي. استمرّوا بذلك، واستمرّ الدركيّ بجلد البقيّة، ولكنّ الأمر لم يسر على هذا المنوال. تحوّلت العيون إلى الدّركي مجدّدًا بعدما تعالت صرخات أحد الفلّاحين، تعالت صرخاته بشكلٍ لا ينسجم مع ما حصل مع البقيّة. كان الدّركي يهوي بسوطه عليه مرارًا، أينما اتّفق، على وجهه أو رقبته أو ظهره، وما الذي حصل لذلك؟ لقد سبّ الدّركي بعد الجلدة الأولى، لم يستطع الاحتمال، انفلتت منه كلمة بذيئة، تلاها عدّة جلدات بالسّوط، انفلتت منه كلمات أخريات. استمرّ الدّركي بجلده وعزّم ألا يتوقّف حتّى يفقده القدرة على النّطق. لقد كان للفلّاح لسان لم يستطع كبحه بعد الجلدة الأولى، وكان له يدان لم يستطع منعهما من أن تذودا عنه بعد الجلدات الأخريات. اشتبك مع الدّركي ممسكًا بطرف السّوط باحدى يديه ودافعًا صدر الدّركي باليد الأخرى. لم يستوعب الدّركي تطاول الفلّاح، لم يستسغ جرأة الدّابة. عزم أن يقتله، أن يرديه لتجاوزه الحدود التي تفصل البشر عن الدّواب. وضع يده على سلاحه الآلي. تناوله من مخبئه، وقبل أن تستقم يداه باتجاه صدر الفلّاح، أمسكت بيده يدٌ أخرى منعته من ذلك، كانت لفلّاح آخر. تلا هذا الفلّاح فلاحون آخرون، قيّدوا الدّركي وجرّدوه من سلاحه، وما الذي قد يتلو ذلك؟ إنها نقطة اللّاعودة. تقدّم الفلّاح نحو الدّركي، لكمه وصفعه، فعل فلّاحون آخرون الفعل نفسه، تقدّم فلاحون جدد ومعهم آصف، فعلوا الفعل نفسه. تبادل الفلّاحون والدّركي الأدوار، فأخذ الدّركي يصرخ ألمًا، وأخذ الفلّاحون يصرخون غضبًا. خرج الأمر عن السّيطرة. تشابكت الأيدي الممتدة نحو الدّركي حتّى سالت الدّماء من وجهه وسقط أرضًا، انهالوا عليه ركلًا بأقدامهم. ثار الغبار فلم يعد أحد يرى الدّركي، ومع هذا فقد كانوا مستمرين بالصّراخ وبالرّكل، فلم يكن الفلّاحون يركلون بشرًا، لقد كانوا يركلون عبوديةً وطغيانًا وحرمانًا وألمـًا... كانوا يدهسون لعنة شائيل، ويأخذون بثأر جليلة.

توقّف جسد الدّركي عن الحراك، وانقطعت أنّاته المكتومة. أخذ الفلاحون يتراجعون عنه رويدًا رويدًا، كلٌّ حسب ما كان يحمل من ضغينة للسّادة، وكان آصف آخرهم. بدأت ذرات

الغبار تهبط كاشفة عن جثّة الدّركي. كان ثوبه المزخرف اللّامع قد انطفئت لمعته واكتسب لونًا جديدًا، كان مصبوغًا بلون الدّماء المخلوطة بالغبار، أما وجهه فقد غطّاه الخليط نفسه الذي غطّى ثوبه، إلا من بعض الجروح التي كانت الدّماء مستمرّة بالتدفّق منها. أخذ الفلّاحون يقتربون منه بعد أن انطفئت ثورتهم، ليعلموا بما آل به المآل. لم يكن ما تلقّاه الدّركي يقتصر على ركلات ولكمات كما اعتقد الكثير منهم. لقد رأوا منجلًا مزروعًا في رقبته، وفي خاصرته منجل آخر.

قتله الفلّاحون، دون رحمة ودون شفقة، لقد كانوا أثناء ذلك متسلّطين وقساة، يفوقون السّادة تسلّطًا وقسوة، أثناء ثورة غضبهم فقط، أمّا بعدها، بعدما رأوا المنجلين المزروعين في جسده، تملّكهم رعبٌ وهلع، أخذ الكثير منهم يلوم في نفسه الفلّاح الذي تسبّب بذلك، الفلّاح الذي شقّت صرخاته أسماعهم، والذي دفعهم لفعل ذلك، كانوا يقولون في قرارة أنفسهم: لماذا لم يصمت وحسب؟ لماذا لم يتلقَّ عقابه ويترك الدّركي يمضي؟، كانت هذه تساؤلاتهم غير المسموعة، أما تساؤلاتهم المسموعة كانت: من الذي زرع المناجل في جسده؟ من الذي قتله؟ ولم يكن لأحد بالطّبع أن يعلم. أخذوا يتبادلون الاتهامات، علت أصواتهم، سادت حالة من اللّغط. كان آصف يقف بجوار الجثّة ويتابع اختلاف الفلّاحين في أمرهم، لقد كانوا خائفين، يريدون أن يختاروا من بينهم كبش فداء حتّى ينجوا الآخرون، كان لسان حالهم يقول: يموت اثنان ولا يموت الجميع. أمّا آصف فلم يكن يفكّر كما يفكّر الفلّاحون. لقد كان كبير الفلّاحين غائبًا، لقد كانوا يعملون في أرض بعيدة عن الأعين، لم يرهم أحد، ولم يسمعهم أحد، يمكن للأمر أن يختفي دون أن يعلم أحد، ولكنّ ذلك لن يحدث قطّ إلا إن كان هؤلاء الفلّاحون كيانًا وجسدًا واحدًا، أراد آصف أن يجعلهم كذلك، ولكن ليس بتذكيرهم بانتمائهم لطبقة واحدة، أراد أن يوضّح لهم حقيقة أن جميعهم متّهمون، أن لا أحد سينجو، قال لهم آصف: «لقد قتلتموه جميعًا... قتلناه جميعًا... فما الفرق إن مات تحت الضّربات أو مات في منجلٍ في رقبته؟». سادت حالة من الهدوء، وسرت همهمات بينهم، ولكنّ تلك الهمهمات لم تكن بحثًا عن الذي زرع المنجلين في جسد الدّركي، ولكنّها كانت حول طريقة مناسبة للتخلّص من الجثّة. توجّه بعدها بعض الفلّاحين نحو الجثّة ودفنوها بعيدًا، ثم عاد الجميع إلى العمل، كأن اتفاقًا صامتًا سرى بينهم بأن يبقى ما حصل هناك سرًّا.

الفصل الثّالث

لماذا أُريدُ الحياة؟

(1)

على حافة البئر القديمة، بدا كل شيء حينها هادئًا وغريبًا كأنها ساعة الخلق الأولى، كانت الشمس تتوسط طرف السماء مشبعة بحمرة الغسق يغطي أطرافها بعض ما تبقى من سحب النهار، يتخلل حواف المشهد بعض أغصان الأشجار التي تداعبها نسمات الهواء العابرة فتتحرك على استحياء كأنها تخوض تجربتها الأولى للحياة، كان المشهد من الروعة بحيث تكاد تقسم باستحالة تكراره كل يوم، وتكاد تقسم أن هناك رابطًا مشتركًا يجمع كل هذه الأشياء معًا غير هذه الأرض، وغير هذا الكون، وغير عينيك التي ترى.

كم كان من المحزن والمفرح في آن أن يكون هذا المشهد هو آخر ما يرى كنان من الدنيا، وكأن الدنيا على غرار كل شيء أخذت تزهو بينما كان يهمّ بتركها. داهمه شعورٌ بالسكينة والطمأنينة دفعه ليمضي في قراره، سكينة تماثل تلك التي تتبع شدّة الرضى، ولكنّ هذه كانت تتبع شدّة اليأس. انتقلت عينا كنان من الأفق عائدةً إلى فوّهة البئر، إلى الظلّام والعدم اللذين سيتلاشى فيهما. بدأت تصل إلى مسامعه أصوات تهليل، كان ميقنًا أن مصدرها فوّهة البئر، اعتقد أنها أصوات العالم الآخر، العالم الآخر الذي سيجد فيه الرّاحة والسّكينة، العالم الذي سيجد فيه أمّه التي فقدها. لقد كان يبدو أنهم يرحّبون به، يدفعونه للمضيّ قدمًا، هكذا اعتقد. ارتسمت على شفتيه ابتسامة، وظهر في عينيه شغف، ثم أرخى جسده مستسلمًا للسّقوط في البئر.

أحدث سقوطه جلبة لم يكن يتوقعها، فانقلب رأسًا على عقب وأخذ يتخبط أفقيًا بين جدران البئر عدة مرات كان خلالها يحتمي بيديه، حتى نالت منه صدمة في الرأس أظلمت الدنيا في عينيه على إثرها.

على مقربة من ذلك المكان، كان الشيخ يوسف يتوسط مجموعة من الرجال ذوي اللحى البيضاء واللباس المهلهل. كانوا يحملون أعلامًا خضراء، ويسيرون في طريق عودتهم الى القرية بعد انقضاء زياراتهم للأضرحة، مستأنسين في مسيرتهم بالتواشيح والتهاليل. كان الشيخ يوسف على عكس تابعيه صامتًا لا يردد ما يقولونه، فقد كان يتطلع للعودة إلى

زاويته علّه ينال قسطًا من الراحة وشيئًا من الزاد يعينه على البقاء متيقظًا أثناء جلسة الذكر الليلية، وبينما هو في تلك الحالة من الشرود، لفته شاب يقف مستويًا على حافة البئر القديمة، كان الشّاب ذا قامة متوسطة، ممتلئ الجسد وله شعر أسود مرسل ولحية حديثة، استطاع أن يميز من ثيابه الرثة الفضفاضة أنه أحد الفلاحين. أخذ الشيخ يتابع سكون الشاب الواقف على حافة البئر ويتساءل في نفسه عن سر وجوده في هذا التوقيت وفي هذا المكان ووقوفه على حافة بئر مهجورة، غير أن حالة التساؤل لدى الشيخ لم تطل. إذ نظر الشاب برهة للأسفل ثم سقط برأسه داخل البئر. اتسعت عينا الشيخ ثم توقف لحظات عله يستطيع استيعاب ما رأى، نظر لمن حوله نظرة سريعة ثم انطلق مهرولًا نحو البئر.

وصل الشّيخ لاهثًا، نظر إلى البئر، كان حبل الدّلو يمتد مشدودًا على الحافة ويختفي داخل البئر، وينتهي طرفه الآخر بوتد زرع في الأرض منذ كانت البئر تعمل. تقدّم الشّيخ نحو الفوّهة ونظر داخلها. كان الفلّاح يتدلّى على مسافة ليست بعيدة من الفوّهة وقد التفّ حبل الدّلو على إحدى قدميه. صرخ الشّيخ:"يا لألطاف الله!" ثم همّ ومن معه بسحب الحبل مخرجًا الشّاب من البئر.

(2)

كيف تبدو جنة الله، نعيمًا دائمًا أبديًا، حيث لا معنى هناك للوقت لأنه لا معنى للفناء، لا شيء هناك يفنى، كل شيء موجود بوفرة، تستطيع أن تحصل على كل شيء بأمنية وفي طرفة عين. كيف تكتسب الأشياء قيمتها هناك؟ تلك النفس البشرية التي تكتسب الكثير من خصائصها بناء على حاجتها للشيء والسعي نحو الأفضلية والتفوق، كيف ستستطيع استيعاب ذلك؟ لعل الجنة لن تكون فقط مكانًا آخر غير الأرض، بل وستكون نفوس ساكنيها أيضًا غير النفوس التي على الأرض. وعلى الصعيد الآخر يوجد الجحيم، لا نستطيع أن نسميه جحيم الله بقدر ما نستطيع أن نسميه جحيم الناس، جحيم البشرية التي استحقت وجوده جزاء لما اقترفته بحق نفسها وبحق خالقها، حيث تكون لكل لحظة قيمتها، حيث تكون خالدًا ولكن على صورة حيوات متتالية، تفنى ثم تخلق من جديد ثم تفنى في مسيرة أبدية للعذاب، كأن الوقت والفناء خلقا في الدنيا كصورة مصغرة للجحيم، حيث تكون هناك في حاجة لكل شيء ولكنك لن تستطيع الحصول على أي شيء، كل ما تستطيع فعله هو أن تلعن من حولك ممن تسببوا بوجودك هناك في صورة أخرى للعذاب. الجنة والنار نتيجة طبيعية للعدالة المفقودة في الدنيا، تلك العدالة التي زرعت في نفوسنا بالرغم من أننا لم نرَها من قبل ولن نراها في الدنيا أبدًا.

ولكن لم يكن ما رآه كنان حين استيقظ شيئًا من ذلك، كان ما رآه سقفًا من الطين يعلو عددًا من القوائم الخشبية المتراصة. لم يكن ذلك بالتأكيد يشبه شيئًا من الجنة أو من النار، ولكنه كان أقرب لسقف بيته، أقرب للدنيا التي همّ بتركها منذ وقت لم يستطع تحديده بدقة. شعر بخدر في رأسه وعدد لا يحصى من الآلام في جسده، أيقن حينها أن هذه ليست الجنّة. أسند ظهره إلى الحائط فتلاشى الألم، فعرف أن هذه ليست الجحيم. مد ذراعيه متحسسًا الكدمات التي غطتها ثم عاد ليتذكر كل شيء، البئر، الموت، الأصوات. أدار رأسه متفحصًا المكان من حوله. كانت غرفة طينية مضاءة بشعلة نار زيتية على غرار كل مساكن القرية. أثار رعبه شبح لشيخ يجلس في زاوية الغرفة له لحية بيضاء مرسلة، يقلّب بين أصابعه مجموعة من الخرزات التي لفت في خيط دائري ويتمتم بكلمات غير مسموعة، حاول كنان النّهوض من مكانه وقال فزعًا:"أين أنا؟" أدار الشيخ رأسه صوبه وقال:

- أنت حيث أراد الله.

- هل أنا ميت؟

- كلّنا ميتون... ولكن لم يأن الأوان بعد.

- من أنت؟

لم يخبره الشّيخ، وأمره بأن يتناول شيئًا مما أمامه. كان أمامه كأسًا من اللبن وبعض تمرات وضعت في طبق خشبي صغير. مد يده الى الطبق وتناول بعضًا منها، كان خلال ذلك يتفحص مظهر الشيخ. يحاول أن يتذكر أين رأى هذا المظهر، هذا اللباس، وسرعان ما لاحظ أنه يشبه أولئك الدراويش الذين يطوفون في السّوق. سأله عن شخصه، فعرف أنّه يجلس في زاوية الشّيخ يوسف، وليّ الله كما يسمّونه في القرية.

أخبره الشيخ بكل شيء ابتداء من رؤيته له على حافة البئر، مرورًا بذاك الحبل الذي لف حول قدمه أثناء سقوطه، وانتهاء بإخراجه من البئر وإحضاره إلى الزاوية. شعر بالسّذاجة عندما عرف أن تلك الأصوات التي كانت تناديه عندما كان منتصبًا على حافة البئر كانت أصوات الدّراويش فقط، ولم تكن أصواتًا وإشارات من العالم الآخر كما اعتقد. شعر بالأسف لأنه وقع ضحيّة إشارة أخرى من إشارات القدر التي لطالما خذلته ولم تفلح يومًا.

ساد الصّمت، وبدا حينها له أنه لم يعد هناك ما يقال، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للشيخ يوسف، فقد كان يتحين الفرصة ليسأل السؤال الذي يشغل باله منذ التقى بالشاب:

- لماذا تريد الموت؟

- ولماذا أريد الحياة؟

- لأن الحياة ليست ملكًا لك.

- حياتي؟ أم الحياة؟

- لا فرق بين الاثنين.

- ولكنّ حياتي ملكي!

- نحن لا نملك شيئًا هنا! نحن لا نملك شيئًا إلا إذا قال الناس إنه ملكٌ لنا... منزلك، ثيابك، وحتّى نفسك!... أي إرادة تلك التي نملكها في الدّنيا؟ أي إرادة نملكها في المرض والحزن والشّقاء؟ أي إرادة نملكها في الفقد والموت؟!... نحن لا نملك الإرادة ولذلك لا نملك الملك... الملك لمن بيده الملك!

تأثر الشّيخ بمقاله الأخير، ونظر إلى الأعلى واغرورقت عيناه بالدّموع. أمّا كنان فقد اختلط عليه الأمر وضاق صدره، فانفجر حلقه بما كان يكتمه:

- ولكن ما الجدوى؟ ما الجدوى من الوجود إن كنت لا أملك؟... أتدري أيّها الشّيخ أنني لم أعد أهتم بالأشياء الجميلة لأنني أعلم أن نهايتها قريبة ومؤلمة... حتّى أولئك الأطفال الذين يلعبون في أزقّة القرية، لم أعد أرى فيهم شيئًا جميلًا... صرت كلّما أنظر إلى أحدهم أرى فيه ذاك الرّجل الذي سيكبر ويصبح خائنًا أو لصًّا أو كاذبًا!... حتّى أصدقائي، أصبحت لا أراهم إلا وأرى الموت يفرّق جمعنا... الموت هو الحقيقة... الموت هو النّهاية!

- الموت هو البداية.

- وما الجدوى ممّا قبله؟

أطرق الشيخ برأسه ثم تناول تمرة من الطبق ثم رفعها متأملًا إياها للحظة، نظر بعدها إليه قائلًا:

- أرأيت إن قلت إن هدفي من الحياة أن أتناول هذه التمرة، هل تنتهي الحياة بعدها؟

- بالطّبع لن تنتهي!

- لعل هذا يجعلك تعرف أنك تسأل الشخص الخطأ!... أرأيت أيضًا أنك قضيت عمرك كله في حجرة كهذه لم يكتب لك أن تخرج منها أبدًا، دون نوافذ، ودون أبواب، هل لك أن تعرف ما يقع وراء هذا الجدار؟

- لا.

- وهذا يجعلك تعلم أن لا أحد يعلم!... ولكننا نعلم أن خلف هذا الجدار من بناه، وعلينا أن نبحث جاهدين عنه وأن نعرف أكثر، وهذا لا يجعل الهدف من حياة أشخاص أمثالنا سوى أن نبحث عن الله، أن نستشعر عظمته في كل ما هو حولنا، ونمضي حياتنا بهذه الطريقة منتظرين خروجنا من هذه الحجرة الضيقة الزائلة... أتعلم يا ولدي ما الفرق بين أشخاص مثلي ومثلك وبين باقي البشر؟... هو أننا وجدنا الحقيقة ونظرنا إليها ولم ندع كل مظاهر الدنيا الزائلة أن تعمي عيوننا عنها... تلك الحقيقة التي تبدأ بالزوال والفناء وتنتهي إلى الله.

صمت كنان متأملًا كلمات الشيخ ومتفكرًا في كل ما قاله. لم يشعر برغبة في مغادرة تلك الزاوية، وأضمر في نفسه البقاء هناك إلى أجلٍ غير مسمّى.

الفصل الرابع

زهرةٌ برّيّة

(1)

تلك الفواصل والحدود والجدران والمسافات التي أمعن السّادة على مدى قرون بجعلها حائلًا بينهم وبين سكّان القرية الآخرين من الفلّاحين، تلك الحدود على كثرتها وتعدّد أشكالها، لم يكن عبورها وتحطيمها شيئًا مستحيلًا. لم يكن الأمر يتطلّب أكثر من إرادة وقبول من طرفين، لم يكن الأمر يتطلّب أكثر من شجاعة لخوض مغامرة غير محسوبة النّتائج والعواقب، وما الذي قد يدعو الإنسان لخوض هكذا مغامرة سوى رغبة مستميتة بالحصول على شيء ما وامتلاكه؟ ما الذي قد يدفعه لذلك سوى شيء يعمي البصيرة ويسدل ستارًا ورديًا على مرآة العقل التي يرى بها الإنسان الأشياء؟ لم يكن شيء قادرًا على فعل ذلك سوى شيء نابع من القلب، فتلك الحدود والفواصل التي تفصل السّادة عن العبيد كانت تكتسب معنًى ووجودًا فقط في وجود العقل البشري الذي أنتجها، أما القلوب، فتلك الحدود لم تستطع أن تلوّث صفحتها يومًا ما.

طرفٌ واحدٌ من أحد الجانبين لم يكن ليكفي أبدًا لصنع جسر لعبور تلك الهوّة التي تفصل الجانبين، لقد كان الأمر يتطلّب طرفًا من كلّ جانب لديهما الرّغبة ذاتها بأن يحصل أحدهما على الآخر. لقد أفلح تيم في عبور ذلك الجسر. أفلح في عبوره فقط لأن نرجس كانت على الطّرف الآخر.

لم يكن تيم يمتلك الشّجاعة الكافية ليتقدّم خطوات نحو إحدى فتيات السّادة لو أن نرجس لم تتقدّم القدر ذاته من الخطوات وربّما أكثر. لا يستطيع فلّاح من العبيد أن يغامر حتّى بأن يرفع بصره أمام إحدى فتيات السّادة، ولكنّ تيم فعلها على كلّ حال. فعلها مرّة واحدة بعد أن طلبت منه نرجس ذلك. قالت له بعد أن فعل ذلك:"عيناك جميلتان!"، ولم يعد يملك الجرأة بعدها ليخفيهما عنها.

لقد كانت نرجس تهوى الزّهور، تهواها لأنها تحمل بعضًا من اسمها. ولم يكن هواها للزّهور يترجم لديها برغبة في امتلاكها، وانما في شغف لرؤيتها تنمو وتتفتّح، ولم تكن تفضّل الحضور عند موعد ذبولها. كانت تزرع أخريات في مكان آخر وتراقبها، وهكذا دواليك دون

توقّف منذ فترة تعدّ بالسّنين. ولم تكن هضبة السّادة لتتسع لهواية نرجس تلك، فقد كان من المستهجن أن تمارس هوايتها في شوراع الهضبة الأنيقة التي تحفّها الشجيرات والأحجار المزخرفة من الجانبين أو في حدائق المنازل الفارهة المرتّبة بعناية، لهذا قررت النزول من الهضبة إلى حقول القرية الواسعة لتفعل ذلك. اصطدمت أول الأمر بوالدها، الذي لم يكن له في دنياه سواها، ولم يكن لها في دنياها أيضًا سواه في ذاك الوقت، ولكن والدها لم يصمد كثيرًا أمام عنادها، فقد اعتادت نرجس على أن تحصل على كل ما تريد، لذلك لم تكن ترى أنه من المستحيل أن تحصل على أي شيء، أي شيء في الدنيا حتّى وإن كان ذلك الشيء فلّاحٌ تحبّه ويحبّها. رضخ والدها آخر الأمر لمرادها، ولكنّه اشترط أن يرافقها أحد جنود الدّرك أثناء مسيرها في الحقول. رفضت الأمر ورضخ والدها مرّة أخرى، ولكنّه حرصًا عليها اشترط أن يرافقها أحد الفلّاحين حتّى يحفر لها الأرض ويحمل دلو السّقاية، وقد حدث ذلك، وكان ذاك الفلّاح هو تيم.

فترة تعدّ بالسنين مضت منذ التقيا للمرّة الأولى، كانت نرجس حينها في أولى سنين مراهقتها، لم تكن تعي بعد الهوّة التي تفصل الفلّاحين عن العبيد، لم تكن تعي الهوّة التي كانت تفصلها عن الفلّاح الذي يرافقها يومًا بيوم في جولتها في حقول القرية. ولعلّ أهم الأسباب التي دفعتها لتجاوز ذاك الحاجز الذي يفصل الطّرفين أن ذاك الحاجز لم يتشكّل لديها من الأصل، لقد سمعت عنه بعدما كبرت. لقد كان وجود تيم كفيلًا بأن يمنع ذلك الحاجز من التشكّل، أمّا تيم، فإن اشمئزازه من نفسه كونه أحد الفلّاحين كان ينعكس على صورة خجل وصمت. كان يشعر نحوها باعجاب شديد، يودّ لو يبادئها بحديث ما، أن يتبادلا المزاح والضّحك، أن ينظر إلى عينيها مرّة واحدة، ولكنّه كان يكبح نفسه في كلّ مرة، ويحلم في كلّ مرة أن تبادر هي بشيء ما، فهو سيقبلها بكلّ الأحوال إن بادرت، أما هو فمبادرته تعني الرّفض وتعني التّحقير والإذلال ومن ثمّ الهلاك إن علم والدها.

لم يعد قادرًا على أن يخفي عينيه عنها بعد أن قالت له إنهما جميلتين، ولم يعد قادرًا على أن يكبح كلماته معها، أو ضحكاته التي ترافق ضحكاتها، فقد حطّمت نرجس كلّ ما كان يحول بينه وبينها، بكلمتين وابتسامة ونظرة. لقد تحوّل خوف تيم الأول من أن يبادر باتجاهها إلى خوف من رفضها، فها هي الفتاة السيّدة تبادر باتجاهه، أنّى له أن يرفضها؟. صار يختلق الأحاديث اختلاقًا، ويتفنّن في إلقاء النّكات وصياغتها، ثم يستمتع بجرس ضحكتها حينما يطرق أذنيه، ويشعر برضًى لم يشعر بمثله في حياته. لقد كان العالم بالنّسبة إليه عالمين، عالمٌ بنرجس، وعالم دونها، ولا علاقة تربط العالم الأول بالعالم الثّاني على الإطلاق. فقد كان يحدث أن يمضي يومه مغمومًا بسببٍ من خلاف مع أحد والديه أو مع أحد الفلّاحين أثناء فترة العمل الصّباحية، ثم ينقلب ذاك الغم فرحًا وسعادةً في لحظة تبدأ برؤيتها قادمة من بعيد، بمجرد أن تستطيع عينيه أن تلمح الإبتسامة المرتسمة على شفتيها، يعبر من عالمه التّقليدي إلى العالم الذي يزيّنه كل ما هو جميل، لحظة فارقة كتلك التي تفصل الليل عن النهار، كانت ابتسامة نرجس وخطواتها تمتد إلى قلب تيم كما تمتد خيوط الضوء الأولى من الفجر فتضيء الدّنيا.

خوف تيم الأول من المبادرة نحوها تحوّل إلى خوف من رفضها، ثم تحوّل آخيرًا إلى خوفٍ من فقدها، وجميع مراحل الخوف تلك كانت حبًّا، فلا حب دون خوف، لا حب ترافقه طمأنينة.

(2)

تناول المرآة وأخذ يتفرّس في ملامح وجهه، ما الذي قد يعجبها في فلّاح مثله؟ لا شك أنّها لم تعجب به لكونه فلّاحًا، ولم يكن يجد شيئًا مميزًا في طباعه، فانتهى به الأمر أخيرًا إلى المرآة. كانت له عينان واسعتان وملامح هادئة تلتف حولها لحية متوسّطة الطول تلتحم بشعر رأسه الفاحم فتظهر كبرواز يحدّ لوحة فنيّة جميلة، كان مجرّد النّظر إليه يوحي بالطمأنينة والسّكينة، ولكنّه كان يكره ملامحه، ربّما لكثرة نظره في المرآة في الأيام الأخيرة، فانتهى الأمر بأن رمى المرآة بعيدًا ككلّ مرة. تناول صورة لنرجس كان قد رسمها لها، وأخذ يطابق بين الصّورة التي بين يديه والصّورة التي في خياله، كان يرى خطوطًا تحاكي بعضًا من ملامحها، ولكنّ تلك الصورة التي كان ممسكًا بها كانت عاجزة عن محاكاة انعكاس الشمس على شعرها الكستنائي أو اللمعة التي تظهر في عينيها الرّماديّتين، أو أثر الشمس الذي يترك على خدّيها حُمرةً طفيفة. لقد كان يرى في نرجس شيئًا متّسقًا مع كل مكوّنات الطّبيعة، فلا شيء من الطبيعة لا يتواطأ معها فيزيدها جمالًا، الشّمس، والرّياح، وحتّى محاصيل القمح التي تُأرجح رؤوسها كأنها تلوّح لها وتحتفي بقدومها، حتّى أثوابها التي اعتادت ارتدائها، كانت تضيق عند الأعلى وتتسع عند خصرها إلى قدميها، كانت على الدّوام ذات ألوان زهيّة، تبدو كزهرة بريّة مقلوبة، ضاق بها العيش بثبات.

لم تكن نرجس من ذاك النّوع الذي يكترث كثيرًا لآراء النّاس وما يعتقدونه في المجمل، فضلًا عن ما يعتقدونه عنها وعن آرائهم فيها، لقد كانت تملك من الثّقة ما يجعلها تخرق العرف والعادات والتّقاليد دون أن تهتز، ودون أن تخجل، ولعلّ مردّ ذلك هو الثّقة الكبيرة التي أعطاها لها والدها السيّد ماضي بعد أن تُوفّيت أمّها، فكان السيّد ماضي دائمًا ما يستشيرها في أموره الخاصّة وحتّى في أمور تجارته مع بقيّة السّادة، حتّى أصبحت في السّنين الأخيرة تتولّى هي أمور التّجارة الخاصّة بوالدها بعد أن تقدّم به السنّ. إن هواية نرجس تلك ساعدتها على الاختلاط بالفلّاحين ومشاركتهم حياتهم منذ كانت في سنٍّ صغيرة، فكانت من القلائل الذين استطاعوا استيعاب فكرة القرية القديمة التي تعلو فوق قرية الأشراف أو قرية السّادة. لقد كانت نرجس امرأة صلبةً، لا تهزّها الرياح العابرة، ولا الكلمات التي تتطاير معها، فقد حدث أن ترددت أقاويل في الهضبة تستهجن سلوك نرجس بالنّزول إلى منطقة الفلّاحين أوقاتًا كثيرةً. كانت تلك الأقاويل تصل إلى السيّد ماضي فيقوم بنقلها إلى نرجس نقلًا، دون أن يضيف رأيًا أو يلمّح بانتقاد أو استهجان، أمّا نرجس

فلم تكن تكترث، بل كانت تقابل تلك الأقاويل بالضّحك والاستهزاء فقط. كانت تقول ساخرة: «يا للمصيبة... غضبت عليّ الآلهة!». كانت دائمة السّخرية من عادات السّادة وطريقة حديثهم وحتّى طريقة لباسهم المبالغ فيها، حتّى فتيات السّادة اللّاتي كانت كل اهتماماتهنّ لا تتجاوز الأثواب الأنيقة القادمة من المدينة والزّينة، اللّاتي كنّ يتسابقن على خطف قلوب رجال الدّرك من السّادة، كانت لا ترى فيهنّ سوى نوع آخر من الدّواب التي تحاول بكلّ طريقة اجتذاب الذّكور إليها، فكانت حين تصادف أن تتحدّث عن إحداهن تدعوها بـ"أنثى الحمار"، وإن رأت أخرى قادمة من بعيد تقول: «ها هي أنثى الثّور!»، فقد كانت ترى أنهن لا يفعلن أكثر مما تفعله كلّ الدّواب، تجذب الأنثى الذكر إليها فيتكاثرون وتنتهي الحياة عند هذه النقطة فقط. لقد كانت نرجس ترى في قضيّة حبّها لتيم ما يميّزها عن كلّ فتيات السّادة، ما يجعل منها أنثى بشريّة تملك عقلًا وقناعة ورأيًا وقضيّة، لقد كان تيم هو قضيّتها التي تكافح من أجلها.

لم يكن أحدٌ من المحيطين بنرجس يعلم بقضيّة حبّها لتيم سوى خادمتها، والتي كانت تعتبرها أيضًا صديقتها الوحيدة، كانت دائمًا ما تحدّثها عن تيم وعلاقتها به، تشاركها خططها المجنونة عن طريقة تستطيع بها لمّ شملهما، فكانت إحدى تلك الحلول مثلًا أن تهرب برفقة تيم إلى المدينة، ولكنّ خادمتها كانت تستهجنها وتذكّرها بذاك العار الذي سيلحق بوالدها، فتطأطئ رأسها صامتةً، فقد كانت صورة والدها هي الشيء الذي لا تستطيع المساس به، بل لا تستطيع أن تمسّه بأكثر ممّا فعلت، فقد كانت تقدّر ما يصل والدها من أقوال يردّدها السّادة حول طباعها الغريبة، وكانت تقدّر احترام والدها لها ولقناعاتها، ولم تكن تنوي أن تضيف مزيدًا من الأثقال على كاهله. تصمت برهة ثم تخترع حلًا آخر تشرك فيه والدها، وهي تعلم مسبقًا أن والدها لن يقبل به، تقول مثلًا: «قد يقبل أبي أن يزوّجني بفلّاح... من يستطيع أن يمنعه من ذلك!»، كانت تعلم أن السّادة سيمنعونه من ذلك، سيكيدون له، سينبذونه ويطردونه من القرية، ولكنّها كانت تقول ذلك لعلمها بأن صديقتها ستردعها في آخر المطاف.

كانت نرجس تحمل على كاهلها ثقل علاقتها بتيم. كانت تفعل ذلك عن رضى وطيب خاطر، فطبيعة كونها إحدى فتيات السّادة فرضت نفسها على تلك العلاقة دون إرادة من الطّرفين، فما الذي قد يفعله فلّاح كتيم إن حاول أن يأخذ دوره الكامل كرجل مبادرٍ في تلك العلاقة؟ سيلقي بنفسه بلا شكٍّ إلى التهلكة، كان هو يفهم ذلك، ونرجس أيضًا تفهم ذلك، ولكنّ خادمة نرجس لم تكن تفهم الأمر، فحدث أن قالت لنرجس في إحدى المرّات:

- إنكما تتبادلان الأدوار.

- صدقتِ.

- كرجلٍ وامرأة.

- بل كابن وأم!.

أعاد صورة نرجس التي رسمها إلى موضعها بعد أن تأملها لبرهة، فقد أخذه خياله بعيدًا عنها. كانت صورة الدّركي الذي قتله الفلّاحون تقفز إلى ذهنه كلّ حين. لقد قام بضرب الدّركي كما فعل كُلّ الفلّاحين الحاضرين، ولكنّه لم يكن أبدًا من زرع المنجلين أو أحدهما في جسده. إن هاجسًا مؤرّقًا يسيطر عليه بسبب ما حصل في ذلك اليوم، ولم يكن ذلك الهاجس إحساسًا بالذّنب أو خوفًا من افتضاح أمره، لقد كان أمرًا مختلفًا لم يكن قادرًا على تفسيره. حاول كثيرًا أن يتجاهل الأمر أثناء ساعات يقظته، ولكنّه لم يكن له أن يكبح الأمر أثناء ساعات نومه؛ فقد رأى في نومه في الليلة التي تلت تلك الحادثة أنّه مطروحٌ أرضًا وأن الفلّاحين يتجمهرون فوق رأسه، كان يرى سواعدهم وقبضاتهم ممتدةً إليه، تصل إليه ولكنّها لا تؤلمه. كان شيءٌ ما يحول بينها وبينه ويجثم على صدره. أدرك بعد لحظات أنّه يقبع أسفل جثّة الدّركي القتيل. كان يصرخ ولكنّ صراخه كان مكتومًا، لا يعلو أبدًا فوق أنّات الدّركي ولا فوق صرخات الفلّاحين. لم يكن الفلّاحون يرونه، كانوا مستمرين بركل الدّركي بقبضاتهم وبأرجلهم، ثم حدث في المنام ما كان قد حدث في الحقيقة. اخترق منجل عنق الدّركي، ثم تلاه آخر اخترق خاصرته. أخذت الدّماء تسيل من عنق الدّركي إلى فم تيم حتّى امتلأ حلقه منها. لم يعد قادرًا على الصّراخ بعدها. قلّب عينه يمنةً ويسرة. لم يكن أحد يراه، وعندما أيقن أنه هالك لا ريب، انجلت أيدي وأرجل الفلّاحين المتشابكة، وتلاشت أصواتهم في الفراغ، وصار المشهد ضبابيًّا. ظهر في وسط الضّباب وجهٌ لم يستطع أن يحدّد بدقّة إن كان وجهًا عابسًا أو وجهًا باكيًا، ولم يعد يذكر إن كان ذاك الوجه هو وجه آصف أو وجه نرجس.

في اليومين الماضيين، كان لتيم طريقتان يستخدمهما للهرب من تلك الهواجس التي تحاصره حول الدّركي القتيل، إحدى الطّريقتين كانت فكرة نرجس، والطريقة الأخرى كانت فكرة الكنز، وكيف يمكن لهذا الكنز أن يحدث انقلابًا في حياته. لقد كانت كل الحكايا التي تُحكى عن الكنوز تتوقّف عند العثور على ذاك الكنز، مفترضة أن السعادة والرضا سيتحققان بمجرد العثور عليه. لم تفترض أيًّا من تلك الحكايا أن المعركة التي يجب خوضها هي التي تتلو العثور على هذا الكنز؛ ففي قرية مثل هذه العثور على كنز كهذا قد يعتبر جرمًا، وقد يعتبر سرقة، وقد يعتبر استيلاء على ممتلكات تخص القرية جمعاء، فمن يدري ما الذي قد يجول بخاطر السّادة للاستيلاء على هذا الكنز. لم يكن تيم يمتلك الكثير من الخطط التي تنطوي على طريقة مثلى لمرحلة ما بعد العثور على الكنز، لم يكن يفعل ذلك لأن آصف كثيرًا ما كان يقول إنّه لديه خطّة محكمة يستطيع من خلالها استغلال الذّهب على أفضل وجه، لذلك كان يؤجل هو إعمال فكره في هذا الأمر منتظرًا ما يبوح به آصف.

اختفاء كنان ومقتل الدّركي جعلا من مشكلة الكنز بالنّسبة لآصف وتيم أمرًا غير ذي أولوية، فتوقفوا بذلك عن الحديث عن أمره لعدّة أيّامٍ كانت بدايتها اختفاء كنان والبحث عنه،

وآخرها مقتلَ الدّركي. ولكنّهم بعد أن فقدوا الأمل في العثور على تيم، وبعد أن مضى عدّة أيّام على مقتل الدّركي عادت فكرة الكنز لتطفو على السّطح مجدّدًا. طلب آصف من تيم أن يأتي بنرجس ويجتمعا عند البئر القديمة. استغرب تيم أول الأمر طلب آصف، ثم فهم أن نرجس ستكون لها علاقة بالكنز بشكل ما بعد أن قال له: «سنصيب عصفورين بحجرا».

كان آصف بانتظارهما عند البئر القديمة. حاولا أن يحيّياه ولكنّ آصف لم ينتظر. بادرهما قائلًا: «كيف يستوي السّادة والعبيد؟» ، نظر الاثنان إلى بعضهما ولم يعطياه جوابًا. أعاد سؤاله بشكلٍ آخر: «كيف يمكن لسيّدة وفلّاح أن يتزوّجا؟»، ولم يحصل سوى على نظرات تتساءل إن كان قد أصابه مسٌّ من الجنون. اتّخذ مقعده على طرف البئر القديمة وقال موجّهًا سؤاله لتيم: «ماذا تختار لو خيّرتك الأقدار بين أن تكون سيّدًا أو عبدًا؟». ضحِك تيم، واعتقد أن آصف يحضّر لمزحة ما، ولكنّه حينما رأى نظرات آصف الثابتة وملامح وجهه المتيبّسة قرّر أن يجاريه، فقال له: «أكون سيّدًا»، أعاد السؤال على نرجس، فقالت له بعدم اكتراث:«أكون فلّاحة... كما هو تيم». لم يزح آصف بصره عنهما وزاد من حدّة نظراته وقال: «هكذا يستوي السّادة والعبيد... لكما ذلك!».

إلى ذلك الحين، كان تيم ونرجس يشكّان أن آصف قد أصابه الجنون، ولكنّه بعد أن عرض عليهما خطّته التي ينوي أن يجمع شملهما بها، والتي ستمكّنه من الظهور بالكنز على العلن، عندما عرضها عليهما صارا يعتقدان جازمين أن آصف قد فقد عقله بالفعل.

الفصل الخامس

فلّاحٌ وضيع

(1)

ليل هذه القرية مظلمٌ دامس، فيه يموت كل شيء استعدادًا لبعثه في الصباح، حتى عواء الكلاب وصوت البوم الذي يتخلل ساعاته يظهر كأنه طقسٌ من طقوس هذه الميتة الصغرى، كانت هذه القرية تعيش على السليقة وتحاول أن تتماشى مع نواميس الطبيعة، ولكن هذه الليلة لم تكن من الطبيعة في شيء، فلا أثر للكلاب أو البوم، بل ولّت نحو الغابات المحيطة هربًا من شعلة ضخمة حولت ليل القرية نهارًا،.كُل الطيور ولّت هاربة تاركةً صغارها وأعشاشها خلفها متخبطة في الظلام، حظائر الماشية اهتزت فزعًا وضاقت بمن فيها، أما البشر فكعادتهم فزعوا، ليس من أجل الطبيعة ولكن من أجل محاصيل القمح التي كانت تحترق.

كانت النيران تلتهم مساحات واسعة من القمح الذي كان ينتظر الحصاد، غير آبهة بسلاسل الفلاحين البشرية التي امتدت من الآبار الى مواضع النيران، وغير آبهة بدلاء المياه التي تنهمر فوقها، كأنها بذلك تخضع لمن أعطى شرارتها الأولى.

ليلتها، كان يمكنك أن تستنشق الحزن مع نسمات الهواء العابرة، أن تراه في قطرات العرق المنحدرة من قسمات وجوه الفلاحين المتعبة، تلك القطرات التي روت بذور القمح حتى صار قمحًا، فهؤلاء الفلّاحون كالجارية التي تلد ولدًا ثم تهبه لسيّدتها خاضعة، فيبقى في قلبها له حبًّا، حتى وإن لم ينلها نصيبًا من برّه.

لقد كان الفلاحون حزانى، ولكنهم لم يكونوا الأشد حزنًا، فهناك وعلى مقربة من الدخان المتصاعد من بقايا النيران، كان السيد ماضي الذي شارف العقد السادس من عمره يجلس على كرسي خشبي متهالك، أنجده به أحد الفلاحين حينما رآه يراقب اشتعال المحصول ويندب حظه التعس مترنّحًا.

لقد كان الفلاحون ينتظرون أن تدور الدوائر على أحد السادة، ولكنهم لم يتمنوا قط أن يكون هذا الشخص هو السيد ماضي، فقد كان هو الأشد رفقًا بهم، والأكثر تبسّمًا لهم. كان له وجهٌ طلقٌ دائم الابتسام. لم يكن يجد حرجًا بأن يحادث الفلاحين صغارًا وكبارًا، يسألهم

عن أحوالهم، يمازحهم، يعينهم حين تضيق الدنيا بأحدهم. كان السيد ماضي طيّبًا، ولكن لم يكن بقية السادة كذلك، ولعل هذا ما منعه من أن يحظى بمكانة بينهم، هذا وإنه لم يرزق من زوجته سوى بفتاة وحيدة أسماها نرجس.

كان يجلس على ذاك الكرسي منتظرًا ما يجود به قدره أو يمنعه، ينتظر أن ينعقد مجلس كبار السادة في الصباح معلنًا عن آخر أيامه في القرية، وكما جرت العادة، سيعطونه ثمن أرضه ومنزله كما قدّروهما بالإضافة الى عربة بحصانين يحمل عليها ما استطاع من متاعه، ويتركون له حينها اختيار المكان الذي يقصده.

من الذي اختار أرضه دونًا عن أراضي السادة المحيطة؟ هل كانت مصادفة أن يشتعل محصوله هو فقط؟ بدا له جليًّا أن هناك يدًا آثمة افتعلت هذا الحريق، وكونه رجلًا طيبًا يعني أن الكثير من الأيدي الآثمة تحيط به، فلم يستطع وقتها أن يحدد على وجه الدقة من قد يكون صاحب الفعلة، ولكنّه لم يستطع أن يمنع نفسه من التّفكير بمجلس السّادة، وأنهم قاموا بإحراق محصوله للاستيلاء على أراضيه كما تردّدت الأقاويل بعدما غادر السيّد نائل القرية بعد حادثة مشابهة. على كلّ حال، كان في تلك اللّحظة قد سامح من قام بهذه الفعلة، فلم يرهق نفسه بالتّفكير بالفاعل، ولكنّه كان مثقلًا بالتّفكير بمصير ابنته.

لم يكن للسيّد ماضي أعداء حتّى من السّادة، أولئك الذين قالوا الكثير عن ابنته نرجس، وهو بالرّغم من كل ما قيل لم يكن لينشئ عداوةً مع أحد، أيّ بشرٍ مهما فعل، فهذه الدّنيا بالنسبة إليه أصغر من أن يملأها بالعداوات مهما قلّ شأنها، وهذا العمر لا يتّسع لأي بغضاء مهما كان نوعها. لقد كان فكر السيّد ماضي يقوم على فكرة التّسامح في كل جوانبه، فكلّ روابط المنطق التي تحكم عقله تنشأ من فكرة التّسامح وحدها، وفكرٌ كهذا لا يمكن للحياة العادية التي يحياها البشر استيعابه، فكان يرزح تحت ضغط هائل يدفعه للتخلّي عن كل شيء واعتزال البشر والعيش بعيدًا، بعيدًا عن كلّ ما يعكّر صفو صدره، ولم يكن ليجد مكانًا يحقّق له مراده ورفقةً تتسّع لفكره سوى رفقة صديقه الشّيخ يوسف.

لم تكن نرجس هي وحيدة السيّد ماضي على الدّوام، لقد كان للسيّد ماضي زوجة وصبيّان غير نرجس، وفي ذاك الحين كان السيّد ماضي ككلّ السّادة تقريبًا، لا شيء يميّزه عنهم. كان شديد التعلّق بزوجته وابنيه ونرجس، ولكن القدر أبى أن تستمر حياته على هذا المنوال. قبل سنوات طويلة خرجت زوجته برفقة صبيّيه اللذين كانا يكبران نرجس بعدّة أعوام إلى المدينة، وكانت نرجس لاتزال رضيعة بعد، فآثرت أمها أن تتركها مع مرضعتها. قبل أن تصل القافلة التي كانت برفقتها زوجة السيّد ماضي وابنيه إلى المدينة حصلت مذبحة راح ضحيّتها الكثير من الرّجال والأطفال والنّساء، وكان من ضمنهم زوجة السيّد وابنيه بالطّبع. أرّق هذا الحادث القرية والمدينة معًا، وقالوا إن من فعل تلك الفعلة جماعة تسمّي نفسها جماعة الصّابرين. اعتادت تلك الجماعة الهجوم على الدّرك ومن هم على ملّة الشّيخ يوسف متّهمة إياهم بالكفر والهرقطة. شغل الأمر النّاس في القرية والمدينة عدّة

أيامٍ ثم نسي الأمر كأنه لم يكن، ولكنّ الأمر لم يكن كذلك بالنّسبة للسيّد ماضي، فقد كان الأمر بالنسبة إليه كأنّه أُلقي على حين غفلة في دوّامة لا قاع لها. أخذه الحنق أولًا على جماعة الصّابرين، ثم تجاهلهم وأخذه الحنق على السّادة الذين لم يستطيعوا حماية زوجته وابنيه، ولمّا لم يكن الأمر مجديًا بالنسبة إليه أخذه الحنق على القدر، وأخذ يتساءل عن دوافع القدر وعن الحكمة الخفيّة التي تكمن وراء سلبه سعادته، لقد أخذ يبحث عن الحكمة مجبرًا واتّجه للإيمان بفكرة القدر هروبًا من فكرة حاولت السيّطرة عليه، هروبًا من اعتقاده بأن كلّ شيء عبثيّ، وبأن زوجته وابنيه راحا ضحيّة أحداث عبثيّة، لقد اختار عقله أن يتّجه هناك تبعًا لفطرة لم يستطع التملّص منها، فالاعتقاد بأن كلّ شيء عبثي فكرة مرعبّة لا يمكن احتمالها.

اتّجه السيّد ماضي إلى الشّيخ يوسف ليعرف عن القدر أكثر وعن الحكمة الخفيّة، قال له الشّيخ يوسف: «هذه الدنيا... هذه الدّنيا هي منتصف القصّة... نحن لا ندرك بداية القصة، ولا ندرك نهايتها، لقد وقعنا في المنتصف!». ألحّ السيّد ماضي عليه ليوضح أكثر، قال له: «زوجتك وابناك يعرفان الآن كل شيء... كن مطمئنًا ستعرف كلّ شيء حينما تلحق بهما». تكرّرت لقاءات السيّد ماضي بالشّيخ يوسف بعدها كثيرًا، وأخذ يتطلّع أكثر نحو الموت متأثرًا بكلمات الشّيخ، ورسخت الحياة ما بعد الموت في ذهنه أكثر من الدّنيا، وصغرت الدّنيا في عينه كثيرًا، حتّى إنه لم يعد يراها، أو إنه لم يعد يرى منها سوى ابنته نرجس التي كان أمرها يسعده من جانب ويؤرّقه من جانب؛ فكانت هي الشيء الوحيد الذي يجذبه نحو الدّنيا فيسعد بذلك، ثم يتذكّر زوجته وابنيه فيذكُر الموت فيؤرّقه ذلك، وكان غير مرتاحٍ البتّة لهذا التناقض، ولكنّه كان مجبرًا على أن يتعامل معه طوال تلك السّنوات المنصرمة، غير أنّه في السّنوات الأخيرة وبعد أن كبرت نرجس وجد أن الثّقل الذي يمنعه من أن يحلّق بعيدًا بدأ يزول شيئًا فشيئًا، فلم يدع نرجس تملك أمرها فحسب، بل ملّكها أمر تجارته وزراعته أيضًا، وكان ينتظر زواجها بفارغ الصبر حتّى يعتزل هو الدّنيا ويذهب برفقة الشّيخ يوسف ومريديه، ولكنّ أمله قد خاب وصار حلمه بعيدًا جدًّا مع احتراق محاصيله وتوقّف تجارته.

(2)

مع أولى تباشير الفجر، انفضّ الفلاحون وذهب كلّ منهم إلى مضجعه، وبقي السيد ماضي يتأمل سواد القمح المحترق وخيوط الدخان المنبعثة منه. كان ضوء خافت ينبعث من الأفق يتخلله صياح الديّوك وزقزقة العصافير. كان اختلاطها مع مشهد الدخان غريبًا ولها وقعٌ نَشِزٌ على نفسه، ولكنها مع ذلك كانت تؤكد له أن ما حصل ها هنا لم يكن حلمًا.

كان الأمر أشد وطأة خلال ساعات الليل وأكثر كآبة وبعدًا عن الحياة، ولكن أولى خيوط النهار أتت معها بوجه الحياة الذي يجبر البشر على التعايش معه ومواجهته. تنهد عندها السيد ماضي وهمّ بالمغادرة استعدادًا لما قد يكون من جدال وسجال مع مجلس السادة، ولكنه قبل أن يقوم من مقامه تراءى له من وراء الدخان هيئة لبشر يقترب نحوه. اتضح له مع اقترابها أنها هيئة لفلاح طويل القامة نحيف أسمر البشرة، كأنه اكتسب من القمح لونه وعوده. كان الفلاح يحمل بين كفيه حجرًا كبيرًا جعله يترنح في مشيته يمينًا ويسارًا، كأن الرياح تداعب عود قمح يكافح ليبقى قائمًا. اقترب أكثر حتى تكشف الدخان عن ابتسامة عريضة ووجه كان مألوفًا للسيد ماضي على غرار كل وجوه الفلاحين.

أفلت آصف الحجر من يديه ليستقر قرب قوائم الكرسي التي كانت تنوء بثقل السيد ماضي ثم نفض أثر الغبار من يديه واستقر جالسًا. كان السيد ماضي خلال ذلك يتابعه بنظرات قلقة ومتعجبة، فما زاد هذا التصرف يومه الغريب إلا غرابة. أما آصف فقد جلس يراقب الأفق بعينين قلقتين محاولًا أن يهدئ من أنفاسه المتلاحقة علّه يستطيع البدء بما يقال، أو علّه يستذكر شيئًا مما بات ليلته يصيغه في خلده من كلمات، طال الصمت وصار الموقف أكثر غرابة حتى أسعفته الذاكرة وقال: «غريبة هي الدنيا يا سيد ماضي... غريبة في تقلّبها ودورانها... كيف أنها تَتبع الأسباب الصغرى في تقلّباتها الكبرى.. إنني بت طوال الليل أفكر في تلك الشرارة الصغيرة التي أضرمت هذا الحريق الهائل لتغيّر مصيرك وربما مصير الكثير من الفلاحين من بعدك، كم كانت حقيرة حجمًا وفعلًا، إنني أشعر بالأسى من أجلك يا سيدي، إن قلبي يتفطّر حزنًا وأسًى كلما ذكرت ما سوف يلحق بك، صدقني يا سيدي إن قلت إن قلبي معك بالرغم من أنني فلاح وضيع وأنت سيدٌ عالٍ، ولكن لا تدري يا سيدي، لا تدري أين يجعل الله الخير».

لم يعلم وقتها السيد ماضي إن كانت كلمات هذا الفلاح تواسيه أم تزيده غمًّا، فهو بالرغم من كونه إنسانًا عطوفًا ومتواضعًا إلا أنه يبقى سيدًا، أو كان سيدًا دارت به الدنيا حتى أتت بفلاح يجلس عن يمينه ويشعر بالشفقة من أجله، لم ينطق السيد ماضي بكلمة، ولم يلتفت حتى الى آصف كأنه لا يشعر بوجوده آملًا منه أن ينتهي من مواساته ثم ينصرف الى حاله تاركًا إياه ومصيبته، ولكن آصف لم يكن عند توقّع السيد ماضي، وبقي جالسًا علّه يمسك بطرف حديث يقوده الى حيث يريد، ولمّا لم يتسنَّ له ذلك قال كاسرًا الصّمت:«ولكن أتعلم يا سيد ماضي أن الدنيا ليست بهذا السوء، وأن الأقدار حتى وإن أغلقت أمامنا جميع الأبواب إلا أنها قد تترك أبوابًا خلفية قد لا نراها، أو لا نتوقع وجودها، مثل نبتة القمح حين تهمّ الديدان واليرقات بالقضاء عليها، وبشكل مفاجئ تأتي حشرة من حيث لا تدري لتقضي على الديدان واليرقات وتنقذها، هل كانت تتوقع نبتة القمح أن تقوم حشرةٌ حقيرة بإنقاذها؟ وكذلك أنت، لا أظنك تتوقع من فلاح أن ينقذك!».

مرّة أخرى، لم يلقِ له السيّد ماضي بالًا، فقد كان شارد العينين تائهًا، حتّى إنه لم يفكر في كلمات آصف، ولم ينتبه إلى تلميحه الذي ذكره عن إنقاذه. انتابت آصف نوبة من الإحباط

والفتور. لقد أراد أن يختبر شعور سيّد من السّادة بعد أن تدور عليه الدوّائر وتطيح به الدّنيا، لقد اعتقد أن المسافات التي كانت تفصله كفلّاح وضيع عن السّيد ماضي ستتلاشى بمجرّد أن يفقد الأخير ما يميّزه عنه، ولكنّه بعد أن رأى تجاهل السيّد ماضي له، حتّى كمنقذ له من الإفلاس والضّياع بدأ يعيد حساباته عن ما يميّز السّادة عن العبيد، وبدأ يتراجع عن ما اعتقده بعد عثوره على الكنز أنّه انتقل من منزلته كفلّاح وضيع إلى منزلة أخرى أرقى كان ينوي التعرّف عليها بلقائه بالسيّد ماضي كأحد سكّان الهضبة، ولكنّه سيدرك فيما بعد أن حساباته كانت صحيحة، ولكنه اختار السيّد الخطأ.

لقد قام آصف بإحراق المحصول بمساعدة تيم، وبالاتفاق مع نرجس. كانت هي هذه خطّته التي فاجأهم بها حين التقوا عند البئر القديمة. طأطأ تيم رأسه كعلامة أن آصف خذله بخطّته، والتفتت نرجس متأففة وهمّت أن تُغادر المكان، ولعلّ ذلك كان مردّه إلى الطريقة التي بدأ آصف بها الحديث، لقد جعلهم يشكّون في سلامة عقله، قال لهم: «سنحرق محصول السيّد ماضي فلا يعود سيّدًا!»، ولكنّه بعد أن رأى ما بدر منهما قال موضّحًا:«ثمّ نصنع منه سيّدًا مرّة أخرى»، استرعت عبارته الأخيرة انتباههما، فقال موجّهًا حديثه إلى تيم:«سأصنع منك مخلّصًا ومنقذًا، فتُفتح لك أبواب الهضبة على مصراعيها، وتحتضنك كابن غائب!». لقد كانت خطّته تقتضي بإحراق المحصول فيفلس السيّد ماضي أمام السّادة والمجلس، فيظهر بعدها الشّخص المنقذ الآتي من المدينة، الذي تربطه قرابة ما بالسيّد ماضي، الذي أتى مسرعًا فور سماعه بما حلّ بمحصوله حاملًا سبائك الذّهب، فيزوّجه ابنته وينقذه من ورطته، ولكنّ تيم ونرجس كان لكلّ منهما اعتراضه، قال تيم:

- ولكن سيفتقدني الفلّاحون!

- أنت فلّاح وضيع، لن يفتقدك أحد!

- هب أن أحد السّادة عرفَني!

- قلت لك أنّت فلّاح وضيع، لا أحد يراك!

صمت تيم وغرق في تفكير عميق. أمّا نرجس فقد بدأت تفكّر بالأمر بعد أن رأت ما كان عليه تيم. قالت إنها تريد أن تعرض الأمر على والدها أولًا، ثم تراجعت، ثم استقرّ الأمر على أن تخبر والدها بما حصل بعد إحراق المحصول، حتّى يكون الأمر أمرًا واقعًا لا سبيل إلى الرّجوع فيه. لم يكن القرار الذي اتخذته نرجس في ذاك اليوم قرارًا يسيرًا، ولكنّه كان مدفوعًا بقوّتين ساعدتا في اتخاذه، فأولهما كان حبّها العظيم الذي تحمله لتيم، وثانيهما اعتقادها الجازم بأن والدها لا يهتمّ للمحاصيل والتّجارة على الإطلاق ويوليها أمرهما، فوجدت أن من حقّها أن تتخذ هكذا قرار دون حتّى أن ترجع إليه. قالت في نفسها إنه سيسامحها، سيعذرها بحبّها، فهو لا يريد شيئًا سوى أن يراها سعيدة.

بدأت الشمس تقترب من كبد السّماء وتصب لهيبها على رؤوس الفلّاحين، وبدأ الدّخان المنبعث من سواد القمح بالتّلاشي، وظهرت أرضُ السيّد ماضي كسوأة سوداء وسط حقول القمح المصفرّة. اجتمع حول الأرض المحروقة عددٌ من رجال الدّرك، كان بعضهم يتجوّلون حول المكان علّهم يمسكون بطرف خيط يقودهم إلى الفاعل، وآخرون يطوفون أقرب الأكواخ إلى أراضي السيّد ماضي، يستجوبون سكّانها من الفلّاحين، يطلقون الكثير من عبارات التّهديد والوعيد. لقد تملّكتهم حالة من الحنق مدفوعة بالعجز، عجزهم عن اكتشاف أمر الدّركي الذي اختفى أولًا، وعجزهم الآن عن معرفة الشّخص المسؤول عن إحراق المحصول. شخص ما يجب أن يدفع الثّمن، ليس من أجل إحقاق الحقّ وتحقيق العدالة، ولكن من أجل الحفاظ على الصورة المهيبة للسّادة والدّرك، ومن يقدر على دفع الثّمن غير أولئك الذين يرون تلك الصّورة؟ الذّين صمّمت تلك الصورة خصيصًا لكي يروها هم وتتطابق مع مستوى أنظارهم؟ استمرّ رجال الدّرك باستجواب الفلّاحين، ولا أحد يعطيهم جوابًا شافيًا. قال الجميع إنهم كانوا نيامًا واستيقظوا على الجلبة التي أحدثها الحريق، فمنهم من استيقظ على صوت النيران حينما صفعتها الرياح، وآخرون استيقظوا على الضوء الذي شقّته النيران في ظلمة اللّيل، وآخرون استيقظوا حينما فزعت دوابهم. ولم تكن أيٌّ من تلك الروايات شافية للدّرك؛ فانتقلوا من التّعنيف اللّفظي إلى التّعنيف الجسدي. عزلوا الرجال وطاحوا بهم جلدًا بالسّياط، حتّى الأطفال لم ينجوا من بعض الرّكلات والصّفعات، وكذلك النساء اللاتي حاولن الذود عن أزواجهن وأبنائهن. لم ينجُ أحدٌ من أيدي الدّرك في تلك السّاعة. استمرّوا في تعذيبهم أملًا في حفظ مياه وجوههم، وأملًا بإعطاء ضربات السّوط قيمة ما، ولمـّا لم ينالوا مرادهم، قرّروا أن يؤلموا الفلّاحين ألمـًا أشد، ألمـًا يتخطّى مفعوله بضع جلدات بالسّوط. تلقّى الدّركيون أمرًا مباشرًا من السيّد شدّاد بإحراق كلّ بيوت الفلّاحين التي تطلّ على أراضي السيّد ماضي. وبالفعل، أحاط بعض الدّركيين بالرّجال المتهالكين من أثر التعذيب خوفًا من أي تصرّف متهوّر يصدر من أحدهم، وهمّ الآخرون بإشعال القناديل وإلقائها داخل بيوت الفلّاحين. أخذت النساء يصرخن ويلطمن، والرّجال يئنّون من ألمٍ فوق ألم.

تجمهر حشد من الفلّاحين يراقبون المشهد، كان في مقدّمتهم آصف والسيّد ماضي ونرجس وتيم اللّذين انضمّا إلى الحشد أيضًا. كان الجميع يتألمون وهم يراقبون النيران وهي تلتهم قوائم المنازل الخشبية وتطيح بها أرضًا، ولكن لم يكن أحد يتألم ألمـًا أشدّ ممن افتعل الحريق. دار آصف بعينيه ناظرًا إلى الحشد من خلفه، أخذ يدقّق النّظر في عيونهم. لقد كانوا يتألمون، لقد كانت القرية القديمة تتألم بسبب فعلته. التقت عيناه بعيني نرجس وتيم. أشاحت نرجس عنه بشيء من استحقار، وأخذ تيم ينظر إليه نظرة عتاب عميق. لوهلة، فكّر بأن يلقي بنفسه بين أيدي الدّرك، أن يقول إنّه هو الفاعل، أن يعترف بأنه ليس سوى فلّاح وضيع، أنّه مغرق في الوضاعة ولن يجد إلى الرفعة سبيلًا يومًا من الأيام. أراد ذلك بشدّة، ولكنّ أمله عاد ومنعه في اللّحظات الأخيرة. تذكّر الذّهب، وتذكّر والده، وتذكّر رحلته للمدينة. تذكّر حقده الذي تضاعف؛ فكتم أمره وانزلقت من عينه اليسرى دمعةً أخفاها مطأطِئًا رأسه.

لم يستطع السيّد ماضي احتمال الأمر. اندفع نحو آمر الدّرك، وبّخه مليًّا وقال له:

- وما ذنب هؤلاء؟

- كالدّواب، لا يرون ولا يسمعون!

- ولكنّني غفرت!

- وأنا لم أغفر!

استمرّ السيّد ماضي بالتّحديق في عيني الدّركي الذي كان ينظر إليه هو الآخر في عينيه، استمرّ كذلك حتّى تقدّمت نرجس وسحبته من ذراعه وعادت به إلى الحشد، ثم طلبت من تيم وآصف أن يرافقاها هي والسيّد ماضي إلى مكانٍ آخر.

حدّثت نرجس السيّد ماضي بأمر الذّهب الذي وجدوه عند البئر القديمة، فتعجّب وأخذته دهشة، ثم حدّثته بأمر تيم وبرغبتها بالزّواج منه، فرافقت الدّهشة نظرة أخرى لا يمكن تفسيرها. كانت نرجس تخبره بذلك مستجمعةً كلّ ما أوتيت من شجاعة ناظرة إلى عينيه بثبات لكي لا توحي له بأي ضعف، حريصة على أن تكون كلماتها منمّقة ومرتّبة ومحكمةً حتّى لا تهتزّ ثقته فيها فيجد بعدها مبرّرًا للاندفاع والغضب، وقد نجحت بالفعل في أن تقول كلماتها دون أن تتلعثم أو تهتز، ولكنّها لم تستطع أن تمنع الحمرة التي غطّت وجهها والحرارة التي انبعثت من رأسها. أمّا تيم فكان يجلس متعرّقًا مطأطئًا رأسه مسترقًا نظراتٍ إلى السيّد ماضي بين الفينة والأخرى، مدفوعًا بواجب ذكوري لا يستطيع تحقيقه، ويتجنّب التقاء عينيه بعيني السيّد ماضي. أمّا آصف فقد كان يجلس معقود الذّراعين، ترتسم على شفتيه ابتسامة متعبة، يتابع الأمر بشوق فاتر. كانت نرجس حينها قد وصلت إلى الجزء الذي يخصّ إحراق المحصول. لم تستطع أن تخفي ارتباكها، أو أنها تعمّدت إظهاره لكي توحي لوالدها بشيء من النّدم. فغر السيّد ماضي فاه، ثم أخذ يقلّب عينيه بين الثّلاثة، ثم تناول رأسه بكلتا يديه وقال متمتمًا: «يا للمُصيبة!»

الفصل السّادس

آلهةٌ أُخرى

(1)

أن تسافر بروحك إلى أعمق نقطة في ذاتك، إلى أعمق نقطة في الوجود، أن تشعر أنك جزء من الكل، وأن الكل يعبر من خلالك، أن تشعر أنك أنت والشجر والحجر والنسمة العابرة أجزاء في منظومة واحدة، حتى وإن كنت تجهلها ولا تدري كنهها، ولكنك تشعر أنك تنتمي إليها. لا تعلم ملامحها ولكنك تشعر بها وتتوق لرؤيتها، وتستعين بها حينما تصبح إنسانًا أكثر من كونك روحًا، حين يخالطك الشك والريبة، أحد أسباب الكفر والإيمان معًا.

توقّف كنان وسط جمعٍ من المريدين يتوسطهم الشيخ يوسف أمام ضريح أخضر ابتلع أغلب مساحة الغرفة. نُقش عليه عبارات مزخرفة باللون الذهبي تجعل الناظر إليها يشعر بمهابة في نفسه دون حتى أن يحاول أن يقرأ شيئًا منها. بلغ الضريح في ارتفاعه عنق الشيخ يوسف الذي كان يحني رأسه ويتوسل بصوت أقرب الى الجهر ويقابل وجهه لوحة مستطيلة كتب عليها «ضريح الشيخ العارف أيوب الحسيني»، وكتب تحتها بخط صغير «رضي الله عنه». كان يظهر أن الشيخ يوسف يتوسل إلى الله، ولكن كنان كان يسمع كثيرًا اسم الشيخ صاحب الضريح في توسّلاته حتى إنه ما كاد يذكر اسم الله دون أن يذكر اسم الشيخ. خلال ذلك كانت أصوات المريدين تعلو من حوله وتختلط فيها الكلمات بالدموع وحتى بالصراخ أحيانًا. لم يكن هذا المظهر غريبًا لدى كنان، فهذه المرة لم تكن هي المرة الأولى التي يخرج فيها بصحبة الشيخ يوسف ومريديه إلى الأضرحة التي تنتشر حول القرية والقرى المجاورة؛ فقد مضى على صحبته لهم بضعة أسابيع اكتسب خلالها رقعتين في ثوبه ولحية مهملة انتشرت في وجهه حتى كادت تصل الى عينيه، غير أنها كانت منسدلة كانسدال شعر رأسه الذي كان ليصنع بسواده الفاحم مع بشرته البيضاء مظهرًا مثاليًا، لولا ثوبه الممزق العتيق وبعض الندوب التي تركت أثرها على جبينه ويديه إثر سقطته في البئر.

كان كنان يقف في زاوية الغرفة يبتهل إلى الله صامتًا، فلم يكن يجد ذاته مع الله في دعاء صاخب، وإنما كانت ابتهالاته تخرج من قلبه إلى ذاته دون أن تجد لها طريقًا إلى لسانه، وفي بعض الأحيان يهز حديثه مع الله صدره حتى تفيض عيناه، فالكلمات بالنسبة اليه

قاصرة عن البوح بما يعتمل في نفسه من صراعات وأسئلة وحب وبغض وتقديس وتحقير وسمو وهبوط، فكان دائمًا يقول لنفسه إنه لو كانت الكلمات قادرة على وصف كل ما يعتمل نفس البشر لما وجدت الموسيقى ولما وجد الرقص ولا وجد الرسم، فكل هذه الفنون تحاكي شعورًا لا نعلم حقيقته ولكننا نشعر بهذه الفنون تداعبه وتفتح نافذة تجعلنا نطلّ عليه بأرواحنا فقط. كان كنان يذكر رقصاته مع أصدقائه على نغمات الربابة في مناسباتهم السعيدة، ويذكر تأثره مع نغمات الناي في أوقاته الحزينة، ويذكر كيف أن كلًّا من الآلتين في موضعه كان له أثر السحر في نفسه، ولكنه يذكر أيضًا أن أثر هذا السحر وحالة الأنس كان مؤقتًا زائلًا لا يدوم ككل شيء في هذا الكون، ولكنّه الآن لم يعد يشعر بالرغبة في الاستماع لأي منهما، ليس لأنه لم يعد يشعر بالحزن والفرح، ولكن لأنه وجد شيئًا يقوم في نفسه مقامهما، ويجعله أغلب الوقت في حالة متوسطة بين الحزن والفرح، بين الإقبال الشديد على الحياة والإعراض عنها، حالة السكينة التي لم يعرفها مطلقًا سوى بعد لقائه الأول مع الشيخ يوسف وكلماته التي علقت في ذهنه.

لم يأتِ الشيخ يوسف في أول لقاء له مع تيم على ذكر ضريح هذا الشيخ أو غيره ممن قاموا بزيارتهم في الأسابيع الماضية، ولم تكن كلماته عن أصحاب الأضرحة هي التي دفعته لمرافقته. حاول أن يتجاهل الأمر في البداية، ولكنّ الأمر كان كثيرًا ما يثقل على نفسه، وأخذ يتعجّب من أن ذكرهم لا يورثه سكينة في نفسه كما هو الحال لدى الشّيخ يوسف والمريدين. علّل الأمر أخيرًا بأنه لا يعلم، لا يعرف أصحاب الأضرحة كما يعرفهم الشّيخ يوسف وبقيّة المريدين.

في طريق عودتهم، كان الجمع صامتًا، تقودهم انحناءات الطّريق وتعرّجاته. كان كنان يمشي مجاورًا للشّيخ يوسف وقد أرهقه طول المسافة؛ فسأل نفسه: «لماذا يجب أن نتّبع انحناءات الطّريق؟». فكّر قليلًا ثم أجاب:«لأن الانحناءات للطّريق نفسه»، ثم نظر إلى جانبي الطّريق وقال:«قد يكون وراء الأشجار طريقًا مختصرًا». فكّر بأن يقول فكرته للشّيخ ولكنّه علم أن أحدًا لن يلقي له بالًا. لوّح بيديه وقال في نفسه:«لقد اعتادوا الطّريق». كان الصّمت بالنّسبة إليه خانقًا ومملًّا، فأراد أن يستثير حوارًا مع الشّيخ يوسف، فقال له:«حدّثني أكثر عن أصحاب الأضرحة».

عن يمين الشيخ يوسف، كان يسير رجل تبدو على ملامحه الغلظة، يبدو في هيئته وملبسه ككل أتباع الشيخ، ولكنه كان يفوق أغلبهم طولًا وعِرضًا، حتى لحيته وشعره تبدوان أكثر عظمًا وشعثًا من الآخرين. كان كل ما يعلمه كنان عنه أنهم ينادونه بالشيخ ضرغام، فقد كان الرجل كثير الصمت تدعو ملامحه القاسية وعيناه الغائرتان للتساؤل وتوحي بالغموض، وعُرف عنه أيضًا أنه قليل الاكتراث بالأحاديث الجانبية التي تدور بين المريدين، ولم يكن يسمع صوته سوى في الدعاء والنواح عند الأضرحة، غير أن تساؤل كنان لفته بشكل ما، فرمقه بعدها بنظرة قاسية وتلاها بكلمات كانت أقرب للصراخ: «أصحاب الأضرحة؟!، كيف تدعوهم أصحاب الأضرحة!، ألا تعلم كم هم قريبون من الله؟... ألا تعلم كم هم قريبون

لنا؟... إنهم يسمعوننا... يقضون حاجاتنا بقربهم وبجاههم عند الله... إنهم أصحاب الكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة، المغفرة... المغفرة لهذا الجاهل!»، وذرف بعدها دمعتين متأثرًا بحديثه. أما كنان فلم يلحظ جرمًا ارتكبه في حديثه سوى أنه لا يعلم، فقال الشّيخ يوسف مؤكدًا ذلك:« لقد قلتها يا ضرغام، إنه لا يعلم... من الخطأ يا ولدي أن تصف أولياء الله وأصفياءه من خلقه وصفًا منكّرًا، فإن كانوا هؤلاء العظماء غير معرّفين فمن يكون في الدنيا معرّفًا، فهل يجوز أن ننكّر من عرّفه الله ومن عرفوه... فما تقوانا يا ولدي إلا كقطرة في بحر تقواهم وما علمنا إلا كذرة في رمال علمهم... سأحدثك عن بعض كرامات الشيخ العارف بالله أيوب الحسيني، يروى عنه قدس الله سره، أنه كان في جمع من المريدين في ليلة يعلمهم فيها بعض من علمه الغزير النافع، إذ نزل شبح فيهم لا يدري الحاضرين ما هو، فأطرق الشيخ ساعة ثم ارتفع الشبح إلى السماء، فتعجب الحاضرون وعم بينهم الخوف والهلع، فتبسم الشيخ وقال لهم: «لا عليكم، هذا ملك أعياه ذنب فسقط علينا يستشفع بنا، فشفعت له، فقُبل ذلك فارتفع»، لقد اخترت هذه الكرامة لأرويها لك خاصة يا ولدي لكي تعلم أن مقام الأولياء قد يعلو على مقام الملائكة المعصومين فلا يكونوا معصومين بالنسبة إليهم، وأن لديهم جاهًا عند الله كفيل بأن ينقذنا من العذاب ويقينا سوء العاقبة... وفي هذا يُروى عن الشيخ العارف مصطفى الشافي رضي الله عنه - الذي قمنا بزيارة ضريحه بالأمس - أنه طلب من الله أن يدخله النار! فتعجب مريدوه وسألوه عن العلّة في ذلك، فقال لهم إنه إذا دخل النار صارت مروجًا خضراء ولم تكن بذلك لتصلح مكانًا للعذاب والعقاب!... لو أراد هؤلاء الأولياء الصالحون ألا يدخل أحد منّا النار وأن لا يبقى لأحد منا حاجة إلا وقضوها لفعلوا، ولكنهم لا يفعلون ذلك تأدبًا مع الله يا ولدي، فاطلب منهم الشفاعة حيث كنت، واستعن بهم فيما عزمت، ولا تخشَ بعدها خذلانًا، أسأل الله بجاههم أن يوفقك ويهديك». عظُم شأن الأولياء في نظر كنان، والتبس عليه الأمر، ولكنّ فكرة عدم علمه استثارته بشكلٍ ما لا سيما وقد عقّب عليها الشّيخ يوسف، فقال موجّهًا حديثه للشّيخ:«ها أنا الجاهلُ قد علمت، فماذا عن الذين لا يعلمون؟ أيكُون هذا عدل؟»، أجابه الشّيخ يوسف وقد قطّب جبينه:«ومن قال إن في هذه الدنيا عدلًا؟ وكيف تعرف العدل إن كنت لا تعرف كيف تسير الأقدار وما هو خافٍ منها؟ لا تسأل كثيرًا يا ولدي فالشيطان يجد طريقه إلى النفوس الضعيفة باختلاق السؤال!».

صمت كنان وشعر بتأنيب في نفسه بسبب الضيق الذي سببه للشيخ يوسف بسؤاله، وظهر له من ذلك أنه يجب أن يلجم عقله أكثر، ويستعيذ بالله أو بأولياء الله من الشيطان، وهنا قفز سؤال آخر إلى رأسه، هل يجوز أن يستعيذ بالله وحده من الشيطان؟ أو أن يستعيذ بالأولياء وحدهم من الشيطان؟. طرد الفكرة من رأسه سريعًا ثم استغفر الله وطلب السماح من الأولياء وعزم أن يتوقف عن السؤال، ولا يدري بعدها كيف زاحمته ضحكة وهو يسأل نفسه: «كيف لي أن أمنع سؤال الشيطان إن كنت لا أدري كيف أستعيذ من الشيطان!».

خلف كنان والشيخ يوسف وضرغام كان يسير شاب ظريف الطلعة نحيل لم يبلغ العقد الثاني من عمره بعد، كان يتابع الحديث الذي دار منذ برهة، وشعر بشيء من الحرج الذي

وقع فيه كنان نتيجة لتساؤلاته، فوجد أنه ربما من واجبه أن يخلق جوًا من المرح ليخرج كنان من هذه الحالة، خاصةً أنه كان أول من يحادث كنان بعد وصوله إلى زاوية الشيخ يوسف، فربت على كتفه ثم سحبه إلى الخلف هامسًا له: «لماذا تسأل أسئلة لا طائل منها؟ يبدو أنك مشاغب يا صديقي الجديد... ولكن لا عجب، فأهل هذه القرية لديهم رؤوسٌ أصلب من الحجارة، حتى إنني بدأت أشك أنهم على خلاف كل الناس خلقوا من الحجارة وليس من التراب». أتبع حديثه بضحكة مصطنعة ثم واصل: «سأحدّثك عن كرامة لم يحدثك عنها الشيخ يوسف ولن يحدثك عنها أحد قط... حَكى لي أحد أتباع الشيخ فوّاز الناجي كرامة عن الشّيخ... قال إن الشيخ دخل إلى الحمام ليغتسل في أحد النهارات الحارة وكان برفقته خادمه فأتى الخادم على فعل أغضب الشيخ... فوضع الشيخ يديه الاثنتين مكان ذَكَره ثم سحبه فاستطال حتى وصل إلى كتفه، وأخذ يجلد به الخادم ويؤنبه!». لم يستطع كنان أن يقاوم ضحكة انفلتت منه وهو يتخيل الموقف الذي قصّه عليه رسلان، ثم تداركها مكمّمًا فاه بكفّه.

ساد الصّمت مرّة أخرى، وعاد كنان ليغرق في تساؤلاته. أخذت أسئلته تتفرّع كثيرًا، فقد بدأت بالأولياء أولًا، ثم تتالت حتّى أمسك بالفكرة ذاتها، كان يقول في نفسه:« هل أهل القرية يعلمون أنهم حينما يبتعدون عن المعاصي أنهم يخافون من الناس ولا يخافون من الله؟ ألا يجعلهم ذلك عبيدًا للناس وليسوا عبيدًا لله؟ أغلب المؤمنين يخافون من الله أمام الناس ويفعلون ما تشتهي أنفسهم في غفلة من أعين الناس، والمؤمنون الحقّ منهم يتجلّى إيمانهم بعد أن ينتهي من معصيته وليس قبلها، فيظهر إيمانه على هيئة ندم على ما ارتكبه من معصية طمعًا في مغفرة الله ورحمته التي تتوفر عند الله ولا تتوفر عند الناس!... الناس مرةً أخرى!... ألا يُعتبر أصحابُ هذه الأضرحة أناسًا أيضًا يساوونا في كل شيء؟ وأين الله من هذه الفوضى؟... يا إلهي!... إن عقلي يؤرّقني وتساؤلات الشيطان تهزّ أركاني!... ولكن... لماذا يخلق الله آلهة أخرى!».

كان كنان يمشي محدّقًا أمامه وعيناه تسبحان في الفراغ وقد استولى عليه هذا السّؤال الأخير:«لماذا يخلق الله آلهة أخرى؟»، فتجاهل كون السّؤال منبعه الشّيطان كما أخبره الشّيخ يوسف والتفت إلى رسلان وقال له:«أيخلق الله آلهةً أخرى؟!».

شقت جملته سمع الشيخ يوسف وضرغام؛ فالتفتا إلى كنان ورسلان وأخذا يقلبان أنظارهما بينهما. اكتسى وجه رسلان بحمرة وهو ينظر إلى الشيخ يوسف وضرغام نظرة مفادها أنه لا علاقة له بما يتفوه به كنان من كفر وهرطقة. كان كنان لا يزال بعد مأخوذًا بوقع الفكرة في رأسه وبمنطقيّة التّساؤل وبأحقيّة طرحه على الملأ، فلم يفق إلا على صوت صراخ ضرغام:«إنه يتكلّم كما يتكلم أتباع عزّام!... إنّه مدسوس... لقد كانت سقطته في البئر مدبّرة... لقد أراد أن ينسلّ بيننا ثم... ثم يقتُلنا!... اقتلوه!... أو... لا... لا تقتلوه... لا تنجّسوا أيديكم به... سلّموه للدّرك فليقتلوه هم».

بدا أن الجمع يستحسن كلام ضرغام ويرمي كنان بنظرات الريبة والعداء، حتى إن البعض منهم تمترسوا خلف ضرغام منتظرين اللحظة التي ينقضون فيها على كنان ويقيدونه ويذهبون به إلى منطقة السادة ليسلبوه حياته، ولا ينقصهم لفعل ذلك سوى تزكية وشهادة من الشيخ يوسف والذين معه، وينتهي به الحال بعدها ملقًى على ظهره في وادٍ خلف هضبة السادة، فيصبح جسده طعامًا للصقور الجائعة التي سيكون لها النصيب الأكبر من جسده، ثم تأتي بعدها الغربان والبوم لتأكل ما تبقى منه، حتى لا يبقى بعدها من جسده سوى العظام التي ستكون طعامًا مميزًا للكلاب الهائمة، تلعقها ذهابًا وعودةً كلما شعرت بالجوع، يستمر ذلك حتى يغطي التراب عظامه بفعل الزمن، فيسقط بعدها من الذاكرة، فلا الصقور تذكره، ولا الغربان ولا حتى كلاب البر الهائمة.

انتظر الجمع إشارة من ضرغام لينقضّوا على كنان، ولكنّ ضرغام لم يكن ليقدم على خطوة كهذه دون رضى من الشيخ يوسف؛ فآخر شيء يريده هو أن يحل عليه غضب الشيخ الذي سيكون له يومًا ما ضريحًا لا يقل في هيبته وأهميته عن ضريح الشيخ الحسيني أو الشافي أو الناجي، فقد شهد هو بنفسه حدوث كرامات عدة على يد الشيخ يوسف، يذكر منها رؤيته للشيخ يمشي على الماء فجرًا، حينما شعر بالأرق أثناء نومه فخرج ليجد الشيخ يوسف على هذا الحال وهو يقطع النهر الى الضفة الأخرى، فبالرغم من أن الرؤية لم تكن واضحة إلا أنه كان ميقنًا بأن هذا الذي رآه هو الشيخ يوسف، وعندما سأله بعدها عن هذه الواقعة لم يرد الشيخ ولم يعطه جوابًا شافيًا إن كان هو الذي عبر النهر مشيًا على الماء أم لا، عزا ذلك لتواضع الشيخ يوسف وعدم تمسكه بالمظاهر وحرصه على عدم إظهار كراماته أمام أحد، ولم يكن يدري ما غرضه من إخفاء قدراته وكراماته. هذا وقد عهده في أيام أخرى يدخل غرفة معتمة حتى لا يترك فيها متسعًا لبصيص ضوء يقتحم خلوته، فيبقى فيها أكثر من شهر لا يخرج منها أبدًا ويكون زاده خلال تلك الأيام تمر وماء فقط. لهذه الوقائع وغيرها كان للشيخ يوسف في نفس ضرغام الكثير من الهيبة والمحبة والاحترام والخوف في أحيان أخرى حينما تراوده نفسه لفعل شيء أحمق دون علم الشيخ، أو لفعل أي شيء يعلم مسبقًا بأن الشيخ لا يرضى عنه، فكان يتميز غيظًا وتكاد الدماء تنفجر من حدقتيه وهو يكوّر يديه مستعدًا لينقض على كنان، وكان يسترق كل لحظة نظرة للشيخ يوسف الذي كان مطرق الرأس متكئًا على عصاه مغمض العينين كأنه ينتظر أن يلهمه شيء ما بتصرف صحيح، أو قد بدا أنه ينتظر من قوة خفية ما أن تغوص إلى نفس كنان فتكشف عن ما في قلبه ثم تخبره بما رأت فيبني قراره الصحيح عندئذ. هكذا اعتقد مريدوه عندما رأوه على هذه الحال، فأخذهم صمت ثقيل قبل أن يفتح عينيه ويقلب نظره بين المريدين موبّخًا إياهم:«ماذا تنتظرون؟ لما لا تسفكون دمه في حضرتي؟... هاتوه معكم، سنتحدّث حينما نصل إلى الزّاوية».

أكمل الجمع مسيرته إلى الزاوية في صمت لم يخلُ من بعض الهمهمات التي جرت بين المريدين والتي يتساءلون فيها عن مصير كنان بعد الوصول إلى الزاوية، وبالرغم من أن المسير لم تتغير وتيرته قبل الحادثة الأخيرة إلا أن قلب كنان كان يهوي مع كل خطوة،

وبدت له قدماه ثقيلة جدًّا وناءتا بحمل جسده، لقد كان الأمر بالنّسبة إليه كأنه يسير نحو الموت المحقّق.

شعر بالدهشة والسخرية من نفسه أن هذا الموت هو ذاته الموت الذي اختاره منذ أسابيع قليلة ولم يكن يشعر بالخوف منه كما هو الحال الآن. ثم تكشّف له أنّه لم يكن يريد الموت، ولم يكن يريد الحياة أيضًا، لقد كان يريد الحقيقة. إنه يواجه الموت الآن لا لشيء سوى أنه يبحث عن الحقيقة، وشعر بالخوف أنه سيموت قبل أن يصل إليها، فقد أيقن في موجة تفكيره الأخيرة أنّ عقله سيقوده للحقيقة يومًا ما، وأن الشيطان لن يختبئ وراء تلك التّساؤلات كثيرًا.

تضرع إلى الله كثيرًا في تلك اللحظات وكان يسأل الله أشياءً كثيرة وكانت كلها تتمحور حول طريقة ينجده بها من هذا المأزق الذي حل به. كان منها مثلًا أن ينزل الله صاعقة بالثلاثة الذين يحيطونه فيتمكن بعدها من الهرب سالمًا ويشق طريقه إلى مكان آخر غير هذه القرية التي ضاقت به سبلها بعد موت أمه، ولكنه عاد ليتساءل: «ومن أنا حتى ينقذني الله بشكل معجز كهذا؟». أعياه التفكير وكاد يقوده للجنون فاكتفى بدعاء بسيط لله بأن يخرجه من مأزقه، وترك لله اختيار الطريقة المناسبة، وهذا ما حدث بعدها، غير أن إنقاذ الله له كان خليطًا من أشياء كثيرة سألها لله خلال مسيرته القصيرة والتي لم يكن ليتوقع أن يستجيب الله لها أبدًا!

(2)

بالقرب من هضبة السادة، وعلى الطريق الذي يلتف حول القرية مقتحمًا الغابات التي تحيط بالحقول، كان شاب يلهث راكضًا يلاحقه مجموعة من الدّرك يحملون أسلحتهم الآلية ويطلقون رصاصاتهم باتجاهه. كان الشاب يركض في مسارات متعرجة عله يستطيع بذلك تشتيت الرّصاصات التي تحاول أن تخترق جسده، ويتحرّى مواضع الأشجار فيجعلها خلفه علّها تذود عنه، ويقبض بكفّه على لفافة ورقيّة يحرص أن لا تنفلت منه أثناء ركضه. كانت أنفاسه تتلاحق وتسبقها قدماه في سرعتها وتتزاحم الأفكار والخواطر في مخيلته. وفجأةً توقّفت إحدى قدميه وهوى ملقًى على الأرض تلا ذلك صوت عيار ناري عرف أنه كان للعيار الذي أصابه. مزّق الألم صدره وسعل سعلة تحمل معها بعضًا من دمائه. كان العيار قد اخترق ظهره ممزقًا رئته اليسرى. تحامل على ألمه وأخذ يزحف بإحدى يديه بينما كانت اليد الأخرى تحتضن اللّفافة، حتى استقر بين شجيرات وتوارى خلفها. استلقى هناك وقد علم أن هذه هي ساعته وحمد الله على أنه سيموت وهو يسعى في سبيله.

على الطريق ذاته، كان كنان لايزال غارقًا في هواجسه ويتراءى له مصيره المظلم إن قرر الشيخ يوسف تسليمه للسادة. كان يحاول أن يهرب من نظرات المريدين من حوله بالنظر إلى جانبي الطريق، إذ سرقه من حالته تلك أصوات أعيرة نارية آتية من جانب الطريق الشرقي الذي يطل على القرية، تلاها جسم أسود اندفع كالبرق من جانب الطريق اتضح له بعدها أنه شاب يرتدي عباءة وعمّة سوداء. انتقل الشاب إلى جانب الطريق الآخر واقتحم الغابة متواريًا خلف الأشجار الكثيفة. كان يركض في أثره ثلاثة من الدرك. اقتحم اثنان منهم الغابة خلف الشاب وتوقف أحدهم حينما رأى الشيخ يوسف ومريديه. اتكأ على ركبتيه لحظة ليلتقط أنفاسه ثم رفع رأسه وأشار نحو الغابة قائلًا:«إنه أحد أتباع عزّام!». لم يكد الرجل ينهي عبارته حتى اندفع ضرغام إلى الغابة وتبعه معظم المريدين إلا بعضهم الذين آثروا البقاء برفقة الشيخ يوسف. وجد كنان في ذلك فرصة لا تفوّت. نظر تجاه القرية وفكر بالعودة إليها، إلا أنه كان قد خطط مسبقًا لترك القرية إن قدّر له الهرب؛ فلم يجد بدًّا من الاندفاع وراء المريدين إلى الغابة.

بعد أن قطع شوطًا لا بأس به من الركض توقف كنان قليلًا علّه ينال لحظات من الراحة. تناهى إلى مسمعه خلالها مناجاة لصوت متعب تتقطع أنفاسه ويزاحمه السعال مع كل كلمة ينطق بها. اقترب كنان باتجاه الصوت فوجد الرجل ذا العباءة والعمّة السوداء ملقى على ظهره وقد سالت خيوط الدماء على وجنتيه. تبسّم حينما رأى كنان وتمتم بكلمات فهم كنان منها أنه يقول إن الله استجاب له، وبيد مثقلة رفع الرجل لفافة الورق إلى كنان وهمس له بكلمات كان يظهر أنها وصيته.

كان وقع الأقدام اللاهثة الآتية من بعيد يزاحم كلمات الرجل في أذنه، فما إن أنهى الرجل كلماته حتى اندفع كنان مُطلقًا قدميه للريح، وكان آخر ما سمعه أثناء ركضه صرخات ضرغام وصوت عصاه التي هوى بها عدّة مرّات مهشّمًا جمجمة الرجل.

الفصل السّابع

ما لي وما للناس!

(1)

عمّت الاحتفالات القرية ومنطقة السادة، تحول منزل السيد ماضي إلى قاعة للاحتفال. تمت مضاعفة أعداد الشعلات التي تضيء البهو وعلّقت الزينة على الأقواس التي تعلو الأبواب والممرات. كان للقوس الذي يعلو باب المنزل الخارجي النصيب الأكبر من الزينة التي صنعت من الخوص وجريد النخل الملوّن، أما ساحة المنزل الخارجية فكان يكفي أن توضع شعلتان على طرفيها حتى يظهر جمال أزهار النرجس والسوسن والجوري. تأنقت نساء السادة وبعض نساء الفلاحين من الخدم وذهبن وفودًا إلى منزل السيد ماضي، وما كانت إلا دقائق بعد غروب الشمس إلا وكان البهو قد امتلأ بالنساء اللاتي أفرطن في الزينة وبالغن في ضحكاتهن وسط صخب الغناء وآلات الموسيقى. أما رجال السادة فقد اجتمعوا في ساحة قرب المنزل خصصت للمناسبات العامة، كان يطلق على هذه السّاحة اسم ساحة الشّريف سليم أول الأشراف الذين سكنوا القرية، وكان يقام فيها الأعراس والمآتم ويتم فيها استقبال الضيوف ذوي الأهمية. كانت الساحة مفتوحة على الهواء الطلق، تحفها من الجانبين قضبان حديدية غرزت في الأرض وعلقت عليها شعلات النار لتوفير الإضاءة الكافية للحضور، أما داخل الساحة فقد كان تمثال ضخم للشّريف سليم، يصوّره منتصب القامة رافعًا رأسه للسّماء ومستندًا بكفّه على عصاه. يقابله مقاعد خشبيّة رتّبت بشكل دائري بحيث إنها كانت تضيق عند المنتصف عند الشخصيات الهامة وتتسع حولها اطرادًا مع الأشخاص الأقل أهمية، وتركت دائرة لا بأس بها في المنتصف يتقدم إليها من أراد أن يوجه كلمة للحضور، أو للرقص والمرح كما هو الحال اليوم.

أخذ كل من الحضور مكانه على المقاعد تبعًا لمكانته، فكان مجلس السادة يشغل سبعة مقاعد من الدائرة الصغرى يتوسطها مقعد السيد رشيد الذي بدا أكثر ارتفاعًا وعرضًا من بقية المقاعد من حوله، أما شواغر الدائرة الصغرى فقد كانت طبيعة الحدث هي التي تحدد من يشغلها، ففي مناسبة كهذه يكون أصحاب المناسبة ضمنها، كالسيد ماضي وزوج ابنته المستقبلي والشيخ يوسف الذي لا يمكن أن يتم حدث كهذا دون مباركته. أما في المقاعد الخلفية فكان يجلس من تبقى من السادة، يتلوهم بعض مريدي الشيخ يوسف وكبار الخدم

من الفلاحين الذين يعهد إليهم السادة بالثقة والأمانة كأصحاب نفوذ داخل القرية وكلمة مسموعة لدى الفلاحين.

دعى الحضور الشيخ يوسف ليتقدم إلى الدائرة التي تتوسط الحضور مفتتحًا بكلمته الحفل: «أيها السادة الكرام، في هذا الزمان وهذا المكان حيث تحفّنا بركة الأولياء الأطهار والزهاد الأبرار وبمباركة السيد رشيد حفظه الله ورعاه وسدد خطاه فإني أعلن وأبارك عقد قران كريمة السيد ماضي نرجس على ابن عمها السيّد غريب، أسأل الله بجاه أوليائه أن يبارك لهما ويبارك عليهما وأن يرزقهما بذريةٍ صالحةٍ يكون لها من خدمة الأولياء وحفظهم نصيب، أسأل الله أن يحفظكم ويرعاكم».

أنهى بذلك الشيخ يوسف كلمته ثم انسحب عائدًا إلى مقعده. تقدم بعدها الخدم من الفلاحين يجرّون السمين من المواشي، حتى إذا طرحوهم أرضًا وقيدوهم دعوا السيد رشيد ووضعوا في يده سكينًا حتى تحظى الأضاحي بمباركة ذبحه إياها، وبعد أن أنهى الجمع مراسم الذبح حمل الخدم الأضاحي حتى يتم طهيها وإطعام الجمع والفلاحين. تقدّم بعدها إلى الساحة بعض شباب السادة يحملون آلات الموسيقى، وأخذوا يترنّمون بالتواشيح ويؤدون بعض الرقصات التي توارثوها عبر الأجيال. عمّت حالة من الفرح بين الجمع وأخذ الجالسون منهم يتبادلون الأحاديث والضحكات بينما يرتشفون منقوع التمر الذي يضفي طابعًا من البهجة، ربما لارتباط مذاقه بالمناسبات السعيدة لديهم، ولا شك أن تلك الأحاديث التي جرت كان يتخللها بعض نظرات الريبة التي كان يلقيها السيد رشيد بين الفينة والأخرى على تيم والسيد ماضي، ولم يخلُ أيضًا من بعض التساؤلات الملغومة عن المكان الذي كان يعيش فيه السيّد غريب، وعن تجارته وأخبارها، إلا أن كل الشكوك والتساؤلات كانت دون جدوى فقد دبّر السيد ماضي مسبقًا لكل شيء بإحكام شديد ولم يدع مجالًا للشك أو الريبة أن تبلغا مبلغًا لا يمكن السيطرة عليه، لا سيما وأنه ينوي أن تكون هذه الليلة آخر لياليه في القرية. لقد صدِم مما فعلته نرجس بإحراقها المحصول، ودُهش حينما علم بحكايتها مع تيم، ولكنّه لم يجد في نفسه أي حرج من أن تتزوّج ابنته ذاك الفلّاح مادام أنّه اختيارها. لقد كان كلّ ما أرقه ساعتها منازل الفلّاحين التي أحرقت نتيجة فعلتهم. لقد قالت له نرجس يومها إنّها ستتكفل بإصلاح تلك البيوت، طمأنته بأن الذهب الذي يمتلكه تيم وآصف يكفي لفعل أي شيء. طلب منهم حينها أن يرى الذّهب. أخذوه إليه ورآه بعينيه، ولكنّ ريبة كانت لا تزال في صدره، فأمر أن لا تعود نرجس إلى بيتها إلا وبرفقتها بعضٌ من السّبائك. لبّى الثلاثة أمره، واتّفقوا بأن يمضي السيّد ماضي إلى المدينة، ثم يلحق به تيم، ويعودا بعدها معًا. ابتاع تيم من المدينة ما غلى من الثّياب ومن العطور، واشترى عربة فاخرة، واستأجر سائقًا وخادمين يرافقانه إلى القرية مع السيّد ماضي، وقام قبلها بإزالة لحيته وأبقى على شاربه وقصّ شعره حتّى يصعب التعرّف عليه. فأصبح تيم بهذا السيّد غريب. أحد تجّار المدينة الذي تربطه قرابة بعيدة بالسيّد ماضي.

(2)

على الطرف الآخر من القرية التف مجموعة من الفلاحين حول قصعة خشبية كبيرة ملئت عن آخرها بالأرز الأبيض وتوسطها هرم من لحوم الأضاحي المطهوة جيدًا. تزاحمت الأيدي واختلطت بالأحاديث والجدالات الجانبية وبعض الضحكات العفوية، فبالرغم من أن هؤلاء لم يسمح لهم بحضور الحفل في منطقة السادة إلا أن حالة من الفرح كانت تطغى بشكلٍ أو بآخر. تساءل آصف أثناء مزاحمته الفلاحين على اغتراف الأرز واقتناص الكبير من اللحم عن تلك الحالة الغريبة من الخضوع التي تجعل الإنسان يتعامل مع هذا الاحتقار كأقصى ما يمكن الحصول عليه، عن تلك الحالة التي تجعل الفلاحين ممتنين حينما يجود السادة عليهم بقصعة كهذه. لقد كان ينظر للفلّاحين وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة متعجّبة، فلم يتوقّف الأمر عند شعور الفلّاحين بالامتنان فقط، ولكنه تعدّاه بمشاركة السّادة فرحتهم أيضًا! تساءل آصف: ما الذي يجعل هؤلاء يعتقدون يقينًا أنهم أقل من السادة؟ أليس لهم الجسد نفسه والعقل نفسه والرّوح نفسها... أليس لهم الإله نفسه أيضًا؟!، أجاب نفسه: إن السّادة ينازعونهم طعامهم وشرابهم وحتّى فراشهم! إنهم لن يغامروا أبدًا بأي من الثلاثة، لن يغامروا بأن يخسروا أحدها. إنهم يعيشون من أجل الثلاثة فقط، وإن منازعتهم إياها يجعلهم أكثر تعلّقًا بها ممن سواهم!... لا عجب أن السّادة لازالوا يحكمونهم... ويهينونهم وهم فرحين بذلك!

" ما لي وما للناس!"، هكذا اختتم آصف تأملاته قبل أن تختطفه تساؤلات الفلاحين من حوله عن اختفاء صديقه تيم، ولم يجد بعدها مفرًّا من أن يسوق المبررات ويحيك الحكايات عن انتقال تيم إلى مكان آخر بعد أن ضاق به الحال هنا، إلا أنه بالرغم من ذلك لم ينجُ من ألسنة الفلاحين اللاذعة الذين اتهموه ممازحين بأنه فأل شؤم على كل أصدقائه، وتلا ذلك ضحكة جماعية بادلها إياهم آصف بابتسامة مصطنعة.

(3)

مرّت أسابيع على الحفل، لازال كل شيء في القرية على حالته الأولى، لا تغيير يطرأ على هذه القرية سوى ما يتركه الزمن على وجوه الفلاحين المتعبة، فقد لا يلحظ الفلاح مرور الوقت إلا عندما يرى أولى شعيرات الرجولة تنبت على شارب ابنه، وقد لا يلحظ الابن مرور الوقت إلا عندما يرى الشيب يغزو شعر والديه أو عندما يدركهما الموت ويختطفهما في غفلة منه، فيحاول عندها أن يجد أي قيمة للوقت الذي مضى، فلا يجد، يحاول أن يقهر الوقت ويعود رغمًا عنه بذكرى، ولكنّها لا تسعفه، فيصبح الوقت عندها ثمينًا... ثمينًا جدًّا.

الوقت هو الشيء الوحيد الذي لا يتحرك في دائرة، يظل يمضي في خط مستقيم إلى الأبد، وما هو الأبد؟، الأبد هو شيء يسير في ظل الوقت ولكن لا سلطان للوقت عليه، لعلّ هذا الأبد الذي لا سلطان للوقت عليه يكون هو نهاية الوقت!

أسابيع مرّت، ولا شيء تغيّر سوى استبدال اسم السيد ماضي باسم السيد غريب وزوجته الحسناء نرجس اللذين حلّا محل السيد ماضي في وصايتهما على الأراضي، بعد أن قرر السيد ماضي اعتزال الناس ذاهبًا برفقة الشيخ يوسف عقب انتهاء زفاف ابنته. طمأن ابنته ليلتها بأنه سيغيب بضع ليالٍ، ولكنه لم يكن ينوي العودة أبدًا. قرر أن يطويه الغياب كما يطوي الموت صفحة الإنسان، فتصبح العودة إليها ضربًا من الابتذال والجنون. اختار أن يكون موته في عيون أحبائه مشرّفًا فيه الكثير من السموّ والرفعة والإرادة المطلقة خاليًا من إهانة انتزاعه من الدنيا انتزاعًا، وأراد في آخر أيامه أن يعبّر عن شيء ما يدور في نفسه حين أطلق على تيم اسم غريب، ليصبح بذلك السيد غريب، الغريب عن الفلاحين، والغريب عن السادة، وربما الغريب عن هذه الدنيا.

بإيعاز من السيد غريب، أصبح آصف من كبار الفلاحين المسموح لهم بالصعود إلى هضبة السادة وقضاء الساعات الطوال برفقة السيد غريب. كان اللقاء يبدأ بحضور نرجس والسيد غريب معًا ويطلعهما آصف خلالٍ ذلك على سير العمل في الأراضي وعن شكاوى الفلاحين المعتادة التي لا يلقي لها أحد بالًا، ثم ينسحب السيد غريب برفقة آصف إلى ساحة المنزل الخارجية ويقضيان وقتًا طويلًا يتهامسان، الأمر الذي كانت نرجس تنظر إليه بكثير من الريبة والحذر، كانت الأحاديث تدور بينهم حول الفلاحين والذهب وشيئًا عن انتزاع السيادة، هذا كل ما استطاعت نرجس أن تتبينه من محاولاتها الكثيرة في التنصت على تلك الأحاديث المبهمة والتي كان يظهر أنها تشير إلى شيء خطير على وشك الوقوع.

الفصل الثّامن

عَصا الدّهماء

(1)

أرحام تدفع وأرض تبلع، هكذا تعيش هذه القرية، دون قيمة لما بينهما سوى الجنس والعمل والطعام والشراب، التي تشكّل بدورها ضرورة للحياة ولا تشكّل هدفًا لها، ألا تكون قرية كهذه تتخذ من ضرورة وجودها أهدافًا إلا قرية على شفير الهاوية، وكما هو حال الدنيا، لا يطيب لها دائمًا أن تحقق الأهداف البشرية، وتلقي بالبشر في هوّة الشقاء والنصب الذي لا نهاية له، حتى يلقى الانسان حتفه وهو يلهث علّه يجد الراحة ما بعد الموت... وهل تُراه يجدها؟

أمام طاحونة الهواء، تجمهر عدد كبير من الفلّاحين مطالبين بنصيبهم من شوالات الدقيق التي وهبها السيد غريب حصرًا للفلاحين العاملين في أراضيه، ليزيل عنهم بذلك أعباء القمح المستخدم لصناعة الخبز، وتبقى حصصهم التي يتلقونها مقابل العمل في الأراضي لاستبدالها في سوق القرية بمتطلبات العيش اليومية كالطعام والشراب والملبس ويحققون بذلك جانبًا من الرفاهية التي ما كانوا يتوقعون الحصول عليها في أفضل أحلامهم، حتى وإن انطبقت السماء على الأرض، وحتى إن خُسف بهضبة السادة بكل من فيها. كان باب الطاحونة الصغير ينوء بالجموع المتزاحمة من أمامه، فامتدت الأيدي وتدافعت الأجساد وتبادل الكثيرون السباب وحاول البعض القفز فوق الجموع للوصول إلى باب الطاحونة. كان الفلاحون على استعداد تام لأن يخطو أحدهم فوق جسد الآخر للحصول على حصته من هبة السيد غريب الثمينة، على الأقل بالنسبة إليهم؛ فلدى هؤلاء الفلاحين لا شيء أثمن من شوال دقيق يسدّ أفواه أبنائهم طوال موسم كامل، غير أن تزاحم كهذا أظهر كثيرًا مما في نفوسهم تجاه بعضهم البعض، فها هو أحد الفلاحين يقوم بدفع فلاحٍ آخر متعمّدًا لسابقة بغضاء كانت في نفسه له، ليس لشيء جلل، وإنما لأنه سمع من فلّاح آخر ذات ليلة أنه ذكره بسوء في جلسة سمر ما، وها هو آخر يدفع فلّاحًا أمامه حتى أوقعه أرضًا، ليس لشيء إلا لكونه أحد أبناء كبار الفلّاحين الذي كان يكنّ لهم ضغينة في نفسه نظرًا لأنهم ينالون من السادة أكثر مما ينال هو، وآخر يرمق آخر بنظرة حُمّلت بكل أحقاد الدنيا لأنه سبقه إلى حبيبته التي لم يستطع دفع مهرها بينما استطاع هو، وأخيرًا يمدّ رقبته ويفتح فاهُ رامي كبير الفلاحين بأقذع الشتائم متهمًا إياه بأنه لا يستطيع أن ينظم الحشد

المتجمهر أمامه، أو هكذا ادّعى، فالسبب الحقيقي لم يكن أكثر من حسدٍ لأنه أصبح على حين غرة أحد كبار الفلّاحين دون أي مقدمات تذكر. أطلق حلقه بكثير من عبارات الحنق التي اختلطت بالشتائم وبرذاذ فمه، ولحسن حظه أن كبير الفلاحين لم يسمع منها شيئًا.

هؤلاء الفلاحون حانقون على الدنيا، حانقون على كونهم فلّاحين، وفي الوقت ذاته راضون بكونهم فلاحين، فالحنق لا يترجم لديهم إلا على صورة حسد وأحقاد تدور رحاها بينهم، فتتحوّل المواقف الصغيرة اليومية التي لا تستدعي سوى التجاهل إلى مشكلات كبيرة تستدعي الكثير من التجاذبات لحلّها.

وقف آصف من خلفه باب الطاحونة ومن أمامه جمهور الفلّاحين محاولًا أن ينظّم توزيع شوالات الدقيق التي عرفت لدى الفلاحين بهبة السيد غريب، ولكنها عرفت لديه بهبته هو. كاد جمهور الفلاحين المتزاحمين أن يسقطوه أرضًا لولا تمسكه بجانبي الباب الذي كان يخشى أن يقتلع عوارضه الخشبية تحت ضغط الفلاحين، كما كان يخشى أن يقتلع صراخ الفلاحين الهيستيري صوابه. لعن وقتها ألف مرة الساعة التي قرر فيها أن يقدم لهؤلاء الغوغاء شيئًا، وتساءل مرارًا إن كان هدفه من كل ذلك يستحق هذه المعاناة، وبعدما أعياه الوقوف والجدال وقبل أن يفقد صوابه قرر الاستعانة ببعض الفلاحين من ذوي الجثث الضخمة لمساعدته في ضبط وتنظيم الجمع مقابل زيادة طفيفة في حصصهم، ونأى هو بجانبه إلى ظل شجرة يستنشق لفافة تبغ ويراقب خلالها دهماء الفلاحين يتدافعون ويرشقون بعضهم بأقذع الشتائم ويتبادلون اللكمات في أحيان أخرى.

خلف الفلّاحين وقف رجلٌ تغطّيه أسمالٌ باليةٌ تميزها رُقعٌ صفراء وخضراء اختلطت بكثيرٍ من الغبار حتى صار من الصعب تمييز لونها، وعلى وجهه كان يضرب قطعة قماش كانت بالكاد تغطي أنفه وفاه وتنساب منها لحية سوداء مغبّرة، يعلو ذلك عينان قلقتان تتقلبان بين الجموع بفزع شديد وتخشيان أن تطيلا النظر لأي شيء ولأي أحد. لفت آصف مظهر الرجل الذي كان يتنقل خلف الجموع متخفّيًا وأصابه ما كان عليه بكثير من القلق والحيرة، فنسي أمر الفلّاحين وأخذ يتابع حركات الرجل وإيماءاته، وفي التفاتةٍ مفاجئة منه أصابت عينا آصف عيناه. أطال الرجل النظر وضاقت عيناه وبدت فيهما لمعة لم يعلم آصف مغزاها. كاد أن يقوم إليه ويسأله عن أمره، ولكنّ الرجل انسحب في عجالة متخطيًّا الفلاحين والطاحونة متّجهًا نحو الكوخ المجاور لمنزل آصف. سرت رعشة في جسد آصف، تحسس الأرض من حوله متناولًا حجرًا بملء كفّه، وانطلق في أثر الرجل، ولكن الرجل كان قد سبقه ودلف إلى الكوخ مسرعًا.

هكذا تجلّى الغيب حينما وقف آصف يلهث أمام الكوخ، ما الذي يمنعه الآن من أن يقتحم الباب ويهشم جمجمة هذا الرجل الغريب الذي اقتحم كوخه سوى الغيب. على عكس ما توقع آصف، كان الرجل يشغل مكانًا من الكرسي مقابلًا الباب ويسند رأسه إلى الجدار مغمض العينين وقد انسابت القماشة التي تغطي شيئًا من وجهه على لحيته. كان الرجل

فاغرًا فاه يلتقط أنفاسه بصعوبة وتصدر منه خلال ذلك بعض أنّات مكتومة كأنه بلغ مبلغًا من التّعب جعله غير قادر حتى على إصدار صوت يعبّر فيه عن تعبه. مظهر الرجل وتلك الأنّات لم تكن هي من منع آصف من أن ينقضّ عليه.كان هناك طيفٌ ما يختبئ وراء هذا الجسد، شيء لطالما ألفه في صباه وكبره يقف المظهر أمامه عاجزًا عن التفسير، وهذا العقل يأبى إلا أن يمنطق الأشياء ويسلك إليها طريقًا يعبر من خلاله قبل أي شيء آخر، وهذا ما دفع آصف إلى أن يتقدم إلى الأمام بحذر ورويّة كبيرين. اقترب أكثر. كان الرجل ساكن الأطراف تمامًا. اختفت الأنّات ولم يعد شيء يدل على حياته سوى صدره الذي يعلو ويهبط ببطء شديد. أمامه كان آصف يتفرّس ملامحه. أخذ الطيف يعبر من خلال رأسه سريعًا ويمضي دون أن يدركه. أصبح الآن متيقّنًا أنه يعرف هذا الرجل. مدّ يده الى وجهه وصفعه بخفّة في حركة سريعة. تحركت وجنتا الرجل واضطرب جفناه المتعبان وارتفعا ببطء شديد... الآن زاره الطّيف ولم يغادر، لم يكن هذا الرجل سوى كنان، صديقه الذي غادره منذ مدّة.

(2)

لام آصف نفسه كثيرًا لأنه لم يستطع التعرّف على صديق الصبا منذ الوهلة الأولى، أي صديق ينكر صديقه مهما طرأ على مظهره من تغيّرات كلحية وشعر أشعثين وبشرة تغيّر لونها تحت وطأة الشّمس؟ فاختار أن يكفّر عن ذلك باهتمام ورعاية كبيرين أولاهما لصديقه المتعب، فها هو يستضيفه في منزله إلى أن يستفيق ويستعيد عافيته ويوصي إخوته وأمه بأن لا يغيب عن أنظارهم، وخلال ذلك أمر أحد الفلّاحين بأن يجدّد له منزل أمه الذي أُغلق منذ وفاتها، تجديد فيه شيء من الفخامة والأبّهة التي تليق بصديق أحد كبار الفلّاحين آصف، الشاب الذي يعلو صيته في القريّة باضطراد مستمرّ كاسم مرافق دومًا لاسم السيد غريب وكرمه منقطع النظير.

استغرق كنان بعض الوقت ليستفيق من سباته، وبعض الأيام لكي يستعيد عافيته، وخلال تلك الأيام لم يجرؤ آصف على سؤاله عما حصل وآل به إلى هذه الحال، ربما لأنه لم يرَ الوقت والمكان ملائمين للحديث بخصوصية عن أي شيء في منزله وبين إخوته، خاصةً أنه كان يودّ أن يطلعه على كلّ ما كان من أمر المحصول والسيّد ماضي وأمر تيم الذي أصبح الآن السيّد غريب وزوجته الجميلة نرجس، فوجد أنه من الملائم أن تكون تلك الجلسة في منزل كنان بعيدًا عن ضوضاء الفلّاحين وأعين وآذان إخوته.

للوهلة الأولى لم يكن كنان قادرًا على التعرف على منزل أمّه، فالباب الخشبي المتهالك الذي عهده استبدل بآخر مطليٌّ بلون أزرق سماويّ يبعث على البهجة، والأريكة الخشبية التي

كانت تتوسط الدار استبدلت بأخرى محشوّة بالصوف ومغطاة بقماش ذي نقوش وألوان بهيّة تحاكي لون الباب بدرجات مختلفة، واختفت نوافذ المنزل خلف ستائر انسجمت في لونها ونقشها مع تلك التي تغطي الأرائك بحيث أصبحت تشكّل طابعًا نمطيًّا للمنزل، أمّا سرير والدته القديم فقد استُبدل بآخر أكبر حجمًا وأكثرَ هيبة من سابقه، واستبدل فراشه ووسائده بأخرى محشوّة بالريش ومغطّاة بالحرير. استغرق الأمر منه عدّة دقائق حتى استطاع أن يجعل ناظريه يعتادا على هذه الفخامة والأبهة التي تحيط به، فالانتقال من خربة الشيخ يوسف إلى منزل يشبه منزل السادة لم يكن بالشيء الذي يمكن استيعابه سريعًا، أما وأنّ هذا المنزل مُلكًا له فهذا شأن آخر قد يستغرق منه أسابيع للاعتياد عليه، فها هو تبعًا للعادة يهمّ بالجلوس على الأرض التي استُبدل حصيرها بالسجّاد، لولا أن آصف نهره ممازحًا وطلب منه الجلوس على الأريكة الفاخرة. أشار آصف للفلّاح الذي أوكلت له مهام إصلاح المنزل فخرج مسرعًا ثم عاد بعد دقائق حاملًا كل ما قد تشتهيه النفس من أصناف وألوان الفواكه ووضعها في مكان متوسّط بينهما. أشار إليه مرّة أخرى فانصرف تاركًا إياه وكنان وكثيرًا من الحكايا التي تنتظر البوح.

اختار آصف أن يبدأ هو بحكايته، كان شغف الحديث لديه يطغى فوق شغف الاستماع على غير عادته، فقد أعياه حمل تلك الأسرار التي ينوء بها صدره، ووجد أخيرًا صدرًا آخر يبوح له بكلّ شيء ويساعده على حمل تلك الأثقال، وأيّ صدرٍ قد يحمل الأثقال دون البوح بها سوى صدر صديق قديم، ولكن حالة كنان لم تكن أفضل مما كانت عليه في آخر لقاء معه قبل رحيله، كان الشرود مسيطرًا عليه سوى من بعض الإيماءات التي يصدرها كل حينٍ متفاعلًا مع حكايات آصف والتي لم يكن مندهشًا لسماعها، فحكاياته التي يستعظم فيها فعله ليست سوى سردٌ لما رآه فيه كنان منذ البداية. استمر آصف في سرد حكايته وصولًا إلى هبات السيد غريب وآخرها شوالات الدقيق التي كانت من بنات شياطينه كما وصفها، قال معلّقًا على ذلك: «لا شيء تسوس به الدّهماء أفضل من قوت اليوم»، انسابت الكلمات من حلق كنان متأثرًا برفقته للشيخ يوسف: «خالقُ الدّهماء أعلمُ بالدّهماء»، ارتسمت ابتسامة صفراء على وجه آصف حين سمع تلك الكلمات وقال: «أصبت، أفضل شيء يسوس الدّهماء كلام خالق الدّهماء، والناطق باسم خالق الدّهماء، الشيخ يوسف قدّس الله سره ورعاه وأدام معجزاته وكراماته الخارقة!» قال كلماته الأخيرة مستهزئًا وألحقها بضحكةٍ قصيرة. كنان لم يبادله شيئًا من السّخرية التي اعتاد أن يبادله إياها، بل ارتسمت على وجهه تعبيرات غير مفهومة، فانطفأ وجهه وأشاح به بعيدًا. علم آصف أن هناك خطبًا ما يدور حول الشّيخ يوسف. لم يشأ أن يكون فجًّا، أومأ لكنان أن يروي حكايته. نظر إليه كنان مغتصبًا ابتسامةً وقال: «الشيخ يوسف هو بداية الحكاية».

قصّ كنان حكايته ابتداءً من سقوطه في البئر مرورًا بزاوية الشيخ يوسف وانتهاءً بالرجل الذي هشّم ضرغام جمجمته. كان يتلعثم كثيرًا أثناء روايته لتلك الأحداث، فالأثر الذي حفرته في نفسه لم تستطع الأيام محوه بعد وربما لن تستطع، أما آصف فقد كان شديد الإنصات يتابع حكايته بكثير من الدهشة ويتساءل كيف استطاع هذا الوديع الهشّ أن

يتخطّى كل تلك المِحن وحده، لقد صقلت نيران الأحداث معدنه، وكشفت عن معدنٍ صافٍ فيه الكثير من رباطة الجأش والصّلابة، ولوهلةٍ شعر أن الرجل الذي يجلس أمامه لا يشبه أبدًا ذاك الصّبي الغرّ الذي كان صديقه فيما مضى، وبمقارنة سريعة بين ما مرّ به هو وما مرّ به كنان أدرك لماذا لم يستطع التعرّف عليه منذ اللقاء الأول، لقد كانت الأرواح متباعدة.. متباعدةً جدًّا. قام وانصرف على إثر هذه الفكرة التي داهمته زاعمًا أنه يريد تركه لينعم ببعض الرّاحة في بيته الجديد.

انطلق آصف من بيت كنان وقد كان الوقت قارب منتصف اللّيل. مرّ بصفّ من البيوت الطينية المتهالكة عن يمينه وشماله. أفزعت حركته بعض الدّواب الموثقة على أبواب المنازل.ولكنّه سمع شيئًا ما فالتفت في عجالة. لم يرَ أحدًا. أكمل مسيره معتقدًا أنّه يتوهّم صوت خطوات بشريّة تتقفّى أثره.

(3)

«لقد دعوتُ الله أن ييسّر لي لقاء شخصٍ يحفظ به هذا الدّين من التلف والضّياع، وها هو الله يسوقك إليّ وأنا ألفظ أنفاسي الأخيرة... هذه رسالة من الشّيخ عزّام...أرجوك احفظها كما تحفظ عينيك، وأتمم ما جئتُ إلى هذه القرية من أجله، أوصلها إلى فلّاح يُدعى شُرحبيل، أخبره أنها منّي أنا، العبد الفقير تمّام... امضي الآن فقد أوشكوا على الوصول»، كانت هذه آخر كلمات الرجل قبل أن تطأ عصا ضرغام جمجمته وتساويها بأعشاب الغابة. لم تستقم حال كنان بعد أن روى هذه الحادثة، وبدا له أن آصف شعر بذلك، فقام الأخير وانصرف تاركًا إياه يخلو مع ذاته ولفافة الورق التي أعطاه إياها الرجل. متمهّلًا التقط اللفافة، لم تمنعه وصيّة الرجل أن يفضّها ويقرأ ما جاء فيها بشيء من الفضول، وكثيرٍ من الرغبة.

الفصل التاسع

فلّاحٌ وضيعٌ.. وزهرةٌ بريّة

(2)

نرجس، المرأة الجميلة، سليلة السادة، وزوجة السيد غريب، التي تعلم رغم صِغر سنّها الكثير مما يدور بين السادة، والتي تتولى منذ بضع سنين الاهتمام بشؤون الأراضي وتصدير المحاصيل بطلب من السيد ماضي، الشيء الذي أكسبها حنكةً وذكاءً مضافين لغريزة أنثوية لا تخطئ، فامتلكت بذلك صلابة وحنكة الرجال وجسد ودهاء الأنثى، والأهم من ذلك أنوثة الأنثى التي تجيد استخدامها جيّدًا، فهي تستطيع بكلمات لطيفة منمقة وعينين خجلتين يفيضان حياءً أن تنتزع من السيد رشيد ما شاءت، كزيادة في حصة المياه المخصصة، أو الحصول على أجود البذور لإنتاج محاصيل أفضل، وتستطيع أيضًا بنظرة جريئة وكلمات حادة أن تنزل الرعب في قلب كبير الفلاحين حين لا يكون سير العمل مرضيًا، هكذا كانت تفعل قبل أن يحل آصف محل كبير الفلاحين السابق، أما علاقتها مع مجلس السادة والسيد رشيد فاستمرت حتى بعد زواجها لأنها وجدت وزوجها أنه من الأفضل أن تتولى هي ذلك حتى لا يفتضح أمر غريب بلعبة من ألاعيب السيد رشيد ومجلس السادة.

«لا أثق في هذه الدنيا بأحد كما أثق بآصف» هكذا اعتاد أن يقول لها غريب حينما كانت تطلب منه أن تزور القرية وتطمئن على سير العمل في الأراضي. هي كانت تعلم جيّدًا أن ثقته بآصف لا تقلل من ثقته بها، ولكنها كانت تقول متصنّعة الغيرة: «ولا حتّى أنا؟!»، يهمّ بعدها إليها ويردد عبارته المعتادة: «ليس آصف كنرجس» ثم ينتزع من شفتيها قبلةً طويلةً. وبالرغم من الهواجس الكثيرة التي كانت تتردد في مخيلتها عما قد يفعله آصف والذي كانت تفترض أنه سيسبب ضررًا لزوجها في نهاية المطاف، إلا أنها لم تظهر يومًا العداء لآصف أمام غريب ولم تلمّح حتى لذلك، فكانت تجد أن من المريح لكليهما ادّعاءها أن آصف صاحب فضل عليهما وأنهما يدينان له بالكثير، فغريب بالنسبة إليها هو طفلها الذي تفضّل الكذب الذي يرضيه على الصّدام الذي يؤرقه، ولكن هذا لا يمنع أبدًا محاولاتها الدؤوبة لإبقائه بعيدًا عن أي خطر يتهدّده حتى لو كان ذلك الخطر آصف.

(2)

جلسات السّمر اللّيلية الخاصة بآصف لم تعد كسابقاتها بعد أن أصبح أحد كبار الفلّاحين، المكان والرّفقة والأحاديث، وحتى كؤوس الشاي، لم يتبقَّ من تلك الجلسات سوى لفافات التّبغ التي لطالما وصفها بأنها هي التي تحفظ عقله من التّلف، هذا وأنها كان لها مذاق خاص مع مشروبه الجديد، خليط من من الماء والحليب والسكر والدقيق، مضافًا إليه خليطٌ آخر من الدقيق ومسحوق اللوز، خليط يشبه كثيرًا فوضى الهواجس في رأسه التي أصبحت مؤخرًا مؤرّقة ولاذعةً تمامًا كمذاق هذا المشروب حينما تتخمّر مكوناته فتذهب بالعقل بعيدًا، بعيدًا عن القرية، والسّادة، والفلّاحين، والسيد غريب، الذي ليس بغريب، وزوجته نرجس التي أصبحت عقبةً بعد أن كانت وسيلةً فعّالة، وعجز صديقه غريب أمامها. الحب وصفةٌ فعّالة جدًّا للعجز هكذا قال لنفسه، فصديقه غريب غير قادر على السيطرة على زمام الأمور فيما يخص علاقته بمجلس السّادة ويخضع في كثير من الأحيان لتوجيهات زوجته، استيراده البذور ذات الجودة الجيّدة، وبذور محاصيل أخرى غير المقرّرة من مجلس السّادة قد يؤدّي إلى صدام مع مجلس السّادة والسيد رشيد الذي يحتكر توزيع الحبوب على بقيّة السّادة، ولكنّها ستضمن له إنتاج محاصيل ذات جودة عالية، ومحاصيل ذات أهميّة، فيسهل بذلك تسويقها بأسعار أعلى لدى تجّار المدينة، ولكنّ السيد رشيد يحتفظ لنفسه بأجود البذور وأصناف خاصّة منها حتى يضمن بذلك احتكاره للسوق، وبالتالي احتكاره للأسعار. نرجس لم ترَ أن الصّدام مع مجلس السّادة فكرة جيّدة، وتبعها في ذلك غريب، الذي ساق حجّة زوجته بأن مجلس السادة لازال يسيطُر على آبار المياه في القرية وتوزيعها أي المياه، وحينما طرح آصف فكرة حفر بئر جديدة خاصّة استعار غريب لسان زوجته وواجهه بالرفض، وأكّد له أن السيد رشيد سيجدُ ألف مبرّر ليمنع ذلك حتى وإن لجأ للقوّة، «الذهب الذي بحوزتك لا يستطيع صدّ الرصاص» كما قال. شعر آصف باستياء كبير عند رفض غريب لمقترحاته، وشعر في تلك اللحظة برغبة عارمةٍ بأن يرمي صديقه بشتيمةٍ كما اعتاد، أراد وصفه بالجبان، ولكنّ الكلمة أبت أن تنساب من حلقه، وعندها فقط شعر بعمق الهوّة التي أصبحت تفصله عن صديقه القديم، والتي لا يمكنه تجاوزها بأي حال من الأحوال، فتيم بالنسبة إليه السيد غريب، وهو لا يمكنه أن يضع نفسه لدى غريب بمقام أعلى من مقام كبير الفلّاحين. تلاشت في تلك اللحظة آماله الكبيرة وعادت لتذكّره بالشيء الذي يحاول نسيانه والتملّص منه، تذكّر مرةً أخرى أنّه بالرّغم من كل شيء فهو ليس أكثر من «فلّاح وضيع!».

(3)

على مقربة من سوق القرية الذي يتخذ مكانًا متوسطًا بين بيوت الفلّاحين. كان بناءٌ طينيّ يظهر ككل بيوت القرية الأخرى حينما تنظر إليه من الخارج، ولكنه من الداخل كان يشكّل مكانًا مناسبًا لكل من أراد اللّهو والضّحك، ومكانًا مناسبًا أيضًا لكل من أراد الحزن والبكاء، مكانًا مناسبًا لكل من يريد النسيان، فكلٌ يحاول النسيان على طريقته، إما بالبكاء أو بالضحك. كان روّاد هذا المكان يرون أنه نعمةٌ من الله، ويراه بقيّة سُكان القرية نقمةً وبلاء، وبهذا كان السيّد سيمون الآتي من بلادٍ بعيدة والذي افتتح هذا المكان، قديسًا أحيانًا وشيطانًا أحيانًا أخرى، ولولا أن السيد رشيد كان يرتاد المكان في بعض الأحيان، لأغلقه الفلّاحون منذ فترة طويلة، ومنع ذلك أيضًا فتوى من الشيخ يوسف بجواز شُرب الخليط المميّز الذي يقدمه السيد سيمون، والذي يحمل فوائد جمّة للعقل والجسد كما وصفه، ولم يكن يخفى على الفلّاحين أن الشيخ يوسف أحيانًا يُرسل أحد أتباعه ليأتي له ببعضٍ من هذا الخليط، ولولا انشغاله بجلسات الذّكر لحضر بنفسه وشرب مع الشّاربين، ولكنّ ذلك كله وإن كان يضفي على هذا المكان أهمية وربما تقديسًا فإنه لم يفلح في تجميل صورته أمام الفلّاحين الذين كانوا يرون فيه مكانًا للفجر والمجون ومكانًا للبغيّات من فتيات القرية لبيع أجسادهن للسادة وكبار الفلّاحين الذين يسمح لهم حصرًا بارتياده، خاصّةً وأن الفترة الأخيرة شهدت ارتفاعًا ملحوظًا في عدد الفتيات اللاتي يرغبن في العمل هناك بعد فتوى الشيخ يوسف التي نُظر إليها ضمنيًّا كفتوى بجواز ذلك، حدث ذلك بالرغم من النبذ والاحتقار الذي سيطالهن جرّاء عملٍ كهذا، ولكنّ لقمة العيش لم تترك لهنّ خيارًا آخر، فالفتاة التي مرض والدها وأصبح غير قادرٍ على العمل لم تجد بُدًّا من اللجوء إلى حانة السيد سيمون، كذلك المرأة التي ترمّلت، والفتاة التي دفعها زوجها لذلك لأن عمله لم يكن يكفي نفقاته الكثيرة. كان النّاس يرون فيهنّ عاهرات ويغضُّون أبصارهم عن السبب، يسألون «كيف؟»، ولا يسألون «لماذا؟»، يحاسبون النتائج ولا يرون الأسباب حتى وإن كانت واضحة كفلق الصّبح، الفلّاح الذي يُفني عُمره في العمل في أراضي السّادة ولم يكن له ولد يرث مهنته يقال إنه «حُكِم على ابنته أن تكون عاهرة»، يصيغون العبارة للمجهول، ولا يسألون أنفسهم من الذي حَكَم؟، أو إنهم سألوا أنفسهم مسبقًا وتجاهلوا إجابةً مفادُها أن «السّادة والشيخ يوسف حكَموا على ابنته أن تكون عاهرة!».

أخذ آصف مقعده المعتاد في الحانة بين مقاعد كثيرة ملتصق كلّ منها بطاولة توضع عليها المشروبات، وتسقط عليها رؤوس السّكارى عندما تعلن كفايتها من الخليط المميّز، وقد تكون مكانًا جيّدًا لبائعة الهوى عندما تتخذها مكانًا لاستعراض مفاتنها أمام الجُلوس. ترتيب المقاعد في الحانة ككل شيء يؤكد مكانة الروّاد، المقاعد المتقدمة خصصت للسادة، والمقاعد المتأخرة لكبار الفلّاحين، وعدد المقاعد المتوفّرة لكبار الفلّاحين يُحَّدد حسب عدد السّادة الحاضرين، وإن حدث وحضر أحد السّادة ولم يجد شاغرًا يُطرد أحد كبار الفلّاحين لتوفير مكان للسيد. كان هذا آخر ما يؤرق آصف في يومه قبل أن يفقد وعيه وتصبح الدنيا في نظره جميلةً لبضع ساعات تعينه على تمضية اليوم التّالي، وتنسيه ما حدث في اليوم السّابق. في هذا اليوم بالذّات كانت حاجته لنسيان ما حدث مُلحّة للغاية بعد الجدال الذي خاضه مع صديقه غريب والذي رفض فيه مقترحاته للتّمرد على مجلس السّادة بتوجيهات

من زوجته، واعتبر ما فعله صديقه وزوجته نُكرانًا للجميل، وتملّص من عهود الصدّاقة الكثيرة التي قطعاها سابقًا، قرر عند أول رشفة من المشروب أنه في حلٍّ من كل العهود التي قطعها له، وأن الصدّاقة بالنسبة إليه أصبحت شيئًا طي النسيان، ارتشف رشفة أخرى أكبر من سابقتها يستعجل أثر المشروب في رأسه. تلا الرشفة الثانية ثالثة ورابعة. أشعل بعدها لفافة تبغ وأسند ظهره للكرسي وأخذ يتأمل الحائط الماثل أمامه. رأى نفسه يمسك بتلابيب غريب ويشبعه ضربًا، رأى نرجس تنحني عند قدميه وتقبّلهما وتطلب منه الرضا. رأى نفسه يشدها من شعرها، يقبّلها، يصفعها، يرميها بعيدًا. رأى البئر القديمة. كان يقف عنده وينظر إلى القرية. رأى القرية تصغر وتتقلص، تصغر أكثر وأكثر، حتى مثلت أمامه كقصاصة ورق، طواها بيديه، ضحك كثيرًا، كثيرًا، فتح كفّه، كانت القرية تتحرك، فوجئ بها تسري من كفه إلى ذراعه تتداخل بين لحمه وعظمه. أخذت تسري إلى أن وصلت إلى صدره. استقرّت مكان قلبه. أخذت تكبر شيئًا فشيئًا. ملأت صدره. انقطعت أنفاسه.كان يريد الصراخ، لم يستطع، يريد الحديث، لم تسعفه الكلمات. انفجرت القرية داخل صدره فارتدّ للأمام. استفاق على قبضة تضرب ظهره من الخلف، وسوائل تتدفق من فمه، وكلمات تملأ أذنيه: «لقد أسرفت في الشراب كثيرًا».

أخذت فتاةٌ المقعد المقابل لآصف على الطاولة، تعبث بأطراف شعرها، وترميه بنظراتٍ وابتسامةٍ لها مغزى، عينا آصف تتقلب بين ما ظهر من ثوبها، كتفيها العاريين، وشيئًا من صدرها النّافر، شفتيها المكتنزتين المحمرّتين بفعل الكرز، خدّيها البارزين وعينيها الواسعتين المكتحلتين اللتين تشعّان جمالًا، ومجونًا. عاجلها آصف بسؤالٍ معتاد: «ما اسمك؟»، أجابته وهي تنظر إلى عينيه: «وهل يهمّ؟»، أجابها وهو يعود ببصره إلى جسدها: «ليس كثيرًا». غمزت وضحكت. طار عقل آصف. غطّت وجهه حمرة وشعر بحرارة تسري في جسده. رفع كفّها إلى فمه. قبّلها بهدوء. قام وسحبها من يدها. ضحكت. تمنعت في خجل. استجابت آخر الأمر. خرج برفقتها وقد قارب الوقت منتصف الليل، يتسلل بها بين البيوت، يتخفّى من الفلّاحين السّاهرين، يتحرّى الأزقّة المظلمة، حتى وصل بها إلى كوخه الصّغير. اشتبكا منذ لحظة دخولهما، صدرت أنّات مكتومة، أصوات قطع أثاثٍ تتحرك، قامت معركةٌ، اشتدّت لدقائق، ثم انطفئت، وهمد الكوخ من كل شيء، سوى من أنفاس متعبة، وغطّ من فيه في نوم عميق.

قبل طلوع الفجر، استفاقت الفتاة، راحت تلتقط ثيابها المتناثرة، آصف أشعل سيجارة وأخذ يتأمل السقف. خطت الفتاة نحو الباب. توقفت. التفتت إليه: «ألا تريد أن تعرف اسمي؟» قالت الفتاة. نفث دخان السيجارة. لم يلتفت إليها، قال: «لا يهم.. سأسمّيكِ نرجس»، ضحكت. لمعت عيناها. التفت وخرجت من الباب.

في اليوم التالي لم تحضر الفتاة البغيّة إلى الحانة. انتظرها آصف، لم يسمح لنفسه بالسؤال عنها. انتظرها فقط، ولم تأتِ. تصنّع عدم الاكتراث. شرب شرابه المعتاد. غرق في خيالاته المعتادة. انتظرها في اليوم الذي يليه أيضًا. مرّت ساعة، حضرت الفتاة، لم يستطع أن

يخفي لهفته. منعه كبرياؤه من الاعتراف بالانتظار. سألها: «لم أرك البارحة»، حاول أن يكون سؤاله جانبيًا وغير ذي أهمية. ردّت: «كنتُ مع السيّد عزيز، عجوز هرم، ولكنّه يدفع كثيرًا». امتعض. لوى عنقه. قال:«سأدفع أكثر». طلب منها أن لا تحضر إلى الحانة مجددًا، وأن تحضر كلّ ليلة إلى كوخه بعد أن تنام القرية، تصنّعت الفتاة التفكير، ثم وافقت.

في الليلة التي تليها أسرف آصف في الشرّاب. عاد إلى الكوخ. كان ينادي الفتاة التي أسماها «نرجس». كانت في انتظاره. استلقى على الأريكة. سألته الفتاة:

- لماذا أسميتني نرجس؟

- لا أعلم.

- من هي؟

- زوجة صديقي.

- أتُحبّها؟

- لا.

- أتكره زوجها؟

- ربما.

- تريد أن تكون مثله؟

- نعم.

- لماذا؟

- ...

- نمت؟

- ...

أصوات الديكة تتصاعد، الشعلة الزيتية في الكوخ تلفظ أنفاسها الأخيرة. استفاقت الفتاة. أصدرت حركتها صوتًا أيقظ آصف. تأمل لباسه، مكان نومه. عرف أنه نام دون أن

يلمسها.«تبدين جميلة» قال لها. ضحكت. التفتت إليه. قالت:«محظوظة زوجة صديقك لأني أحمل اسمها»، قطّب جبينه. نظر إليها نظرة شك. قال:

- أقلت لك ذلك؟

- نعم!

- كنتُ أهذي!

- هذيان السّكارى حقيقة

غادرت الفتاة. لم يكن آصف على سجيّته ذلك اليوم. أمضاه شاردًا، يختلق الاحتمالات، يضرب الأخماس بالأسداس. هو لا يعرف عن الفتاة شيئًا. باح لها بما لا يجب البوح به، ولا يدري بماذا باح أيضًا أثناء سكره. الفلّاحون في هذا اليوم ككل الأيام الأخيرة يتغنون باسم السيّد غريب، يضربون المثل بعطفه وكرمه، يسوقون إليه التّحايا مع آصف، يبعثون إليه بالهدايا الرّخيصة، يتصارعون لكي يحظوا بفرصة العمل في أراضيه، تدور الأحاديث بينهم ليلًا عن عدم رضى السيّد رشيد عنه، عن صراع خفيّ بينهما، يُلمّحون لآصف بالأمر، «أخبر السيّد غريب أننا معه»، آصف لا يستجيب، يومئ برأسه فقط. بنى صرحًا ليُسكن فيه السيّد غريب، أما هو أمسى مطرودًا منه. لعن الصّداقة، ولعن الثّقة. عادت الفتاة إلى ذهنه. انتظر حتّى حلّ الليل، لم يذهب إلى الحانة. انتظرها في الكوخ. حضرت الفتاة، لم يبدِ شيئًا من الريبة. أمضى ليلته معها ككل الليالي التي سبقت الليلة الماضية، حتى حان موعد مغادرتها عند الفجر. انطلقت الفتاة. تسلل في أثرها. تخفّى بين البيوت. الفتاة تمضي نحو الشرق، تتجاوز بيوت الفلّاحين، تقتحم الحقول، تتوجه نحو الطريق المؤدّي إلى منطقة السّادة. تبعها، اقتحم الحقول، أوقف حرس السّادة الفتاة، أشارت بيدها وتمتمت ببعض كلمات. سمحوا لها، الفتاة تصعد إلى الهضبة، تتجاوز عددًا من البيوت، تتوقف عند بيت يعرفه جيدًا، تنعطف إلى ساحته الخارجية، تفتح الباب وتمضي إلى الداخل، آصف يفرك عيناه علّها تخدعه، يقرص جلّده علّه يحلم، الفتاة في منزل غريب ونرجس.

(4)

«صديقك خائن!» نزلت كلمات نرجس كالمطرقة على رأس غريب، أو كسكّين مزّق قلبه، أو أنها كان لها أثر الاثنين معًا، لم يدرِ وقتها أعليه أن يصفع زوجته، أو يصرخ غاضبًا، أو يتّخذ مكانًا في الرّكن ويبكي. فكّر أن يفعل أي شيء سوى أن يعاتب صديقه القديم. كان ليسامحه لو أنه لعنه في غيبته، أو ألّب الفلّاحين عليه، أو قال أي شيء لا يمسّ حبيبته

نرجس، أي شيء أقل وطئة من أن يسمي عاهرة باسمها. في البداية باح لزوجته بأنه أصبح يوجس خيفة في نفسه من آصف، بعد الجدال الذي دار بينهما. قال لها إنه يعرف صديقه جيّدًا، إنه يضمر شرًّا في نفسه. كان حديثه لها من باب البوح الذي لا يعقبه فعل، أو البوح الذي يعقبه طمأنةٌ من المستمع، انتظَر من نرجس أن تطمئنه، أن تقول له إن صديقك لازال صديقك، إنه لن يخونك، ولكنّها تلقّفت هواجسه تلقّفًا، وأضافت لها، وأصبحت ترسم له سيناريوهات الخيانة المحتملة: «ماذا لو ألّب الفلّاحين عليك»، «ماذا لو باح بسرّك إلى مجلس السّادة»، «ربما يقتلونك.. ولن أسمح!». استقرّت شكوكها في ذهنه، رفض أن يبادر لأي فعل قبل أن يتثبّت، يريد أن يكون على بيّنة، فكّرت نرجس، أو تصنعت التّفكير، كانت قد أعدّت كُلّ شيء مُسبقًا، منذ اليوم الأوّل لغريب في منزلها أرسلت أحد حُرّاس السّادة في أثر آصف، يتتبّعه، يتقفّى مواضع تواجده، يُراقب أفعاله. علِمَت بأمر الحانة، أمسَكَت بطرف الخيط، أرسلت أحد الحرّاس إلى الحانة طَلَبًا لبائعة هوى بصفتها خادمة، لتُبرّر غُدُوّها وروَاحها إلى هضبة السّادة، أقنعت غريبًا بأن هذه هي الوسيلة المُثلى ليتبيّن، «كأسُ خمرٍ ومرأةٌ جميلة لا يُبقيان أسرارًا»، وقد كان ما حدث.

ثُمّ ماذا؟، تركت نرجس له مُطلق الحريّة في الإجابة على هذا التساؤل، ولكنها قالت له عبارةً واحدة: «افعل ما قد يفعله السيّد عندما لا يعجبه كبير الفلّاحين». كانت هذه العبارة تنطوي على الطّرد من القرية، وتنطوي على العزل، تنطوي على التعذيب والإذلال، وتنطوي على القتل أيضًا، قد يكون القتل نموذجيًّا جدًّا في هذه الحالة، آصف لديه القُدرة على فضح أمر غريب أمام السّادة، يستطيع أن يُدمّره في طرفة عين، ولكنّه يعلم أنه بذلك يفضح أمر الذهب أيضًا، وهو يعلم أن آصف ليس من الذين يقذفون بأوراقهم دفعةً واحدة. فكّر في ذلك بينما كانت تستثيره عواطف الصّداقة، فكان يُبرّر لنفسه وزوجته عدم اتخاذ قرار القتل، كذلك استبعد قرار التّعذيب ولم يبرّر ذلك لزوجته. وجد أنه من المناسب أن يتّخذ أهون العواقب. وجد أن يعزله من منصب كبير الفلّاحين، وليتركه وشأنه كفلّاح عاديّ، ويأمن بذلك شرّه... استبعد الحلول التي تصبغها الدّماء، ولكنّ آصف لم يفعل.

الفصل العاشر

يرسُم أشكالًا فيضحك... يرسُم أشكالًا فيبكي

(1)

يجلس على أريكته داخل الكوخ، يمسك بلفافة تبغ بين إصبعيه، يداه ترتجفان، يسقط هباء اللفافة على ثوبه، يحدث فيه فتحات صغيرة تحرق جلده، لا يلقي لها بالًا. مشدوه الفم ينظر نحو الباب، عيناه متصلبتان، البؤبؤان قلقان ويرفضان الحركة، فكّاه يرفضان الانطباق، يصطكّان فقط. أشعة الشمس تنبعث في خيوط من شقوق الباب، جسد ما يقف أمامها، يحول بينها وبين الباب. كنان يجلس مقابلًا له في الكوخ، لا تعبيرات تظهر على وجهه، عيناه منطفئتان، جفناه ناعسان. «سيقتلني» يريد أن يقول له، الكلمات لا تخرج وكنان لا يأبه. الباب يتحرّك، يهتزّ، تزيد اهتزازاته. عيناه تدمعان، معدته تتقلّص، كنان لا زال لا يلقي بالًا. حلقُ الباب لا يصمد، يتخلّى عن الباب فيسقط. جثّة ضخمة تسدّ الباب، لها ملامح تشبه غريب ولكنّها أكثر قسوة. يرى غريبًا يخطو نحوه، يمسك منجلًا في يده. يرى كنان يشيح بوجهه بعيدًا. يد غريب ترتفع للأعلى، تهوي بالمنجل على رقبته، ضحكات نرجس تتردد في أذنيه. «لا تقتلني» يقول. تُظلم الدُّنيا في عينيه.

فزِعًا، استيقظ آصف، العرق يغطي وجهه، تسقط منه قطرات في حجره، ثوبه يلتصق في ظهره وصدره بفعل العرق، الشمس تتسلّل من فتحات الباب، ولا جسد يقف أمامها، ينظر إلى الأريكة المقابلة، لا وجود لكنان. ضوضاء الفلّاحين في الخارج وصوت الطّاحونة يخرقان أذنيه، يعرف منهما أن الوقت قارب الظّهيرة. بجانبه قارورة ماء، يرفعها إلى فمه، يشرب بنهمٍ شديد، المياه تغمر حلقه وتنساب على جانبي فمه، يتناول لفافة تبغ، يحصي كم تبقّى من لفافات، لن تكفيه لساعات قادمة، يُخمّن، يتناول عود كبريت ويُشعل اللفافة، يُفكّر في طريقة مناسبة يظهر بها أمام الفلّاحين، لن يستطيع أن يخبئ نفسه في هذا الكوخ كثيرًا. أتاه خبر عزله البارحة ظُهرًا، ومنذ ذلك الحين يُبقي على نفسه حبيس الكوخ. لا يذكر كثيرًا مما فعله البارحة، سوى أنه أخذ يضرب رأسه في قوائم الكوخ حتّى أدمى جبهته، ثمّ كوّر قبضتيه وانهال عليها ضربًا حتى انسابت الدّماء من بين أصابعه. خوفًا من الفلّاحين لم يستطع الصّراخ، تناول عصًا كان يخبئها في زاوية الكوخ، انهال ضربًا على الأرائك فحطّمها كُلّها إلّا واحدة، لم تنجُ إلا لأنها كانت وراء ظهره، انهار بعدها على الأريكة التي وراءه. أخذت الدّموع تنساب من عينيه، اختلط بكاؤه بأنين حاد. تمدّد بعدها على

الأريكة وغفا. استيقظ بعد أن غربت الشّمس. أمضى وقته يحرق لفافات التّبغ ويرسم أشكالًا على أرضيّة الكوخ، ثم يمسحها، ويعود ويرسم أشكالًا أخرى، يرسم أشكالًا فيضحك، يرسم أشكالًا غيرها فيبكي. رسم الأشكال كُلّها أمامه، وأخذ يمدّ خطوطًا بينها، يمسحها، ويمدّها من جديد بطريقة أخرى، يتأملّها، يشرد بذهنه، يعاود الكرّة مرةً أخرى، حتى أخذه النّعاس قُرب الفجر ونام فوقها.

(2)

القرار الّذي اعتقد غريب أنه أقل العواقب وطأة، كان أشدّها في نظر آصف، التّعذيب والقتل ربما كانا عقابين مُرضيين له أكثر من العزل، فهما يشكّلان استمراريّة لكونه كبير الفلّاحين، ويُعمّقان ذلك في ذهنه وفي أذهان النّاس، كان لِيحظى جرّائهما بشرف المنهزم في المعركة، أما عزلُه بهذه الطّريقة فهذا يعني أنه لم يخُض معركةً من الأصل، بل لم يتمّ الاعتراف به كخصمٍ في معركة، وجد في هذا القرار إذلالًا وتحقيرًا كبيرين يفوقان احتماله، ويعمّقان في نفسه عقدة كونه فلّاحًا وضيعًا لا يصلح أن يكون ندًّا لأحد السّادة، حتى وإن كان أحد السّادة ذاك هو صديقه الذي أمضى طفولته برفقته، يلعبان بين أزقّة القرية وبين حقول الذّرة والقمح، يحاولان تسلّق أشجار الصّنوبر العالية، عَلّهما ينعمان بنظرةٍ لهضبة السّادة. كانت تلك أكبر مغامراتهما وأشدّها خطورة، كانا يقعان بين خطورة سقوطهما من أعلى الجذع أثناء محاولتهما للوصول إلى أقرب فرعٍ للشّجرة، وبين خطورة النّظر إلى منطقة السّادة. دون أن يعلما السّبب، كانا يعتقدان أن النظر إلى منطقة السّادة محرّمًا، وأن تلك النّظرة سيعقبها عقابٌ ما إذا ما اكتشف أحدٌ أمرهما. آصف كان يُصرّ على التّسلّق، غريب وكنان كانا يرفضان، يرضخان في نهاية الأمر لرؤية آصف، يساعدانه في معانقة أول جذع الشّجرة، يعلّق كنان نظره إلى الأعلى خوفًا على آصف من السّقوط، أما غريب فكان يلتفت حولَه خوفًا من اكتشاف أحدٍ أمرهم. يقلّب آصف عينيه في منطقة السّادة من أعلى الشّجرة، يبحث عن شيء ما لم يبح بأمره لصديقيه، لا يجده، يعود إلى البيت، أثر جذع الشّجرة يظهر على ثوبه الممزق وبعض القشور اليابسة التي علقت به، تعنّفه أمه لتكرار ذلك، يقول لها والدّموع تلمع في عينيه: «كنتُ أبحثُ عن أبي».

ذكرياتٌ كثيرة أصبح صدر آصف يضيق بها كثرةَ ما كانت تراوده في الأيّام الأخيرة، يرفض استحضار أشخاصٍ موتى إلى ذاكرته. سياقُ الحياة البشريّة يحتقر الصّداقة، فهي تُصاحب النّشأة الأولى التي يكون فيها الإنسان غافلًا عن الدّنيا، غافلًا عن الطبيعة الوظيفيّة له في الكون، التي يبدأ بإدراكها عندما يشغل وظيفته التي تتمثّل في كونه حاجزًا يحول دون انقراض الجنس البشريّ. تبقى شعلة الصّداقة متّقدة يحوطها الاهتمام والوفاء حتّى ظهور أول أُنثى التي تمثّل بدورها الجزء الآخر في عملية مكافحة الانقراض، تحوز هي ذاك

الاهتمام، تعطيه القدر الكافي من المشاركة، تؤكّد عمق دورها عندما تضيف معهما بشريًّا جديدًا، حتى يصبح الأمر مسألة أولويات، تأتي الصّداقة في مؤخرتها، وتنتهي بذلك الصّداقة المزعومة. وفي أحوالٍ أُخرى ينتهج مصرعُ الصدّاقة مسارًا آخر، فيكون مصرعها ضحيّة فكرةٍ اعتقد صاحبها أنها تمثّل دورًا وظيفيًّا له في الكون، فوق دوره الّذي تفرضه الطّبيعة، فتُصبح الرّفقة مُرتبطة باعتناق الفكرة والسعي نحوها، ولا صداقة في تلك الرّفقة، فتلقى بذلك الصّداقة مصرعها بشكلٍ آخر.

كنان كان يتّخذ مكانًا مُحايدًا في نفس آصف، يشعر نحوه بذاك الشّعور الذي ينتابك نحو شخص تربطك به علاقةٌ سطحيّة، لا تخلو من ارتياح، ولكن لا يُدعّمها عمق، كان هذا هو حاله معه بعد عودته من زاوية الشّيخ يوسف، أما غريب فهو في نفسه غريب، لا يذكُره إلا باسم غريب، حتّى إنه أحيانًا يشعر بذنبٍ خفي إذا ما حضر إلى ذهنه باسم غريب دون أن يخلع عليه لقب السّيادة، أما اسم «تيم» فقد لقي وصاحبه مصرعهما في نفسه منذ فترةٍ يُخيّل إليه أنها دهر.

(3)

مُستجمعًا قواه، وشيئًا مما تبقّى من كبريائه، همّ آصف بالخروج أخيرًا من الكوخ، مُستحضرًا أثناء خطواته تلك الأشكال التي أمضى ليلته السابقة يخُطّها على أرضية الكوخ، خُطواتٌ محسوبة، مدرُوسةٌ بعناية، لا تضع في هذه المرّة للعواطف البشريّة مكانًا بينها. الحبّ، الصّداقة، ليسا شيئًا يمكن الاعتماد عليه كعنصر ضمن خطّة مدروسة، الأهواء البشريّة تتقلّب، القلُوب البشريّة مجبولةٌ على التقلّب، لا سلطان لأحدٍ عليها، حتّى صاحبها يقف عاجِزًا أمامها، مندهشًا أمام تقلّبها، والإنسان ليس بإله، فإنه ان كان بامكانه أن يصطنع المواقف والأحداث والأحاديث، فإنه لا يستطيع أن يخرق القلوب فينفذ إليها، أو يفلق الرؤوس ويرى ما فيها. كم تمنّى آصف أن يفلق رأس غريب، ليس رغبةً منه في رؤية ما فيه، وإنما رغبةً في أن يُسيل دماءه، أن يصنع من نرجس أنثى ثكلى، تشعُر بمرارة الفقد بعد الامتلاك، وأن يختبر غريب شعور الألم. عندما وضع يده على مقبض الباب، أغمض عينيه لوهلة، طرد كل هذه الخواطر من ذهنه، فهي لن تساعده في ما يهمّ بفعله. تذكّر أثر الدّماء على جبهته، حكّها بأظافره. حاول تعديل هندامه، تخلّص من آثار الليلة الماضية. احتفظ منها بملامح البؤس على وجهه. لم تحتمل عيناه أشعّة الشّمس عند خروجه، استعان بكفّه، تقدّم بخطوات ثقيلة. اليوم توزّع آخر عطايا وهبات السيّد غريب، الفلّاحون مزدحمون عند الطّاحونة، يقوم على أمر التوزيع فلّاحٌ آخر، هو نفسه كبير الفلّاحين الذي كان يخدم السيّد ماضي، حاول أن تكون نظراته تجاه آصف ودّية، ولكن عبثًا، الشماتة تظهر مهما حاول إخفاءها. نظرات الفلّاحين تُلاحقه، الصّخب المسيطر آخذٌ في التحوّل إلى

همهمات تدور بين الفلّاحين مثنى وثُلاث ورباع، ضحكات تنطلق من هنا وهناك، فلّاح يضحك، يُلحق ضحكته بمقولةٍ حاول إظهارها كأنها مقولة مأثورة: «الطّاحونة دوّارة!»، في إشارة للمقولة المأثورة: الدّنيا دوّارة. ضحكٌ جماعي، فلّاح أو اثنان ممن كانوا يقومون على خدمة آصف ينهرانهم، يحاولان عبثًا السّيطرة على طوفان السّخرية المندفع، ينظران إلى آصف نظرة شفقة. هذا ما يحصل عليه الذي لم يخض المعركة، سخريةٌ أو شفقة، لا احترام فيهما، لا شرف. المقت داخل آصف يزداد، مقتٌ للفلّاحين العبيد، مقتٌ للسادة الطّغاة، يستعين بالأشكال التي كان يرسمها في الكوخ ليزيح ثقل المقت عن صدره، يرسم ابتسامة حزينة على وجهه، يتجاوز الفلّاحين، يصل إلى كبير الفلّاحين القديم الجديد، يتراجع الرّجل خُطوةً للخلف، لا يترك آصف له المجال، يندفع نحوه مُتأبّطًا إياه، يلف يديه حوله معانقًا. الهمهمات والضحك المكتوم بين الفلّاحين يتلاشيان، أعناقٌ مُشرئبّة، أفواهٌ مفغوُرة. يزيح آصف ذراعيه مُتراجعًا، يمسك بكتفي الرّجل، يهزّه برفق، يقول:«لا أحد أولى منك بهذا المكان!»، يشيح بنظره نحو الفلّاحين، يتناقلون ما قاله بينهم، يعود بنظره إلى كبيرهم، يقول:«هذه الشعرات البيضاء التي تزيّن رأسك شعراتٌ مُباركة، هي وسام أحقيّة لك». الهمهمات تعُود مجدّدًا بين الفلّاحين. يرخي يديه من كتفي الرّجل، يلتفت بجسده إليهم، هيّأ نفسه بأن يلقي خطبةً عصماء، تماثل تلك التي اعتاد على رؤية الشّيخ يوسف يقوم بها في سوق القرية، يأخذ نفسًا عميقًا، يقول بملء حنجرته: "لقد قال أحدكم إن الطّاحونة دوّارة... إني أودّ أن أشكره، وأقول له إني أعلم أن الطّاحونة دوّارة، وإني راضٍ بدوران تلك الطّاحونة فقط إن كان يديرها السيّد غريب... ما لا تعلمونه، أن السيّد غريبًا بالنسبة لي أخي، وأنا لستُ أهلًا لأخوّته... وهو سيّدي، وهو أهلٌ لذلك. على قِصَر المدّة التي عرفته فيها إلا إني تعلّمت منه الكثير، وددت أن تكون دهرًا، ولكن هي الدّنيا كما الطّاحونة دوّارة... وإني أخطأت فتسببّت بدورانها، اعذروني لكتمان ما أخطأت فيه، ولكن ما يجب أن تعرفونه جميعًا، أن السيّد غريب كان مُحقًا في عزلي، وإنه لتلطّف شديد منه أن يكتفي بعزلي، وهو يمتلك رقبتي!... إني أحب ذاك الرّجل دونما سبب... وسأفديه بحياتي إذا ما استدعى الأمرُ ذلك... وسأقولها جَهرًا دونما خوف، يكفي أن يكون السيّد غريب هو السيد الوحيد الذي نجتمع على حبّه، ونفديه بأرواحنا اذا ما استدعى الأمر!»، سرَت صيحات استحسان بين الفلّاحين بينما امتقع وجه كبيرهم. أراد أن يسترسل في خطبته، ولكنّ الأشكال والخطوط التي بات ليلته يرسمها حالت دون ذلك، فاكتفى بأن رفع كفّه مُحييًا جمهور الفلّاحين وانسحب.

ما إنْ أنهى آصف خطبته، إلا وكان كبير الفلّاحين قد أرخى قدميه للريح مُتعجلًا الوصول إلى هضبة السادة ولقاء السيّد غريب، كما فعلت عيونٌ أخرى، قصدت بدورها هضبة الأشراف أيضًا.

الفصل الحادي عشر

كنتُ أبحث عن الله!

(1)

بسم الله الواحد الأعظم

الذي لا إله إلا هو ولا سُلطانَ لذي سلطانٍ يعلو فوق سُلطانه، ولا مُلكَ لذي ملكٍ يفوق ملكه، الذي يسجد له الشّمس والقمر، ويسبّح بحمده الشّجر والحجر، سبحانه لا معبود غيره، أستغفره وأتوب إليه.

أما بعد..

فإني أنا الشيّخ عزّام أكتُب كتابي هذا لإخواني في قرية الصّابرين، وقد أسميتها بذلك تحرّجًا من أن أدعُوها قرية الأشراف، فإنه لظلم شديد، وضلال بعيد، أن يكون منّا الأشرافُ ومنّا العبيد، فلا عبيد إلا لله، ولا معبود إلا الله، ولا شرف من بعد ذلك سوى لأنبيائه المخلصين، وعباده الصدّيقين، وإن هذه الطّغمة الفاسدة، والجماعة الجاحدة، القابعة فوق هضبة القرية، الجاثمة فوق صدور الرعيّة، قد طال ظُلمها البلاد والعباد، وملأت الأرض جَورًا وفسادًا، متجاهلين أقوال النّبي الصّادق، متّخذين كلمات الفاسق يوسُف مِنهاجًا ودينًا، وهم يعلمُون أن يوسف ومن تبعه كفّار في حكم الشّريعة الرّبانية، ملعونون بمخالفتهم التعاليم السّوية، ولكن هو دأب الظّلام على مرّ العصور، وديدنهم في مختلف الدّهور، يتّخذون كلبًا يدّعي صلةً خفيّة بالله، يُشرّع لهم ما كان من أمرهم، ويعينهم على ضلالهم، ولكنّ الظّالم وإن تمادى في ظلمه، وأمعن في غيّه، فإنه مأخوذٌ بظُلمه طال الزّمان أم قصر، وإن يوم الحِساب آتٍ لا ريب، ولعلّه يكون قريبًا.

هذا ويا إخوتي في قرية الصّابرين، إنكم تعلمُون ما لقريتِكم من أهميّة عظيمة، وإني خبرتكم ذوُو صبرٍ وعزيمة، كيف ولا وقد كنتُ قائمًا فيكم حينًا من الدّهر، قبل أن تطالني بقدر الله أيدي الكفر، وتلقي بي بعيدًا عن الأرض التي أحببت، وإن كنتُ لأعلم أن كلّ الأرض بيد الله، فاني أعلمُ أيضًا أن القلوب بيد الله، يقلّبها كيف يشاء، ولقد أورثني البُعد

عنكم ضيقًا وشقاء، ولكن هي أقدار الله نقبلها بصبر وعزيمة، حتّى يكون لنا لقاء، ولعلّه يكون قريبًا.

إن قريتكم هذه ما حكمها على مرّ العصُور سوى حُكم الله والشّريعة، قبل أن يحكمها أسلاف رشيد لعنة الله عليهم وعليه، وما رشيدٌ هذا سوى أقبح خلف لأقبح سلف، وقد حمل وزرهم أبوهم الذي أسموه الشّريف، وما هو من الشّرف بشيء، وكيف يكون لذي شرفٍ شرفٌ بعد أن يُفرّط في دينه، ويفتح الباب لأصحاب العُقول الصّدئة من أمثال يوسف بأن يجدوا لهم متكئًا في القرية، فيقولون عن الله بعقولهم العفنة ما ليس له أصلٌ في سيَر الأوّلين، ولعلّه ما فعل ذلك إلّا ليجد لأسلافنا في الدّين بديلًا، ويُشبع الشّريعة تحريفًا وتبديلًا، فيُمسك بذلك بزمام أمرها، فيقول عن الحرام حلالًا والحلال حرامًا، حسب ما يمليه عليه شيطانه والهوى، وتجّار المدينة.

إن رشيدًا هذا الذي يدّعى السيّادة كذبًا ما هو إلا عبدٌ لتُجّار المدينة الذين يفرضون عليه كلّ ما كان من شأن الزّرع والمحاصيل، أنواعها وألوانها، مقدارها ومقاديرها، توزيعها وتدبيرها، وإن كان يوسف هو كلب رشيد، فإن رشيدًا هو كلب التّجار، والتّجار كلاب جهنّم، وإني لأظلم الكلب ظلمًا شديدًا إذ أنعتهم باسمه، فإنهم يأكلون نتاج الأرض، ويلقون لرشيد بالبقيّة، ويضيع بذلك حقّ الرّعية، ويشيع بذلك الفقر بينهم، وتكثُر فيهم المغارم، وتنتشر المظالم، حتّى إنه قد خَبرني أن من فتيات القرية من يبعن أجسادهن طلبًا للقمة عيش، في مكانٍ للسّكارى افُتتح في القرية على مرأى ومسمعٍ من رشيد وكلبه يوسف، وبدلًا من أن يردّ رشيد وكلبه المظالم يجلسون بين السّكارى والعاهرات يعاقرون الخمر بينهم، ويرقصون على نغمات الرّبابة سكارى، أو في زاوية من زوايا آلهتهم المزعومة، أي قرية قد تُفلح بعد هذا؟

وإني يا إخوتي في القرية، قد عزمت بعون الله وعونكم أن أبدّل الحال إلى غير الحال، وأقطع الرّؤوس والأذيال، وأكفي الرّعية شرّ الذّل والسّؤال، غير آبهين بالصّعوبات، متخطّين كلّ العقبات، وإني أوصيكم إن حانت السّاعة ألّا تأخذكم فيهم شفقةٌ ولا رحمة، حتّى وإن كانوا من أبنائكم أو آبائكم، وأنا لست ذا فضلٍ عليكم، ولا أعلى شأنًا منكم، فإن لي ابنًا في القريةِ تركته مع أمّه رضيعًا، وقد خبرت أنه أصبح الآن بعمر الشّباب، ولئن حان الميقات وحضرت إلى القرية ولمست منه كفرًا، لأقطعنّ عنقه أمامكم، ولأمثّلنّ به في حضرتكم، فلا بنوّة ولا أبوّة ولا أنساب ولا أحساب لها من أمرنا هذا شأن.

هذا ويا إخوتي، قد خبرني أن الذّهب المرسل إليكم قد سُرق على حين غفلةٍ منكم، وإنّي كنتُ قد أرسلتُه مع رجالٍ نشهُد لهُم بالأمانة والثّقة، فكانا تمّام ورضوان هما المبعوثان، ومع هذا فقد حقّقتُ في أمرهم، فأشهدوا الله أنهم أدّوا الأمانة في المكان والزمان المعروفين، وقد كانا وقت الغروب خلف البئر القديمة، وهنا يبدو لي جليًّا أن يدًا خفيّةً وصلت إلى ذهبكم قبلكم، أُرجح أنها لفلّاحين وجدوه مصادفةً، ولو كان الأمر غير ذلك لما نجا

المبعوثان ولما نجوتم، ولهذا فإني أحمد الله على نجاتكم وأستعوضه في ذهبكم، وأمسكوا عن التّحقيق في أمره، حتّى تكفّوا عنكم الأعين، وتصمّوا عنكم الآذان، واعلموا أن أيدي الخير في المدينة، التي قدّمت لي هذا الذهب، لن يُعييهم أن يقدّموا مثله، نصرةً للدين ولأهله، فهم يعلمون أنه لن يُنفق إلا على العدّة والجُنود، تحسّبًا لليوم الموعود، اليوم الذي سيظهر فيه الحقّ على الباطل بعون الله، وقد أرفقت لكم مع كتابي هذا أوراقًا من كتاب الشّيخ الرحباني رحمه الله «الاستدلال في أحكام القتال»، علّ ما فيه يكون لكم زادًا وعونًا في ما أنتم مُقبلون عليه.

في الختام أدعو الله أن يحفظكم بحفظه ويهديكم بنوره، ويرعاكم بعينه التي لا تنام.

وليّ أمركم وخادمكم عزّام

(2)

نشوةٌ كبيرةٌ تجتاحك حينما تعتدل بقامتك بعد سُقوط مدوٍ، نشوةٌ مصحوبة بإصرار وعزم مضاعفين عمّا كان الحال عليه قبل سُقوطك، لا سيّما حينما تكون مدفوعة برغبة عارمة في الانتقام، فتتحول بعدها إلى كتلة مشتعلة من الأحقاد التي ما إن تندفع في طريقٍ حتى تحرق كل ما تمر به دون تمييز وتكتسب من كل جسم تحرقه أحقادًا جديدة، ورغبة جديدة بأن تحرق أكثر، فيصبح الإفساد لديك نشوةً وهدفًا في ذاته.

مختالًا كان يمشي، يُدرك جيدًا أن أولى الخطوط التي بات يرسمها بدأت ترتسم على أراضي القرية. رآها في خطوات كبير الفلّاحين المتسارعة نحو هضبة السّادة، سمعها في صيحات الفلّاحين الذين استحسنوا كلامه، في شغفهم لشيء يؤمنون به ويضحّون من أجله. من بين جميع الخطوط التي رسمها، خطًا واحدًا لم يكن مكتملًا. انعطف بطريقه مارًّا بالسوق، نظر إلى حانة السّيد سيمون، أشاح بنظره عنها سريعًا، سلك طريقه مارًّا بالإسكافي العجوز، استرق إليه نظرة سريعة، كان منشغلًا بحذاء يعالجه، رفع الإسكافي نظره إليه. كبار السّن لديهم القدرة على إخفاء ما يشعرون به فلا يظهر في عيونهم، ولا في تعابير وجوههم، متمرّسون على أن يجعلوا كلّ شيء طبيعيًّا، وكأن شيئًا لم يحدث. تجاهله آصف، لم يلقِ عليه التّحية. عاد الإسكافي إلى الحذاء في يده، وكأن شيئًا لم يحدث أيضًا. مرّ بعدة بيوت قبل أن يتوقف أمام إحداها، طرق الباب عدة مرات. لم يجبه أحد. دفع الباب ببطء، كنان على حاله منذ تركه قبل عدّة أيّام، يجلس بأقدام متشابكة على الأريكة، يمسك بين يديه الكتاب الذي أوصاه به الرّجل، بقايا الفواكه التي تناولها مع آصف متناثرة حوله، آنية الفاكهة النحاسية سقطت من فوق الأريكة لتستقر مقلوبة فوق الأرض. كنان منشغل بالكتاب بكلّ جوارحه، حتى إنه لم يلحظ أن رجلًا فتح الباب ودخل إلى بيته. تنحنح آصف

مشعرًا إياه بوجوده، ألقى عليه التّحية. لم يرفع بصره إليه وبادله تحيّة باردة. لم ينتظر آصف دعوةً للجلوس فتقدّم إلى الأريكة المجاورة له واتخذ مكانًا فوقها. الصّمت مطبق، لا أحد يبادئ الآخر بكلمة، كنان منشغل برسالة الشّيخ عزام وكلمات الشّيخ الرّحباني التي تضمنت بعضًا من أقوال النّبي ووصاياه في المعارك، يقرؤها مرةً ثم يعيد قراءتها مرةً أخرى، يدقّق في المعاني، وفي تأويل الكلمات، يحاول أن يطابق بينها وبين الحال القائم، يسقط منها على الواقع ما يصحّ إسقاطه، يفكّر في طريقة يسقط فيها ما لا يصحّ إسقاطه. يحقّ لهم أن يعملوا السّيف في كلّ كافر، في كلّ سكّان القرية كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونسائهم، هم كفار في حكم الشّريعة، إن صحّ قياسه، فجماعة الشيخ يوسف يعبدون الأضرحة وساكنيها، سكّان القرية راضون بيوسف، ورشيد وأسلافه أتوا بيوسف، الشّيخ عزّام يقول إن رشيد ومن معه يعبدون تجّار المدينة، ولا يعبدون الله، كلّهم كفّار يحلّ ذبحهم، يسرح بخياله، يخيّل إليه أن عزّامًا ومن معه دخلوا القرية، قفزت أمه من حيث لا يدري إلى ذهنه، تخيّل أن أتباع عزّام يذبحونها، يمثّلون بها، تخيّل جاره المزارع الذي تخلو حياته من كلّ شيء سوى من المنجل والدّابة والبذور والحصاد، من كلمات أمه لم يطرأ في ذهنه سوى قولها «والله» إذا أرادت أن تحلف أو تتوعّد، ومن كلمات جاره لم يذكر إلا «أُشهد الله» إذا أراد أن يتبرأ.

آصف كان قد أشعل لفافة تبغ تؤنس وحدته عندما رأى أن كنانَ غارق في كتابه، فضول كبير كان يدفعه لمعرفة فحوى الكتاب، فهو الخط غير المكتمل من الخطوط التي بات ليلته يرسمها، ولكنّه كعادته لم يشأ أن يكون فجًّا، فأشعل سيجارته وانتظر أن يُعره كنان انتباهًا، ولحسن حظّه لم يطل انتظاره، فوجئ بكنان وقد ألقى باللفافة التي بين يديه بعيدًا فانتثرت أوراقها فوق أرض الحجرة، وتلا ذلك صرخة قال فيها: «لقد كفرتْ!»، آصف ارتسمت ملامح الدّهشة على وجهه، وأخذ يقلب عينيه بين كنان وبين الأوراق المنثورة، كرّر كنان قوله ولكن بنبرة أقل «لقد كفرتْ»، «أستغفر الله!» قال آصف ولم يدرِ إن كان كنان يقصده أو يقصد نفسه، قال كنان موضّحًا: «لم أكفر بالله، كفرتُ بدين يوسف ودين عزّام». أطفأ آصف لفافة التّبغ في قشرة موزٍ قريبة منه، عدّل من جلسته استعدادًا لأن يدير حوارًا مع كنان، وقبل أن ينطق التفت إليه كنان والدموع تلمع في عينيه الواسعتين: «كنتُ أبحث عن الله!» قال له. عرَف آصف أنه سيلحق كلماته هذه طوفان آخر كان يؤرق نفسه ويدكّ معتقداته القديمة ويبنيها، ثم يدكّها ويعاود بناءها من جديد، في عمليّة سموٍ وهبوط ويأس وأمل وضياع واهتداء، فاسم الله لم يكن يومًا خاتمةً، وإنما كان دومًا بدايةً لأحداث وأحاديث وصراعات ونزاعات تبدأ باسم الله ولا ترى فيها إرادة الله، ولكنّك حينما تجمعها تشكّل صورة واضحة ترى فيها إرادة الله بشكلٍ جليّ.

«بعد موت أُمي كان عقلي يقول إنها النّهاية، ولكنّ شيئًا في صدري كان يقول لي عكس ذلك، وأن هذه لا يمكن أن تكون النّهاية بأي حال من الأحوال، فكان يخيّل إليّ أنها ستعود، ولكنّها لم تعد، ولم يسبق أن مات أحدٌ وعاد، فتخيّلت إنها إن لم تعد فإني سألحق بها، تذكّرت كلمات الشيخ نعيم الذي كان يقول لنا في صغرنا إن الذين يموتون يذهبون عند

الله، فقرّرت اللحاق بها حين ألقيت بنفسي قي البئر. حتّى موتها لم أكن أعرف الله كثيرًا، كنت أنطق اسمه حين أقسم به دون أن أشعر به، اسمه يجري على لساني دون وقعٍ له في قلبي، ومع هذا فإني كنت حين أستشعر وجوده أشعر بمهابة في نفسي وأشعر أنيّ بعيدٌ عنه جدًّا، ولم أكن أجد في ذلك الوقت حاجة لأن أقترب منه، فالحياة تسير سواء اقتربت منه أو لم أقترب، ولكنّي حين فقدت أمي شعرت أن الحياة لم تعد تسير. عندما أخرجني الشّيخ يوسف من البئر عرفت أن الله لا يريد مني أن ألحق بها، فانطلقت برفقة الشّيخ يوسف أبحث عن الله عنده، وقال لي الشيخ إنه إن كانت أمي عادت إلى الله فهي جزء من الكلّ، وإذا حصلتُ على الكلّ فقد حصلت عليها، قال لي الشيخ يوسف أيضًا إن كل حياته ومن معه مُكرّسة للبحث عن الله واستشعار وجوده، ولكنّي لم أعرف كيف يستشعرون وجود الله بالتّعبّد لغيره، ولم أستطع الاقتناع بأن الخوارق دلالة قرب من الله فقد كنّا نسمع في صغرنا عن خوارق مشابهة يفعلها ساحر القرية شائيل!، فعالم الغيب كعالمنا ليس حكرًا على قوى الخير، والخوارق إن لم تكن لنبيٍ فهي محلّ عبثٍ لا غير. كنتُ هكذا أرى كلّ شيء وأحاول مطابقته على حياة النّبي التّي علمنا إياها الشيخ نعيم فلم أجد شيئًا متطابقًا، وقد أعياني البحثُ عن الله وسط آلهة كثيرة عند الشّيخ يوسف، فضقت بهم ذرعًا، وقد كان ما كان من أمرهم حتى حصلت على هذه الأوراق وقد شعرت أن الله ساقني إلى الرّجل المحتضر علّني أجده فيها، ولكني بتّ عدّة ليالٍ أقرؤها وأدرسها أحاول أن أجد الله فيها. علمت أن الكنز الذي وجدناه لم يكن كنز شائيل كما اعتقدنا. تجاهلت أمر الكنز، وتابعت البحث عن الله، ولكنّي لم أستطع أن أجد الله في قتل طفلٍ ولا في تدمير قبرٍ أو في حرق قرية وتقتيل أهلها جميعًا، فهذه الأوراق تسوقني لأن أدعو أهل القرية أن يبغضوا دين الله، هذه الأوراق تدعوهم لأن يظنّوا بالله الظّنون! وما الذي يريده الله من البشر سوى أن ينظروا إليه بقلوب صافيةٍ مؤمنةٍ بوجوده؟ هل جماعة عزّام قادرون على أن ينفذوا إلى القلوب فيدبّوا فيها الإيمان؟ إنهم غير قادرين أن ينفذوا إليها إلا بسيوفهم ورماحهم فيدبّوا في قلوب الأحياء منهم الخوف والهلع، فيصبح القوم يخافون عزّام ولا يخافون الله! بل يصبح القوم يتساءلون أين رحمة الله، كما أتساءل أنا الآن».

لم يتوقّع كنان إجابة من آصف على تساؤله الأخير، ولم يتوقّع أن يكون آصف قد فهم شيئًا أو وقع شيئًا في قلبه مما قاله، فما الذي قد يشغل قلب آصف سوى أمور القرية والأشراف والزّروع والحصاد والبهائم، لم يتوقّع أن يكون آصف يعلم شيئًا عن الله سوى ما يتذكّره من كلمات الشيخ نعيم في صغره، أنه في السّماء، وأنه يرانا، أنه يعلم كل شيء، وأنه خلق كل شيء، أننا يجب أن نخاف منه، ولكنّ حكايات الصّغر هذه لا تبدو عند الكبر سوى حكايات صغر لا أكثر من ذلك. آصف لم يكن يبدو كالذي لا يهمه الأمر عند استماعه لكنان، كان يصغي إليه بإنصات شديد، يحاول أن يلمّ بخيوط المعركة التي يشتد وطيسها في نفسه، وعندما تكشّفت له خيوطها ظهرت علامات الارتياح على وجهه، كالذي وجد الطريق في متاهة، ولكنّه انتظر حتى أنهى كنان كلماته فاستغل لحظة الصمت ممسكًا بطرف الحديث:

«خطر لي أنك تعتقد أن شخصًا مثلي لا يعلم عن الله شيئًا، رأيت ذلك في نظراتك القصيرة لي أثناء حديثك، رأيت ذلك لأنك كنت تتحدث إلى السقف ولا تتحدث إليّ! كأنك تستنجد بشخص آخر لا أراه... قد تكون محقًّا فأنا لا أعلم عن الله شيئًا، أو فلنقل إنني لا أعلم عن الله الكثير، فالشيء الوحيد الذي أعلمه عن الله أنه لم يرد لي أن أعلم عنه شيئًا!... أراد الله أن يحتجب في الغيب فلا يراه الناس، ربما يكون ذلك حتّى حين، ولكنّ المستقبل البعيد لا يؤرقني كما يؤرّقك... كما قُلتَ أنت... الله لا يريد منّا إلا أن نؤمن به... بقلوبنا، وأنا أفعل ذلك وليس أكثر... يا صديقي ملكوت السّماء لله، وملكوت الأرض أيضًا لله، ولكنّه فوّض فيه البشر، فهم لا يكفّون عن العبث والإفساد، وهذا ما أفعله أنا أيضًا أعبث وأفسد كما يفعل الجميع! وهؤلاء الذين يتحدّثون باسم الله هم إما كاذبون أو مغفّلون، فأنا أعتقد أنني أقرب منهم لله! فأنا لم أكذب باسم الله يومًا... أنا أعلم أنني لست سوى إنسان مخطئ وجد هنا ليعبث في هذه الأرض، وأنا أؤدي دوري على أكمل وجه... أما هؤلاء الكاذبون والمغفّلون، فإني أتماشى مع الكاذب في كذبه وأدعي أنني مصدقّه، وأتماشى مع المغفل حتّى لا أوقظه من غفلته، وأجني ثواب ملكوت الأرض الذي فوّضني فيه الله!».

أليس هذا ما يريده الشيطان، أن ينسى البشر الله فلا يبقى في الدنيا سواه، فما الإنسان دون الله سوى شيطان، هكذا كان يراه كنان، شيطان يجلس بجانبه. قام عندها آصف من مقامه واتجه نحو وسط الغرفة وانحنى ليلتقط الأوراق التي ألقى بها كنان في ثورة غضبه السابقة. عاد فأخذ مكانه على الأريكة يقلب الأوراق باستهتار كبير، حتى وصل إلى رسالة الشيخ عزّام إلى أتباعه. أخذ يقلب عينيه فيها، قرأها، انتابته موجة ضحك بعدما استنشق نفسًا عميقًا من لفافة جديدة. زاحمه سعال حاد، وأخذ ينحني بظهره إلى الأمام ويعود، حتى انتهى أثر السعال فأكمل ضحكه والدموع تنحدر من عينيه. التفت إلى كنان فسأله عن اسم الشخص الذي أُرسلت إليه هذه الرّسالة، فأجابه دون أن يفكّر في الأمر. هزّ آصف رأسه وطوى اللفافة ووضعها في جيبه. أدرك كنان أن شيطانًا أخذ اللفافة لتوّه، فعاجله بسؤال: «أتنوي أن تسلّمها إلى جماعة عزام؟»، قال له: «نعم»، بدت ملامح الذعر على وجه كنان وقال له:«ولكنهم سيحرقون القرية ويقتّلون أهلها!»، رد عليه آصف دون أن يبالي:«هذا صحيح!»، استشاط كنان غضبًا، وطلب من آصف أن يسلّمه اللفافة حتّى يسلّمها بنفسه إلى السّادة. تردد آصف للحظة. لم يصطدم معه. أخرج اللفافة من جيبه ورماها لكنان، ولكن بعيدًا عنه عن يمينه. قام كنان ليصل إليها. تناول آصف آنية الفاكهة النحاسية وعاجل كنان فضربه بها ضربة في مؤخرة رأسه.

الفصل الثاني عشر

من يفعل ذلك إن لم أفعل؟!

كعادته عند كلّ مساء، توقّف السيّد عند نافذة رخامية تطلّ على حديقة قصره ذات الزّروع والألوان البهيّة، ويرى منها إذا رفع بصره أراضي القرية الشّاسعة التي تسدّ الأفق أمامه. اختيار جدّه الشّريف حتّى لإطلالة قصره كانت موفّقة. ترك له إرثًا ثقيلًا، الحفاظ عليه صعبٌ وشاق، ربما يكون أكثر مشقّة من جمعه. كان يرى أن النّاس على زمان جدّه كانوا طيّبين، يقبلون بالقليل، لا يكيدون ولا يحيكون المؤامرات، يقصد بـ«الناس» السّادة من حوله، أما أولئك الفلّاحون القابعون وسط الأراضي، فهم لا يشكّلون بالنسبة إليه أكثر مما تشكّل إليه البذور والزّروع والدّواب، لا خوف منهم، ولا يعلم عنهم شيئًا، ويحرص على عدم رؤيتهم. عند جولاته التي ربما تكون سنويّة أو نصف سنويّة في أراضي القرية كان يحرص على أن يخلي درك السّادة طريقه من الفلّاحين، فهو يريد أن يستمتع بنسمات الهواء العليلة وبتغريد العصافير بعيدًا عن ضوضاء الفلّاحين وغوغائيتهم، حتى الفلاحون أنفسهم كانوا يخافون الاقتراب من موكبه المبجّل، محرّم عليهم رؤيته، كأن إلهٌ يأخذ طريقه بينهم.

استدار تاركًا النافذة وراءه، توقّف قليلًا أمام مرآة مقابلة له يتفحّص قفطانه الأحمر القاني المزركش بخيوط ملتفّة ذهبيّة. اقترب من المرآة يتفحّص وجهه، يتأكد أن الحلّاق أدى مهمّته بتنظيف وجهه من الشعر، يبرم طرفي شاربه الأبيض للأعلى، يمرّر يده على صلعته، يتأكد أنها ملساء كما يجب، يمطّ شفتيه، يأخذ طريقه فوق السجاد الفاخر، تغوص قدماه فيه، يتأرجح في مشيته. ألقى نظرةً سريعة على الصّور المعلّقة على الجدران، يمرّ بها كلّ يوم، ولكنّ شيئًا ما دعاه لأن يتوقّف اليوم أمامها. استدار ليقابل صورة جدّه الشّريف معلّقة في الأعلى، أسفلها صفٌ من الصّور المتتالية لنسله الشّريف، لديهم جميعًا الصلعة واللغد نفسهما، والشارب المعقوف طرفيه للأعلى. يمرر عينيه بين الصّور، يدقق في عيون أجداده، كأنهم يعلّقون عليه آمالهم في الحفاظ على إرثهم، يطلّ الحزن من عينيه هو، يتساءل إن كان أحدٌ في الدنيا يحمل أثقالًا كهذه التي يحملها الآن.

اتساع نسل الشّريف يشكّل أمامه عقبة وتحدٍ، ومع زيادة نسل الأشراف يزيد عدم الرّاضين عن تدبيره للأمور، ناهيك عن العائلات الأخرى الذين كانوا مع جده الشريف يسكنون هضبة الأشراف ويمتلكون عددًا من الأراضي، كما هو حال السيّد ماضي، الذي أورث السيّد غريب أراضيه ومحاصيله وابنته.

الأقاويل تتردد بين مجلس السّادة، تخبرهم عيونهم في القرية وبين الأشراف أن السيّد غريبًا يكيد شيئًا للسيّد رشيد، إنه غير راضٍ عن تدبيره لشؤون القرية، وعن خضوعه المستمر لتجار المدينة. قبل يومين قام مجلس السّادة باستدعاء السيّد غريب وزوجته نرجس يسألونهما عن صحّة تلك الأقاويل التي تتردد، ولكنّ السيّد غريبًا ونرجس نفيا قطعًا صحة تلك الأقاويل، وقالت نرجس إن زوجها الجديد على القرية كما وصفته يدين بالولاء والطّاعة لمجلس السّادة والسيد رشيد كما كان حال أبيها السيّد ماضي، وأقرت للسيّد رشيد بسعة الأفق ونفاذ البصيرة، وأن لا أحد غيره يستطيع أن يتحمل أعباء الحكم وتدبير شؤون القرية والتّعامل مع تجار المدينة، أضاف السيّد غريب أن تلك الشّائعات ربّما يكون مروّجوها من الفلّاحين الذين لم ينلهم شيئًا من الأعطيات والهبات التي وزّعها مؤخرًا. سأله السيّد رشيد عن سبب توزيعه لتلك الأعطيات. لاحظ السيّد رشيد امتقاع وجه نرجس، وارتباك السيّد غريب، ولكنّ غريب أجابه أنها من باب الصدقات بنيّة التوفيق فيما هو آت. لم يقتنع السيّد رشيد بنواياه بالطّبع، ولكنّه ختم اللقاء بأن أمرهم بإيقاف توزيع تلك الأعطيات في الحال، وأمر مجلس الأشراف أن يبقوا أعينهم مفتوحة على كل ما يصدر من غريب أو زوجته. تساءل السيّد رشيد وهو يتأمل صور أجداده إن كان تصرفه صحيحًا، أنه ربما كان يجب أن يتخّذ إجراءً أكثر قسوةً بحق غريب وزوجته؛ لو أن أمرًا مماثلًا واجهه أثناء شبابه كان العقاب ليكون مختلفًا، ولكنه السّن وأحكامه، السنين ترقّق القلوب وتطفئ جذوة الحماس، هكذا قال في نفسه. أثار انتباهه دخول خادمه، فلّاح عجوز، يرتدي قفطانًا يتسع عند الأسفل ويلتفّ حوله حزام أبيض عريض عند وسطه، يغطي شعره عمامة بيضاء فاقعة. انحنى الخادم أمام السيّد رشيد، وأشار إليه بأن السيّد عزيزًا والسيّد نديمًا في انتظاره.

يتكوّن مجلسُ السّادة من خمسة أعضاء، السيّد عزيز والسيّد نديم والسيّد غسّان والسيّد شدّاد وخامسهم السيّد رشيد الذي يترأّس المجلس، وكلّهم بالطّبع أبناء عمومة من نسل الشّريف، يورّث كلٌ منهم مكانته لابنه من بعده، كما ورثوها هم عن أجدادهم. السيّد شدّاد كان يقوم على أمر الدّرك في القرية، كلّ أسرة من ساكني هضبة السّادة يتعيّن عليها أن تقدّم أحد أبنائها للعمل في الدّرك، ولم يكن هذا الأمر يأخذ طابع الإجبار، إذ كان الشباب يجدون أن هذه المهمّة مدعاة للفخر والخيلاء، فكلّ طفل من أطفال السّادة يحلُم بأن يصبح يومًا ما دركيًّا وقلما يشذّون عن ذلك، فهم بذلك يتسابقون على اللحاق بهم، حبًّا في ممارسة سلطتهم على الفلاحين، وقلّما يمارسونها على أحد ساكني هضبة الأشراف، خاصّة حينما يتعلّق الأمر بتجاوزات من أحد السّادة بحق الفلّاحين، فلازالت ذكرى اغتصاب أحد الدرك لفلّاحة تدعى جليلة وقتلها عند البئر القديمة ماثلة في أذهان الفلّاحين، ولازالوا يذكرون أنّ السّادة لم يقتلوا الفاعل علنًا كما يحدث في العادة، ولكنّهم قالوا إنهم قتلوه فقط، وترددت الأقاويل بينهم على أن السّادة قاموا بتهريبه من القرية ليلًا، وقال غير فلّاح إنهم رأوه رأي العين يتجوّل في المدينة أثناء زياراتهم لها، وبهذا رضي أهل القتيلة برواية السّادة عن قتله، كما رضي الجميع في القرية، ولكنّ الأمر ترك في نفوس شباب القرية وصمة لا يمكن نسيانها، ويعاودون تذكّرها كلّما تعرّضوا للظلم من درك السّادة، فقد كانت

تعليمات السيّد شدّاد لدرك السّادة فيما يخصّ الفلّاحين أن يعامل أي مظهر للعصيان بالحزم والعنف المفرطين، حتّى لا يتكرّر الفعل. أما السيّد عزيز فقد كان مبعوث السيّد رشيد إلى تجّار المدينة، يقوم هو على كامل الأمر، ينقل تعليمات التّجار إلى السيّد رشيد، وينقل آراء السيد رشيد إلى التّجار، ويرعى مصالح السيّد رشيد في المدينة، فقد دأبت سلالة الأشراف على أن يدفعوا بأجزاء من أموالهم في تجارة المدينة التي تدرّ عليهم دخلًا إضافيًّا، ويكون الوسيط في هذا تجّار المدينة الذين يشتغلون بالأموال ويرسلون إليهم أرباحهم السنوية منها على صورة عملات ذهبيّة، أما المحاصيل فيُعطى الفلّاحون العاملون منها نصيبًا موسميًّا، جزءًا منه بالكاد يكفي لأن يقيهم كفاف يومهم، والجزء الآخر يستبدلونه في سوق القرية بمحاصيل أخرى، أو يبيعونه لقاء عملات فضيّة، فيشترون بها ما يلزمهم من أقمشة وعطور وما يساويها من رفاهيات الحياة من سوق القرية الذي يحوي تجّارًا يتبعون أيضًا لتجّار المدينة. أما الجزء المتبقّي من المحاصيل، وهو الجزء الأعظم، فإنه يُحمل على عربات كبيرة إلى تجّار المدينة، ويأخذ السّادة مقابله إما بضائع حسب طلبهم، أو عملات ذهبيّة يُكدّسونها في خزائنهم خشية من تقلب الدّهر ونوائبه التي لم يصبهم منها شيء منذ ردحٍ طويلٍ من الزمن. وبهذا كان السيّد عزيز هو المؤتمن على أموال السّادة في نقلها من المدينة إلى القرية. السيّد غسّان كان هو القائم على مخازن البذور، والقائم على توزيعها عند كلّ موسم على أصحاب الأراضي من السادة ويحرص أن يكون الأمر حسب الكميّات والجودة التي يمليها عليه السيّد الرشيد، فهو لا يعلم السبب والحكمة من ذلك، فما الضيّر من أن يزرع الجميع أجود المحاصيل فتصدّر إلى المدينة بأفضل الأسعار، حتى إنه سأل السيّد رشيد أكثر من مرة عن الحكمة من ذلك، ولكنّ السيد رشيد لم يجبه، اعتقد أنه ربما يكون السيّد رشيد نفسه لا يعلم الحكمة من ذلك. بالإضافة إلى أمر مخازن المحاصيل والبذور كان للسيّد غسّان عيونٌ كثيرةٌ في القرية وفي هضبة الأشراف، يعملون لصالحه سرًّا ويتقاضون أجرًا جزيلًا لقاء خدمتهم، وحفاظًا على سريّة أمرهم كان يهدد الذي يفتضح أمره بالقتل أو التعذيب، وبهذا بقي أمرهم سرًّا بين الفلّاحين وبين السّادة وحتّى بين الأشراف، والشخصان الوحيدان اللذان كانا يعلمان بأمر هذه العيون هما السيّد غسّان والسيّد رشيد، حتى إن بقية أعضاء المجلس لا يعلمون عن أمرهم شيئًا، ولعلّ السيّد رشيد ما فعل ذلك إلّا ليأمن أي خيانة يكون مصدرها السّادة أو الأشراف أو مجلس الأشراف. أمر الآبار وتوزيع حصص المياه كان يقوم عليه السيّد نديم، يستعين بعدد من درك السّادة موزّعون على آبار المياه يحرصون على أن لا تتجاوز الأراضي حصصها المفروضة من المياه، ويحرصون أيضًا على أن لا يقوم أحد السّادة بحفر بئر جديدة، ولم يعلم رجال الدرك ولا السيّد نديم الحكمة من ذلك.

هبط السيّد رشيد درجات السلّم العريض نزولًا إلى مجلسه حيث يجلس في انتظاره السيدان عزيز ونديم. قاما إليه عند رؤيته، حياهم دون مصافحة كما يفعل دومًا. تبوأ كرسيًّا عريضًا مرتفعًا يعلو عن بقيّة الكراسي التي اصطفت أمامه في صفين متقابلين. جلس السيّدان بعد جلوسه. بادر الاثنان بالاطمئنان على صحّته ودعوا له بدوام الصحّة والعافية ومديد العمر والبركة والسيّد رشيد يهزّ رأسه فقط دون أن ينطق. ظلّ صامتًا حتّى

أتى الخادم وقدّم إليه كأسًا طويلًا مُذهبًا، يحوي قهوةً مرّة، فلم تكن من عادته أن يبتدئ الحديث قبل أن يرتشف شيئًا من مشروبه. ارتشف السيّد رشيد رشفتين من مشروبه، ثم بادر بسؤال السيّد عزيز عن المدينة وأحوالها، اعتدل السيّد عزيز في مجلسه وأجابه:«التّجار يرسلُون إليك أعطر التّحايا ويتمنّون دوام العلاقة الطيّبة التي تربطهم بالقرية ممثلة بشخصك الشّريف»، ارتشف السيّد رشيد رشفة أخرى وقال:«ماذا عن أرباح المحاصيل؟»، تردّد السيّد عزيز قبل أن يجيبه: «إنهم يُقدّمون إليك إعتذارهم ويقولون إنهم سيقتطعون جزءًا من ثمن المحاصيل حرصًا على أمان المدينة والقرية»، قطّب السيّد جبينه ووضع الكأس من يده وقال بذعر:«هل عادت جماعة عزّام؟»، بدأ جبين السيّد عزيز بالتعرّق وأجابه:«هناك أخبار تتردد بين التّجار بأن عزاماً ينوي أن يشنّ هجومًا واسعًا على المدينة»، ابتلع السيّد رشيد لعابه وهربت الدّماء من وجهه، تلا تلك اللحظة دخول السيّد شدّاد والسيّد غسّان، لم يعرهم السيّد رشيد انتباهًا وأخذ يلتفت يمنةً ويسرةً كأنه يبحث عن شيء ما ويتمتم بكلمات غير مفهومة، فهم الحاضرون منها أنه كان يقول: «لا أحد... لا أحد يعلم... كلهم أغبياء...»، فهِم السيّد نديم أنه كان يرمي بكلامه لشيء ما، فقام من مقامه وقال وهو يلوّح بسباباته: «كُلّنا معك... دماؤنا وأولادنا فداءٌ لك... كلّنا ثقةً في قيادتك الحكيمة ومنك نتعلّم الحكمة»، تنهّد السيّد رشيد وتوجّه بكلماته إليهم: «لا أحد يعلم الأثقال التي أنوء بها... لا أحد يعلم كم يؤرقني شأن القرية والمحاصيل والتّجارة... إنني أرعى مصالح سكّان هذه القرية، وأقف حاجزًا أمام جشع تجّار المدينة، فمن يفعل ذلك إن لم أفعل؟! من يقدر على فعل ذلك سواي؟ من يقدر على أن يحمي القرية من جماعة عزّام؟ من يقف حائلًا بينهم وبين حرق هذه القرية وتقتيل أهلها؟ من يفعل إن لم أفعل أنا ذلك؟!... إني حُمّلت أثقالًا تطبق على صدري... إن شأن القرية يؤرقني ويقضّ مضجعي بينما يجني سُكّان هذه الهضبة أرباحهم مرتاحي البال... حتّى إن البعض منهم يلومونني... هه تصوّروا!... إني أعلم أن كثيرًا منهم يطمع أن يكون مكاني... وإني وددت لو أرتاح من هذه الأثقال الملقاة على عاتقي... ولكني أعلم أن لا أحد منهم يصلح لحمل هذه المسؤولية! وإني أعلم أن شأن هذه القرية إلى خراب إن تركت أحد سفهاء هذه الهضبة يتولّى زمام أمرها... وأنا لن أترك إرث أجدادي يضيع هباءً، لن أترك إرث جدّنا الشّريف يضيع بسبب الحمقى من هذه الهضبة، أو بسبب المجرم عزّام»، عاد السيّد نديم للوقوف مجددًا وأعاد عبارته الأخيرة: «كلّنا ثقةً بقيادتك الحكيمة ومنك نتعلّم الحكمة»، لم يعره السيّد رشيد انتباهًا والتفت إلى السيّد شدّاد وقال له آمرًا: «أريدك أن تضاعف أعداد الدّرك، كلّ أسرةٍ من سكّان الهضبة تقدّم اثنين من أبنائها للخدمة»، إنحنى السيّد شدّاد - الذي لم يكن قد جلس بعد - للسيّد رشيد إشارة إلى تنفيذ أمره. التفت بعدها السيد رشيد إلى السيد عزيز وقال له: «هذا الموسم توزّع على سكّان الهضبة نصف أرباح المحاصيل فقط، النصف الآخر سيكون لتجهيز الدّركيّين الجدد بالعدّة والعتاد اللازمين»، طأطأ السيّد عزيز رأسه وقال: «أمرك نافذٌ سيّدي»، أشار بعدها السيّد رشيد للسيدين شدّاد وغسان بالجلوس، وما إن اتخذا مقاعدهما حتّى أعاد السيّد نديم عبارته ولكن بشكلٍ آخر: «قرارات حكيمةٌ سيدي، أدامك الله نبعًا نستقي منه الحكمة سيّدي»، اتّخذ السيّد غسّان كلمات السيّد نديم مناسبةً ليبدأ كلامه: «إنّي أتفقِ مع كِلام السيّد نديم وأؤكد على حكمة قراراتك كما يفعل بقيّة السّادة هنا،

ولكنّي لا أظنّ أن باقي سكّان هذه الهضبة يفعلون ذلك! وفي الحقيقة إن هذا الأمر يؤرقني ولا أستطيع أن أجد إجابة له ولا أستطيع فهمه حتّى... انهم يعيشون في بذخ!... فما الذي يجعلهم ناقمون؟»، لا شك أن السيّد غسّان كان يمتلك إجابة ما لسؤاله الذي طرحه، ولديه قناعة مسبقة عن السبب، ولكنّه أراد بسؤاله هذا أن يستمع لبقية آراء المجلس، ربّما بحثًا عن رأي جديد يساعده في الإصلاح، وربّما رغبة منه في أن يطّلع على خفايا نفوسهم. كان السيّد عزيز هو أوّل من استجاب، فأجابه بثقة كأن سؤاله لا يستحق التّفكير: «النّاس يا غسّان لا يشبعهم ثروة ولا نفوذ ويطلبون دومًا المزيد، فما إن يحصلوا على المال حتّى يطلبُوا السّلطة، وما إن يحصلوا على السّلطة حتّى يطلبوا سلطة أعلى، فهم لا يكفّون عن التطلّع للأفضل، إنهم بعد حصولهم على القمّة في شيء ما يطلبون القمّة في شيء آخر، ولهذا تجد الفلّاحين يحاولون الوصول إلى كفايتهم من المال ولا يستطيعون فيموتون وهم يحاولون ونأمن بهذا شرّهم.. أمّا سكّان هذه الهضبة فقد اكتفوا من المال ويسعون الآن إلى السّلطة»، اكتفى السيّد غسّان بإجابته ولم يضف شيئًا، ولكنّ السيّد نديمًا بدا أن لديه شيئًا يشاركهم إياه فابتسم وقال:«أنا أعلم سببًا وجيهًا، رجال هذه الهضبة يحكمهم نساؤهم ويملون عليهم أفعالهم، ونحن نعلم أن النساء بطبعهنّ متمرّدات» أنهى جملته وألحقها بضحكة مجلجلة بينما بادله الجالسون ضحكة باردة. أضفت هذه الضّحكة جوًا من المرح على الجلسة مما دفع السيّد شدّاد الذي كان متجهّمًا منذ وصوله لأن يدلي بدلوه في الحوار: «لماذا تحاولون تجميل الأمر؟ إنها أحقاد أيّها السّادة! أحقاد يتمّ توريثها جيلًا بعد جيل... أجداد هذا المجلس كانوا إخوة، أبناء عمومتهم من الأشراف كانوا يضمرون لهم أحقادًا لحصولهم على السلطة دونهم، بقيّة العائلات الذين نالوا نصيبًا أقل من الأراضي يضمرون الأحقاد نفسها وربّما أشد... هذا ونحن لم نتحدث عن ذوي السّادة الذين تم نفيهم من القرية بعد إفلاسهم وتقسيم أراضيهم بين المجلس كالسيّد نائل... وصاحب أحقاد كهذه لن يشبعه مال ولا سلطة إلا برؤية عدوّه جاثمًا عند قدميه... ولكنّي لن أسمح أن يتطاول أحد على هذا المجلس ولو بكلمة، وسأنزل بهم أشد صنوف العذاب إن أشار السيّد رشيد بذلك»، دائمًا ما كانت كلمات السيّد شدّاد تنزل الرّاحة والسّكينة في قلب السيّد رشيد، فهو قوّته الضّاربة في القرية التي تضمن له استمراره في الحكم، وهو بحكم المصاهرة بينه وبين السيّد شدّاد يضمن أن لا ينقلب عليه في أي وقت، وبالطّريقة نفسها كان يضمن أجداده الحفاظ على الحكم بكسب ولاء قادة الدّرك باتخاذهم أصهارًا فوق قرابة الدم التي تربطهم بهم، فقادة الدّرك هم الأهم في كل مجالس السّادة السالفة والمجلس الحالي.

اختُتم الحديث عن سكّان الهضبة بكلمات السيّد شدّاد، ولم يضف السيّد غسان رأيه في الأمر، بل اكتفى بسماع الآراء فقط، وعندما طلب السيّد نديم رأيه قال إن رأيه هو ما يراه السيّد رشيد. بدأ بعدها السيّد رشيد بمناقشة آراء كلٍّ من السيّد عزيز والسيّد شدّاد، ولم يلقِ بالًا لرأي السيّد نديم الذي تحدّث فيه عن تأثير النّساء واعتبر أنها كانت مزحة سمجة في حين أنها كانت تحمل الكثير من الحكمة.

بعد قليل من النّقاش وجد السيّد رشيد أن يقوم بالمزيد من التضييق على سكّان هضبة الأشراف، ويبرر ذلك لهم بأن الأخطار محدقة وأن عزّامًا وجماعته يتربّصون بالقرية، فكان منه أن أمر برفع أسعار البذور ومياه الرّي، وفرض مكوسًا جديدةً عليهم لقاء تسويقه للمحاصيل في المدينة وجني أرباحها لهم غير آبه بردود الفعل الغاضبة، والتي أمر السيّد شدّاد بأن يقابلها بكثير من القمع، أمّا عن ما قد يُرتّب في السّر، فإن السيّد غسّان وعيونه قادرون على كشفه قبل أن يبلغ مبلغًا لا يُمكن السّيطرة عليه، أو هكذا اعتقد.

فُضّ الاجتماع ولم يبقَ السيّد غسان مع السيّد رشيد ليطلعه على الجديد مما تخبره به عيونه في الهضبة وفي القرية، فلا جديد لديه سوى ما أخبره به مسبقًا من أن مجموعة من غير الرّاضين عنه في الهضبة يتردّدون على بيت السيّد غريب ونرجس؛ لقاءاتهم هذه لا يمكن أن تعطي أي مبرر لإصدار عقاب في حقّهم، ومن سوء حظّه أنه لا يملك عيونًا بينهم، ولكنّه كان يملك طرف خيط لم يبح بأمره للسيد رشيد ربما يقوده لضالته. بالأمس أتاه أحد عيونه في القرية مسرعًا، يقول إن فلّاحًا ألقى خطبةً بالفلّاحين عند طاحونة القرية ذكر فيها السيّد غريبًا. فكان عازمًا على التحقق من أمره، وكان على يقين بشكل ما أن هذا الفلّاح سيقوده إلى ضالته، وقد صدق ظنّه.

الفصل الثّالث عشر

قُتلوا من أجل القرية!

(1)

كان آصف يعلم أن ضربة بآنية نحاسيّة لن تفقد كنان حياته، ولكنّها ستفقده وعيه فقط، فآخر ما كان يريده أن يقف عقبة في طريق هدفه الذي يحلم بتحقيقه منذ سنوات. لم يتركه هكذا ملقًى على أرضية المنزل مضرّجًا بدمائه، بل طرحه على الأريكة وضمّد جرحه، ثم استعان بحبلٍ من حبال الدّواب وقام بتقييده إلى قضبان النّافذة، وعزم على أن يقوم بزيارته بضع مرّات كل يوم ليقدّم له شيئًا من الزّاد والماء. كانت معاملته كدابّة في نظره خيرٌ من قتله، أو لأنه لم يجد قيمةً وضرورة عليا لقتله، أو لنقل إنّ قتله لن يعود عليه بمصلحة ما، وربما كانت كلّ المبرّرات السّابقة مجرّد مبرّرات وأن شيئًا في نفسه بقي من صداقتهم الأولى. تحسّس جيبه مُتأكدًا من أن الرسالة لازالت حيث هي، ثم عدّل هندامه وأغلق باب المنزل بإحكام، وانطلق باحثًا عن فلّاح يُدعى شرحبيل.

النّاس في القرية لم يتركوا عادتهم في جلسات السّمر الليلية، فمن الصّعب أن يتخلّوا عن سمةً هامة من سمات مجتمعهم، فجلسات السّمر هذه هي التي تقوم على تشكيل علاقاتهم وتقوّي روابطهم ببعضهم البعض أو تضعفها، فهي القالب الذي تصب فيه تلك الروابط، وكلّ ليلةٍ وكلّ جلسةٍ بقالبٍ جديد. هذه الجلسات من الأهمية بحيث إن تلك القرية ربما ما كانت لتنشأ لولاها، فهي وجدت قبل الزّروع والدّواب والمحاصيل، حتّى إنها تفوق البئر القديمة قدمًا. إذا وقفت أمام البئر القديمة ونظرت نحو القرية لرأيت شعلات نار متناثرة في أزقّة القرية وشوارعها، معظمها في سوق القرية وبقيّتها متفرّقة أمام بيوت الفلّاحين، يتوسّطها أواني الشاي، ويلتفّ حولها الفلّاحون في مجموعات بعدد سنابل القمح، أكثر بقليل أو أقل بقليل، ولكنّك ستجد أن النظر إليهم من مكان البئر القديمة يبدو غريبًا جدًّا، ربّما لأن البئر القديمة ما عادت تفيض بعطائها كما في السّابق.

أفضل مكان تذهب إليه لتعثر على فلّاح ما هي هذه التّجمعات الليلية التي يقيمها الفلّاحون، ومن تجمّع لآخر ستصل إلى ضالتك، وهذا تحديدًا ما فعله آصف. اقترب من إحدى الجموع وألقى التحيّة، ثم سأل عن فلّاح اسمه شرحبيل، ولأن أهل القرى من عادتهم أن يمعنوا في السّؤال حتّى ليبدو الأمر كتحقيق يقوم به أحد رجال الدّرك، ادّعى آصف أنه

يريد أن يشتري دابّة الرّجل، وأن هناك من قال إنه يريد بيعها، وهكذا من تنقّله من مجموعة إلى مجموعة وجد نفسه وجهًا لوجه مع المدعو شرحبيل. قوام الرّجل النحيف ولحيته الحديثة لا يوحيان أنه أحد رجال عزّام، فقد ارتسمت صورة عزّام ورجاله لدى آصف وسكّان القرية بالضّخامة والسّواد، سواد اللحى الضخمة، وسواد الملبس، وسواد القتل والحرق، هذا ما سمعوه عنهم؛ ولأن الغلظة دومًا توحي بضخامة البدن، فإن آصف كان يتخيّل أن أحد رجال عزّام لن يستطيع النفاذ من باب كوخه لفرط ضخامته، وهو ليس شخصًا نحيفًا بأنف مدبب وعينين حادتين. انفرد آصف بالرّجل على مسافة من الشعلة ومن رفاقه، لم ينطق آصف بشيء، تناول اللفافة من جيبه ثم سحب طرفها ليبرز توقيع عزّام أسفل الرّسالة، لم ينطق الرّجل أيضًا، بل أطبق على ذراع آصف وسحبه منها حتى كاد ينكفئ على وجهه، وأجلسه في مكان يتوسّط الجمع الجالسين حول النّار. أخذ شرحبيل يميل على الفلّاحَين عن يمينه وعن شماله ويهمس إليهم، فعل الفلّاحَون فعله نفسه مع من يجلسون بجانبهم، وبعد همهمات قليلة توجّهت أنظار الجمع إلى آصف يحاولون اختراقه بعيونهم. أومأ إليه شرحبيل بأن يسلمّه اللفافة ففعل، سرت جولة أخرى من المشاورات يتخلّلها انتقال اللفافة من يد إلى أخرى ليُجمعوا أخيرًا على صحّة توقيع الشيخ عزّام. عادت اللّفافة إلى شرحبيل فطواها وسأل آصف:

- هل أنت المبعوث؟

- لقد قُتل المبعوث.

- ومن قتله؟

- قتله الدّرك على أطراف القرية منذ أيام... لا بد أنكم علمتم بذلك.

- وكيف نعلم أنك لست منهم؟

- لو كنت منهم لما كنّا نتحدّث الآن.

هتف أحد الجلُوس مُقاطعًا إياهم:

- وكيف عثرت على اللفافة؟

- في الغابة... ملقاة بين الأحراش.

لم يكن آصف يمتلك إجابة تزيل مخاوفهم وشكوكهم، بل لم تكن هناك إجابة في الدّنيا قادرةٌ على فعل ذلك، وقد كان آصف يعلم أن الخاطر الوحيد الذي يدور في رؤوس هذه الدّائرة المغلقة هو قتله على الفور، والتخلّص من التهديد للأبد؛ فقال لهم مستبقًا الأحداث:

- أنصحكم بعدم قتلي.

أجابه أحدهم:

- لماذا؟

- أنصحكم بحمايتي.

فهم شرحبيل وأتباعه ما كان يرمي إليه آصف بقوله، وأن التبعات ستكون وخيمة إذا مسّ آصف مكروه ما، فقد فُهم ضمنيًّا أن آصف ليس الوحيد الذي يعلم بأمرهم، وقد كان شرحبيل على قدرٍ من الحكمة جعلته يتماشى مع آصف، فقال له:

- وماذا تريد؟

- أريدكم أن تحكموا القرية.

- لماذا؟

- لكي أُسقط السّادة.

- وما هو المطلوب؟

- عجينة بارود وفتيل!

(2)

أخذت الدّماء تتدفق في عروقه بقوّة وهو يقطع طريقه مارًّا بتجمعات الفلّاحين الليلية، غير مبالٍ بالضجيج الصّادر عنها، فقد كان الضجيج داخل رأسه يعلو فوق ضجيج الفلّاحين وأي ضجيج آخر؛ إنه لأول مرّة يلقي بنفسه في خطر محدق كهذا الذي ألقى بنفسه فيه منذ لحظات قليلة، فها هو يقف وحيدًا أمام جماعة عزّام التي تؤرّق تجّار المدينة والسيّد رشيد بدركه ومستشاريه ورجاله. وحيدًا يقف أمام سيل جارف قد يبتلعه ويبتلع القرية ويقتلع جذورها الضّاربة في القدم. ما الذي دهاه حتى جعله يندفع بهذه الطّريقة التي قد تؤدي إلى هلاكه؟ ربما كان هالكًا بكل الأحوال، فأحلام السيّادة التي كانت تداعب نومه ويقظته منذ سنين عدّة ستقضي عليه إن لم يقم بتحقيقها، لقد كان الأمر قدرًا، يسير نحو هلاكه بعينين ثاقبتين وعقل مدرك، فما الذي قد يخسره سوى هذه الحياة البائسة بين الطين

والبهائم وضجيج الطّاحونة؟ ما الذي قد يخسره سوى كوخٍ مصنوع من جريد النخل لا يساوي أكثر من ثمن وليمة يقيمها أحد السّادة؟. كان يسير بخطوات سريعة أقرب إلى الركض منها إلى المشي، قدمه لا تكاد تلمس الأرض حتى يستبدلها بالأخرى، يبسط سلطة قدميه على الحشائش وذرات التّراب، حتّى اعترضته حصوة دهس عليها بطرف نعله فاختل توازنه وانقلب!

وصل إلى كوخه وهو يحمل عجينة بارود جاهزة للاستخدام أعطاها له شرحبيل مرغمًا دون أن يبوح له بشيء عن المكان الذي ينوي استخدامها فيه. قال له شرحبيل مبالغًا إنها تكفي لنسف هضبة السّادة، وأوصاه أن يكون حذرًا في استخدامها. طاحونة القرية لا تبعد سوى أمتار قليلة عن كوخه، وهما يقعان على أطراف القرية قريبًا من الأراضي، بعيدًا عن عيون الفلّاحين، لا سيما حينما يحلّ المساء ويجتمع الفلّاحون في جلسات السّمر الخاصة بهم. انتظر آصف حتّى بعد منتصف الليل ثم تسلل إلى الطاحونة، مدّ يده إلى النافذة المتهالكة، لم يكن عامل الطاحونة يهتم بإغلاق النوافذ حينما ينتهي من عمله هناك، فوجد آصف نافذة الطاحونة مشرّعة على مصراعيها. مد يده وأدخل بحذر عجينة البارود الموصولة بالفتيل حتى استقرت داخل الطاحونة، تناول طرف الفتيل ومضى به إلى كوخه، أغلق باب الكوخ بإحكام وتناول شمعة غليظة وربط طرف الفتيل في آخرها، ثم أشعل الشّمعة ومضى في طريقه إلى سوق القرية، وهو يعلم أن الشمعة ستنتهي مع أول ساعات الصباح.

كعادته عند كلّ زيارة للسوق، مرّ بالإسكافي العجوز متحاشيًا المرور من أمام حانة القرية. الإسكافي يعالج حذاءً كالعادة، نظر إليه آصف وألقى عليه التحيّة هذه المرّة، ردّ الإسكافيّ التحيّة، ثم عاد يعالج الحذاء في يديه كأن شيئًا لم يحدث. شعر آصف أنه حصل على مباركةٍ بشكلٍ ما. توقّف عند أحد بائعي السّوق، اشتري رغيفين من الخبز وبعض الجبن المُعتّق ثم أخذ طريقه المُعتاد بين البيوت الطينيّة المتزاحمة حتّى وصل إلى بيت كنان الذي أصبح يستخدمه كسجن لصاحبه. توقّف قليلًا يعالج قفل الباب ثم دلف إلى الداخل، الظلام دامس وكنان مقيّد إلى قضبان النّافذة. توقّف آصف قليلًا أملًا في أن تعتاد عينيه على الظلمة، ولكنّ أمله قد خاب، أو إنه لم يستطع الانتظار وقتًا كافيًا. تناول علبة الكبريت من جيبه وأشعل عودًا منها قاده إلى مكان المصباح الزيتي على الحائط فأضاءه. أخذ الضوء الأصفر ينتشر شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى طرف النافذة المقيّد إليها كنان، ارتد فزعًا حينما رأى الأخير ينظر إليه بعينين مبرّقتين دون أن يرمش حتّى، كان مظهره يوحي بأنه فقد الحياة، اقترب منه آصف فهزه من طرف كتفه، فلم يستجب، أزاح الكمامة عن فمه وهزّه مجدّدًا وناداه باسمه، بقيت عيناه لا ترمشان وتنظران نحو نقطة لا نهائية. وبعد برهة تحرّكت شفتاه وقال: «أين أنت؟».

اعتقد آصف لوهلة أن كنان فقد بصره، ولكنّه اكتشف لاحقًا أنه لم يكن يخاطبه هو، فها هو كنان يمد يديه ويتناول رغيف الخبز ويأكل شيئًا من الجبن الذي أحضره آصف. آصف

كعادته أشعل لفافة تبغ وأخذ يتأمل كنان. لم يجد حاجة لتبرير ما فعله طالما أن كنان لم يسأل، ولكنّه شعر برغبة ملحّة في أن يقول شيئًا ما، فصمتُ كنان دفعه لأن يتجاوز التبرير إلى نقطة أبعد، فتنحنح وقال: «يبدو أنك تجرّب الكثير من الأديان هذه الفترة... لقد جرّبت دين يوسف ودين عزّام... لمَ لا تجرّب ديني؟»، رفع كنان بصره إليه ثم عاد إلى طبقه يهرس الجبن بالخبز ويرفعه إلى فمه، تنهّد آصف وأضاف: «نعم... لقد أصبح البشر يصنعون أديانًا يا صاحبي!... فما الذي يمنع أن أصنع أنا أيضًا دينًا جديدًا؟ ما الذي يمنع أن أكون مثل يوسف وعزّام؟... ولكن بالطبع دون لقب «الشيخ»، ودون اللّحية الطّويلة واللّباس المهلهل»، ردّ عليه كنان دون أن يرفع عينيه من الطّبق: «دينُك ينقصُه دِين!»، لم يفهم آصف ما يرمي له كنان بقوله، ولم يفكر بأن يسأله عن قصده، ولكنّه سأل كنان بعدها عن الأمر الذي يشغل باله هو:

- هل تعتقد أنني سأحكم القرية؟

- ما دين أهل القرية؟

- النّاس مثلي.

- ستحكمهم إن كانوا على دينك، وسيحكمهم عزّام إن كانوا على دينه.

- إذًا لم يعد النّاس على دين يوسف!

- لم يكونوا يومًا!

- وما دينك أنت؟

- ...

قرّر آصف أن يبيت ليلته عند كنان، لم يشعر بحاجة لأن يكمّم فمه، ولم يبدِ كنان أي نوعٍ من المقاومة، فاكتفى آصف بأن قيد يدًا واحدةً لكنان إلى قضبان النّافذة، ثم افترش أريكة ونام، أما كنان فقد عاد إلى الحال التي كان عليها قبل قدوم آصف.

(3)

غادر آصف منزل كنان في وقت مبكّر من اليوم التالي، تجاوز المساكن متجهًا نحو الأراضي حيث يعمل الفلّاحون، اختار أن يكون وقت زيارته مبكرًا قبل قدوم رجل الدّرك الذي يقوم

على تنظيم العمل وقبل أن تنتهي الشّمعة التي تركها في الكوخ. كان لقائهم به حميميًّا كما توقّع تمامًا، ولكنّه أيضًا كان معبّأ بتساؤلات الفلّاحين المدفوعة بفضول كبير بعد الخطاب الذي ألقاه عند الطّاحونة، فهو لم يعد كبير الفلّاحين، ولم يعد إلى عمله كفلّاح عادي أيضًا. أخبرهم أنه لازال يعمل مع السيّد غريب ولكن بمهام أخرى لا يستطيع الإفصاح عنها في الوقت الحالي؛ اشتعل فضول الفلّاحين أكثر، وزاد هو من فضولهم حين قال لهم إنهم سيكونون جزءًا من عملٍ يخص السيّد غريب في الأيام القادمة، عمل آخر غير الحرث والحصاد والتعامل مع الدّواب، أبدى الفلّاحون سعادة غامرة واستعدادًا كبيرًا لأي عمل يأمر به السيّد غريب، ثم انفرد بفلّاح يدعى يامن كان يقوم على خدمته سابقًا، أخبره أن يقوم باستقطاب أكبر عدد من الفلّاحين للعمل المقبل مع السيّد غريب، وسيقوم بايفائه بتفاصيل العمل في الوقت المناسب. تركهم ثم مضى إلى مجموعة الفلّاحين التي كان يعمل معها هو وتيم وكنان، والذين قتلوا السيّد الدّركي قبل بضعة أسابيع، لم يكن عددهم يزيد عن العشرين فلّاحًا، طلب منهم الاجتماع لمناقشة أمر هام. احتموا بظل شجرة من أسفلها ترى طاحونة الهواء وهي تخضع للريح الشرقية بدورانها، تنتصب على طرف القرية بثبات كأنها وجدت منذ الأزل، اختار آصف أن يكون موقعه مقابلًا لها تمامًا، أخبرهم آصف أن السادة قد اكتشفوا أمر السيّد القتيل وهم في طريقهم الآن إلى قبره. هربت الدماء من وجوههم واكتست بصفرة حادة، صمت بعضهم، وتبادل البعض الآخر الاتهامات، كلٌّ يعتقد أن الآخر هو من قام بالوشاية للسادة، ولأنهم يعلمون عن صلة آصف بالسيد غريب فإنهم صدقوا الأمر واعتبروا أن حديث آصف ثقة. حاول آصف السيطرة على الهرج الذي ساد بينهم، استغرق الأمر منه وقتًا قليلًا حتى استطاع أن يعيدهم إلى حالة الهدوء. قال لهم وعيناه لا تزالان معلقتين بالطاحونة: «إنني لم آت اليوم إلى هنا لاكتشاف الواشي، وإنما للاتفاق على قولٍ واحد نرويه أمام السّادة»، ولأن الغائب الوحيد عن المجموعة هو تيم أو السيّد غريب أقنعهم آصف بأن يلصقوا به الأمر ويتهموه بأنه انفعل على الدّركي وقتله بعدما جلده بالسوط. وجد الفلّاحون رواية آصف مقنعةً للغاية، وستقي أعناقهم غضب السّادة. قام آصف ليودّعهم، وما إن التفت ليصافح الفلّاح عن يساره حتّى سمع دويّ انفجار ضخم واهتزّت الأرض تحت قدميه وسقط أرضًا برفقة الفلّاحين الآخرين. بمجرد أن استفاق مدّ بصره نحو الطّاحونة فإذا بها قد تهاوت وتطايرت أشرعتها وشيء من الحجارة فوق بيوت القرية المحيطة، بقي منها خيط دخان غليظ بشع يمتدّ من الأرض إلى السّماء.

هرع آصف ومن معه إلى القرية كما فعل بقيّة الفلّاحين، ودرك السّادة أيضًا، بينما أخذ السّادة يراقبون الأدخنة المتصاعدة من مكان الطاحونة وبعض بيوت القرية التي طالها انفجار الطّاحونة من أعلى الهضبة. كوخ آصف كان قد تهدّم تمامًا، أما منزل أمه وزوجها فقد تهاوى فيه الجدار المقابل للطّاحونة. دخل آصف إلى منزل أمه ليطمئن أن الانفجار لم يخلّف قتلى فيه، كان ركام الجدار يغطي أرضية الحجرة التي أصبحت تطل مباشرة على أنقاض الطاحونة. أمه وإخوته كانوا يلتفون حول زوج أمه الذي كان مطروحًا أرضًا ومغطًى بالأتربة، لم يلقِ آصف له بالًا وانسحب خارجًا من المنزل. كانت حجارة الطّاحونة منثورة فوق الأرض، يعلوها بعض الأشلاء البشريّة المتفحّمة، قالوا له إن فلّاحين كانا

يقفان قريبًا من الطّاحونة لقيا مصرعهما، وفلّاح آخر أصابته حجارة الطاحونة المتناثرة في رأسه فخرّ صريعًا. قُتل ثلاثة فلّاحين على أثر الانفجار، واحترقت خمسة منازل محيطة، وتهدّمت أجزاء من بعض البيوت الأخرى. ترك الفلّاحون أعمالهم في الأراضي والتفوا في مجموعات حول موقع الحادثة يتبادلون الآراء حول ما حصل، الشيء الذي كان يتردد بين كلّ المجموعات والذي أصبح يقينًا بشكل ما أن الفلّاحين اللذين قتلا بجانب الطّاحونة كانا من جماعة عزّام وهما من قاما بتفجير الطّاحونة، قال فلّاح إنه لطالما ساوره القلق بشأن هذين الفلّاحين، وقال فلّاح آخر إنه رآهما أكثر من مرة يتهامسون بجانب الطّاحونة، وذهب فلّاح آخر بعيدًا وقال إنه رآهما يعبثان أسفل قاعدة الطّاحونة، واتفقت جميع الأقوال على أن جماعة عزام هم من كانوا وراء الحادثة سوى من بعض أقوال لكبار السن كانت تقول إن هذه هي لعنة شائيل التي ألقى بها على القرية.

(4)

من أعلى هضبة السّادة كان السيّد غسّان يراقب آثار الطاحونة المتهاوية والأدخنة المتصاعدة منها ومن البيوت المحترقة. أفزعه صوت الانفجار وقام من نومه مذعورًا قبل موعد استيقاظه بساعات. ما إن حصل الانفجار حتّى أرسل إلى عيونه في القرية لتقصّي الأمر. الأخبار الآتية تفيد بأن فلّاحَين مراهِقَين قاما بتفجير الطّاحونة يُرجح أن يكونا تابعين لجماعة عزّام. لم تكن هذه الإفادة لتشفي صدره، لم يكن ليشفي صدره سوى براهين قاطعة تقوده لأشخاص أحياء. لقد كانت كل المآثر السّابقة لعيونه في القرية تقتصر على جمع الأقوال عن مشكلات بسيطة، كسرقة أو قضية شرف أو صراع بين العائلات يسيطر عليه قبل أن يتطور، ولكن هذه الأحداث الأخيرة تفوق طاقته وطاقة عيونه الكثيرة. شبّك يديه خلف ظهره وأخذ يذرع شرفة منزله جيئةً وذهابًا، ستهتز الآن صورته في نظر السيّد رشيد، فقبل أسابيع اختفى دركيّ من أحد أبناء السّادة ولم يستطع الوصول إليه، واحترق محصول السيّد ماضي ولم يلقِ للأمر بالًا طمعًا في الاستيلاء على أراضيه، وبعدها تسلّل أحد أتباع عزّام إلى القرية خلسةً وقتله رجال الدّرك دون علمه، والآن تحصل هذه الطّامة التي يمكن أن تزلزل عرش الهضبة والسيّد رشيد. طرف خيطٍ هو الذي ينقصه لكي يبدأ مسيرته للكشف عن مجريات الأمور التي تبدو متشابكة ومتّصلة بشكلٍ ما، ولم يكن لديه سوى طرف خيطٍ واحد عزم أن يشده حتى يقوده إلى ضالته أو ينقطع الخيط وهو يحاول.

(5)

ترك آصف موقع الحادثة سريعًا، وأخذ يسير باتجاه البئر القديمة. أيجعله هذا قاتلًا؟ أزهقت روحين قبل قليل بسبب حيلة مكر لها، ولكنه لم يكن يعلم أن الشّابين سيقعان ضحيّة لها، ولم يكن يعلم أن حجرًا طائشًا سيجد طريقه لجمجمة فلّاح ويخرقها. حاول أن يتّخذ عدم علمه مبررًا، ولكن أشلاء الضحايا كانت تلاحقه في مسيرته، دموع الآباء والأمهات، حجة الجهل لا تجدي ولا تفلح في كبح وخزات الضمير، إنها لا تطفئ النيران المتأججة في صدره، ولا تنتزع صرخات الأمهات من أذنيه. ولأول مرةٍ منذ فترة لا يذكرها حضر الله إلى ذهنه. سأل نفسه سؤالًا جديدًا، لماذا قُتل هؤلاء؟ كان قد اقترب في مسيرته من البئر القديمة، فلم يرها أو لم يستطع رؤيتها، تجاوزها وهو يعيد السؤال عينه، لماذا قُتل هؤلاء؟ التفت عائدًا إلى القرية، فرأى من هناك هضبة الأشراف، كان يراها بشكلٍ جلي على بعده عنها، يكاد يحصي بيوتها بيتًا بيتًا، خفض بصره لتتراءى له بيوت الفلّاحين. لم يكن بحاجة ليعيد السؤال مرةً أخرى، فقد كانت الإجابة تتردد في ذهنه: قُتلوا من أجل الفلّاحين.

شعر براحة كبيرة بعدما وجد مبررًا أخلاقيًّا يتّسع لسفك دماء وإزهاق روح، بل زاده ذلك إصرارًا واندفاعًا مضاعفين، فلم تعد مبرّراته تقتصر على كونه يتيمًا رُبِّي دون أب، ولا على كونه فلّاحًا مضطهدًا، ولا على كونه فقيرًا لا يملك مالًا، لقد تبدّلت الصورة تمامًا. فكان يقول لنفسه: الله لا يحبّ الظلم وأنا أقاومه، الله يريد العدل وأنا سأقيمه، أما الأرواح التي تزهق خلال ذلك فهي بمثابة قربان في سبيل العدل، تزهق أرواحٌ لتحيا أخرى.

في القرية كانت حالة الهرج لازالت قائمة، درك السّادة يذرعون أزقة القرية لهدف مجهول لا يعلمه أحد، وربما هم أنفسهم لا يعلمونه، يوقفون عددًا من الفلّاحين للتحقيق في الأمر، يختارونهم بشكل عشوائي كيفما اتفق، وجميعهم يكرّرون القول نفسه، إنهم لا يعلمون، وإن الناس يقولون إنهم جماعة عزّام. تعمّد آصف أن يمرّ بهم لغاية في نفسه ولكنهم لم يلقوا له بالًا، تجاوزهم متّجهًا إلى بيت كنان، دخل سوق القرية، وقبل أن يصل إلى الإسكافي أطبقت قبضتان قويّتان على ذراعيه واقتادوه إلى هضبة السّادة، وهذا تحديدًا ما كان ينتظره!

(6)

توقّف آصف والدّركيان أمام بناء ضخم يسدّ الأفق، عمودان رخاميّان يمتدّان من الأرض حتّى شرفةٍ في الأعلى يحدّان بابًا خشبيًّا مزخرفًا، يقف أمامه دركيّان آخران لا يكادان يبلغان ربع قامة الباب. قال الدّركيان مع آصف لحرس الباب إنهما أحضرا «فلّاح الطّاحونة»، دفع أحدهما الباب واختفى وراءه. حضر بعدها وفتح مصراعي الباب وأشار لهما بالدّخول. عند دخول آصف إلى بهو المنزل تضاعفت رهبته التي كان شعر بها عند رؤيته المنزل من

الخارج، ارتفاع السّقف والأثاث المرتفع المذهب يضفيان مظهرًا من العظمة، روائح طيّبة وأرض نظيفة زلقة كالزجاج، كان المنزل في نظره قطعة من الجنة، ولوهلة نسي الأمر الذي من أجله أحضر إلى المنزل وأخذ يسرح بخياله بعيدًا، ينظر إلى قطع الأثاث بشغف كأنه على موعد قريب معها، يقلب عينيه بين الأعمدة والأقواس والزخارف والنقوش والتّحف النفيسة، رؤوس حيوانات جوفاء معلّقة على الجدران من بينها رأس ثعلب. دفعه أحد الحرس مغيرًا مساره فوجد نفسه وجهًا لوجه مع السيّد غسّان.

على إحدى الأرائك كان يتكئ رجلٌ يرتدي ثوبًا رماديًا فضفاضًا، له شارب أشهب يختلط فيه البياض بالسواد معقوفٌ طرفيه للأعلى، حليق اللحية، له شعر رأس أشهب كثيف مرتد إلى الوراء. أخذ الرجل ينظر إلى آصف بعينين ناعستين، يجوب بنظره من طرف قدميه إلى أعلى رأسه، قال الرجل لآصف: «هل تعرف من أنا؟»، هزّ آصف رأسه نافيًا، فصفعه أحد الحرس على قفاه وصرخ: «أنت في حضرة السيّد غسّان!»، التفت آصف إلى الحارس ونظر إليه نظرة أنزلت الرّعب في قلبه بشكل ما فارتد إلى الوراء. تابع السيّد غسّان الموقف وعرف أي نوع من البشر يكون هذا الفلّاح؛ أشار إليه بالجلوس، وأمر الحارسين بالانصراف.

أخذ السيّد غسان يتحدّث عن القرية والأخطار المحدقة بها، عن جماعة عزّام، وعن تجّار المدينة، عن الفوضى التي يمكن أن تحدث، عن القتل والجوع، وقد ضرب مثلًا واضحًا عن انفجار الطاحونة اليوم، قال: «تخيّل لو أن أمك أو أحد اخوتك قُتل في انفجار مماثل!»، قال إن الولاء يجب أن يكون لاستقرار القرية وأمنها بصرف النّظر عن الأشخاص والمسمّيات. ودّ آصف لو يسأله أي جزء من القرية يقصد، منطقة السّادة أم منطقة العبيد، الهضبة أم المنخفض، القصور أم الأكواخ، فما ينطبق على حالة الأولى لا ينطبق على الثانية. ولكنه أكمل الانصات إليه بكلّ حال، يهزّ رأسه موافقًا لكل ما يقوله. تطرّق السيّد غسّان للأشخاص الذين لا يملكون الوعي الكافي والذين يجب أن يجتثّوا من القرية لضمان أمنها، وأن علينا جميعًا أن نقف صفًّا واحدًا ضد هؤلاء، ثم قال إن السيّد غريبًا أحد هؤلاء الطّامعين الجشعين الذين لا يهمّهم سوى مصالحهم الشّخصية وتكديس الأموال، قال إنه لا ينتمي إلى القرية ويحاول العبث بها والله يعلم من أي بقعة قد أتى ولحساب أي شيطان يعمل، قال إن شخصًا مثله بمجرّد أن يحرق القرية سيستقل عربته عائدًا إلى المكان الذي أتى منه، وسنبقى نحن نتحمّل تبعات أشياء كهذه. افترض آصف أن السيد غسان يقصد بـ«نحن» الفلاحين والسادة معًا، قال في نفسه: لو أن هذا الكلام سمعه أحد الفلّاحين لانحنى ركوعًا للسادة لكثرة الحجج التي سيقت. ثم قال السيّد غسان مستعرضًا: «أنت فلّاح صالح، أنا أعلم هذا، سيكون لك شأنٌ معي، وسأجزل عليك بعطاء كثير، أكثر بكثير مما يعطيك إياه غريب، ولكن أولًا أريد أن أعلم أنك لا تخدعني، قل لي كل شيء عن غريب، كل ما تعرفه عنه، من أين أتى، وماذا يريد، وإلامَ يخطط ضد القرية، قل لي وستصبح سيدًا بين الفلّاحين». لم يفاجأ آصف بعرضه، ولم يتوتّر، ولم يتعرّق، وإنما بقي هادئًا ينصت بحكمة. قال آصف:

- سأخلصك من غريب للأبد!

اتسعت عينا السيد غسان الناعستان واتقد فيهما حماس، أكمل آصف:

- ولكن لي عندك رجاء.

- ماذا تريد؟

- الفلّاحون في القرية قلقون يا سيّدي... قلقون من جماعة عزّام بعد ما حصل اليوم، يريدون أن يضمنوا سلامة أهلهم وأطفالهم... وكما تعلم جماعة عزّام ينمون بين الفلّاحين وليس في هضبة الأشراف! ولا بد أن بيننا فلّاحين آخرين منهم وأن هذه البداية فقط... الفلّاحون يريدون أن يحملوا السّلاح ليحموا أنفسهم وأطفالهم ونساءهم... ولن يعود بذلك عليكم بضرر، بل سيحمونكم أيضًا؛ فأبناء الفلّاحين ينتمون إلى القرية وينتمون إليكم، ويمكنكم أن تنزعوا سلاحهم بعد أن يزول خطر عزام، ولكن اسمح لهم الآن أن يطهّروا أزقتهم وشوارعهم من جماعة عزّام، اسمح لهم أن يعينوكم في حمل هذه الأثقال!

أطرق السيّد غسّان لحظة ثم قال:

- لك ذلك، وماذا لديك أيضًا؟

- أعرف مكان الدّركي المفقود.

أخبره آصف أنه كان مع جماعة من الفلّاحين في أحد الحقول البعيدة، وأخبره أنه يعرف من كانوا هناك فردًا فردًا، إلا أن واحدًا منهم هرب من القرية ولم يعد، وذلك الذي قتله. نسي السيّد غسّان أمر الآخرين وسأله: «أين هرب القاتل؟»، أجابه آصف: «إلى هضبة السّادة!».

الفصل الرّابع عشر

قُوّة الفلّاحين

(1)

هضبة السّادة أو هضبة الأشراف، لم تستطع أن تحدّد هويّتها بعد، فهي تارةً تُدعى هضبة السّادة وتارةً تُدعى هضبة الأشراف؛ السّادة من نسل الشّريف يدعونها هضبة الأشراف، والسّادة الآخرون يدعونها هضبة السّادة، والفلّاحون أسفل الهضبة منقسمون بين هذا وذاك، والقليلون منهم يقولون إنّها جزء من القرية القديمة. في هذا اليوم خاصةً كانت الهضبة في أعلى حالات تخبّطها، كانت الهضبة تغلي كالمرجل، شمس الصيّف الحارقة تطهو العقول وتنضج نزعات التّمرد فيها، النّظرات العدائية تُرمى بين هذا وذاك، وكلمات الحنق والغضب تعلو في شوارع الهضبة، السّادة من بقية العائلات حانقون على الأشراف، الأشراف أنفسهم حانقون على المجلس، تفجير الطّاحونة يثير الكثير من الأسئلة عن أمان القرية، تخفيض الأرباح للنصف وزيادة أسعار البذور والمياه يطرح تساؤلات أكثر عن لقمة العيش التي لم يكن يأخذها السّادة في الحسبان. بعض كبار السّادة ممن هم دون المجلس، وكان أبرزهم السيّد مروان، الرّجل السّتيني الذي يحظى بكلمة مسموعة في الهضبة، عندما وصلتهم حزمة القرارات الجديدة التي اتخذها السيّد رشيد أطلقوا تهديدات علنيّة لمجلس السّادة، ثم اجتمعوا وعزموا على زيارة السيّد رشيد لاستيضاح الأمر، ولكنّ السيّد رشيد رفض استقبالهم وكلّف السيّد شدّاد بذلك، فاجتمع بهم السيد شدّاد في ساحة المناسبات. حديث السيّد شدّاد إليهم كان فيه الكثير من الصّلف، قال لهم ما قيل في آخر اجتماع لمجلس الأشراف، قال إن جماعة عزّام على الأبواب وإنهم بحاجة إلى كثير من الأموال لتسليح الدّرك الجديد، اكتفى بهذه الكلمات ولم يدع المجال لأي نقاش أو إبداء للآراء، وانسحب وتركهم يتخبّطون في غضبهم.

السيّد غريب، دون أن يدري أصبح بيته مزارًا لأولئك الرّافضين لحكم مجلس الأشراف والسيّد رشيد، بدأ الأمر ببعض الأقوال التي أشاعها آصف عن ذلك الخلاف المزعوم، وعن رغبة السيّد غريب بالإصلاح، وسرعان ما أصبح الأمر واقعًا مفروضًا، وبالرغم من أن آصف كان قد أطلعه على خطّته إلا أنه بعد أن تراجع عن كل الخطط التي كان يحلم آصف بتطبيقها شعر أن الأمور خرجت عن سيطرته، وأصبح التعامل معها محفوفًا بالكثير من المخاطر؛ فلقد كان يتماشى مع أولئك المعارضين الذين يرتادون بيته، وأصبح في نظر

مجلس السّادة محسوبًا عليهم، ولم يفلح أبدًا في تغيير تلك الصورة حتى بعد استدعاء مجلس السّادة له ولزوجته نرجس، وبعد الخطبة التي ألقاها آصف عند طاحونة القرية والتي جاءه بأخبارها كبير الفلّاحين بدأ السيّد غريب يتشكّل لديه يقين بشكلٍ ما أن آصف عقبة يجب التخلّص منها سريعًا، وأنه لا يستطيع أن يأمن بعد اليوم ما يحيكه من مؤامرات، ولكن الأمر الوحيد الذي لم يكن قد حسمه بعد هو طريقة التخلّص منه. كان يفكّر بطريقة مناسبة يتخلص بها منه وعزم أن يشرك زوجته نرجس في الأمر قبل أن يُفاجأ بانفجار الطّاحونة، الأمر الذي جعله منشغلًا بلقاءات كان أولها مع السيّد شدّاد والذي زاد فيه من حنق السّادة، ومجموعة أخرى من اللقاءات تخلّلها نقاشات وسجالات تدور حول طريقة مناسبة لإبداء الاعتراض على قرارات السيّد رشيد، قال البعض إن عليهم أن ينتظروا إلى أن تهدأ الأحداث ويكفّوا خطر جماعة عزّام ثم يتمّ التفرّغ لإصلاحات في حكم الهضبة، وقال البعض إن الإصلاحات يجب أن تبدأ فورًا، وإنهم لا يمكنهم الثقة في مجلس الأشراف في وقت حرجٍ كهذا يوشكون فيه على مواجهة خطر داهم كخطر جماعة عزام، ولا شك أن الطّرفان كانا يريان في الأحداث الأخيرة فرصة يجب اقتناصها للوثوب على سلطة القرية، كان منهم من هم من نسل الشريف الذين رأوا أن وجه الإصلاح يجب أن يكون من نسل الشريف، والذين تجاهلهم السيّد رشيد فالتجؤوا إلى بقية الوجوه المعارضة محاولين امتطاء خيل الإصلاح والسيطرة عليه، ولا شك أن بقية الوجوه كانوا يفهمون غرض الأشراف فتشكّل شبه حلف داخل المعارضة للوقوف في وجه أطماعهم، وكان السيد غريب من ضمن الحلف والدّائرة الضيقة في المعارضة.

كان السيّد غريب بالرغم من وجوده في الدائرة الضيقة يتّخذ موقف الحياد بين التّيارات المتصارعة داخل المعارضة، فقد كان حريصًا أن لا يخوض أي مغامرة يمكنها أن تهدد وجوده مع نرجس، فهو لا يريد السلطة، ولا يريد الحكم، ولا يريد حتى المال والأراضي، هو يريد نرجس فقط، هي أرضه وسماه ونفوذه وسلطته، هي منتهى أحلامه، والتي لولاها لترك الهضبة والسّيادة والأموال وعاد إلى عمله كفلّاح عادي دون تلك التعقيدات التي تحيط به، فتمنّى وقتها لو أنه يستطيع أن يقايض مع آصف كلّ شيء، يعود هو كفلاح برفقة نرجس، ويأخذ آصف السلطة والنفوذ والأراضي والأموال، ولكن ليت الأقدار تُستبدل.

شعر يومها أنه يشتاق إلى نرجس أكثر من المعتاد، أكثر من كلّ يوم، أراد أن تنتهي تلك اللقاءات بسرعة حتى يعود إليها، لم تخطر بباله عائلته التي تركها في القرية، وإنما خطرت نرجس وحدها. كانت الأصوات تعلو حوله، تنطلق الحناجر وتكاد العيون تخرج من المحاجر، وهو لا يسمع سوى ضجيج، ولا يرى سوى نرجس. وماذا في الأمر إن سيطر جماعة عزّام على القرية، ما الذي قد يتغيّر إن بقي مع نرجس، لا شيء. لم يستطع الانتظار أكثر، استأذن من الحناجر التي تجلس حوله بحجّة أمرٍ طارئ، لم يلقوا له بالًا لانشغالهم بجدالاتهم. أخذ يحثّ الخُطى نحو منزله للقاء نرجس، كان إذا صادف زهرة في طريقه تذكّر اسم زوجته، وإذا رأى نخلًا باسقًا ذكّرته ثمراته بلون شعرها، وإذا اصطدمت عيناه

بالشّمس تذكّر إشراقة وجهها، وإذا تورات الشّمس وراء النّخيل تذكّر حياءها، كان يبدو له في تلك اللّحظة كأن الكون كلّه اختُزل فيها. أسرع من خطاه حتى وصل إلى البيت، كانت نرجس تمسك بقضبان النافذة وتنتحب منتظرةً إياه، وما إن رأته حتى ركضت نحو الباب وعانقته وأخذت تنتحب أكثر، أما هو فلسبب ما لم يبدُ له الأمر غريبًا. كانت إحدى ذراعيه تلتف حول خصرها، والذّراع الأخرى أعلى ظهرها ويده تمسح شعرها، انزلقت دمعتان من عينيه وهو يقبّل جبهتها، ابتسمت له نرجس، ثم انتبه أن الأمر يبدو كالوداع تمامًا.

بقيا على هذه الحالة لحظات حتّى اقتحم عدد من الدّرك باب المنزل الذي كان قد تركه غريب مفتوحًا، انتزعوه من أحضان نرجس انتزاعًا، أخذت نرجس تصرخ وتضرب بعضهم، أما غريب فلم يفعل شيئًا، كان ينظر إلى نرجس فقط، يملّي ناظريه من ملامحها، يلقي عليها نظرةً اعتقد أنها الأخيرة.

(2)

وجد السيّد غسّان أنه أصاب عدّة عصافير بحجرٍ واحد، بل وجد أن وصف العصافير قد يكون ضئيلًا جدًّا مقابل المكاسب التي حقّقها في السّاعات الأخيرة بعد لقائه مع ذاك الفلّاح. بعد تخلّصه من السيّد غريب وتفكيكه للغز اختفاء الدّركي ربما يصبح هو حجر الأساس في المجلس، بل ربما أعطاه السيد رشيد سلطة على بقية أعضاء المجلس ليغيّر بذلك النمط الذي سار عليه المجلس لعشرات القرون الماضية، ولكنّه بالرغم من كل ما حقّقه اعتقد أنه ربما يكون غير كافٍ لينال ما يطمح إليه، وأنه يجب أن يكون بطل المرحلة القادمة التي تواجه فيها القرية جماعة عزّام، وأنه يجب أن يظهر فيها بمظهر الفارس المنقذ، ولعلّ مفتاحه الذّهبي لتحقيق كل ما يصبو إليه هو ذاك الفلّاح الذي لازال يذكره باسم فلّاح الطّاحونة، فلقد نسي اسمه، ونسي أيضًا أن الطّاحونة أصبحت شيئًا من الماضي.

السيّد غسّان من خلال فلّاح الطّاحونة يخطّط لأن يُشكّل قوّةً من الفلّاحين تعمل تحت إمرته كقوّة موازية لقوّات الدّرك التي يقودها السيّد شدّاد، ويستطيع أن يقنع السيّد رشيد بأن يلقي بقوّة الفلّاحين في نار المواجهة مع عزّام دون أي خسائر تذكر في درك السّادة، فهو بهذا وقبل أي مواجهة يستطيع أن يظهر في مظهر المنقذ لدرك السّادة بمجرّد تشكيل قوّة الفلّاحين، من جانبٍ آخر يستطيع أن يستخدم هذه القوّة ليكون على قدم المساواة مع السيّد شدّاد تحسّبًا لأي خلاف يطرأ داخل المجلس، أما بعد مواجهة قوة الفلّاحين لجماعة عزام ودحرهم سيكون له الفضل في كل شيء. لقد أثار فلّاح الطّاحونة إعجابه، فلقد فهم

أن ذاك الفلّاح يطلب نفوذًا ما، وأن عقله سيمكّنه من الوصول إلى ما يريد. آثار إعجابه بدرجةٍ كبيرة، فعزم بعد التخلّص من جماعة عزّام أن يتخلّص منه!

اجتمع يومها السيّد غسّان بالسيّد رشيد بعد لقائه مع آصف ليطلعه على البشريات الجديدة، تهلّل وجه السّيد رشيد فرحًا بعد أن علم أنه سيتخلّص من السيّد غريب الذي كان يعتقد أنه أحد رؤوس المعارضة، ولعلّ اكتشافه أنه مجرّد فلّاح وجد طريقه للهضبة لن يغيّر من استغلاله للأمر ليوجّه من خلاله رسالة مزدوجة إلى الفلّاحين وإلى المعارضين في الهضبة على حدٍّ سواء، وفور سماعه للخبر أرسل للسّيد شدّاد ليحضر إليه فورًا، خلال ذلك أطلعه السّيد غسّان على خطّته للدّفع بالفلّاحين في وجه جماعة عزام عندما يحين الميعاد، وعلّل ذلك بأنه في حالة حدوث خسائر في الدّرك بعد مواجهة جماعة عزّام فإنهم لن يصبحوا قادرين على كبح أي تمرّد يصدر من الفلّاحين، ولا من داخل الهضبة، لم يكن السيّد رشيد ليرفض هذه الفكرة «العظيمة» كما وصفها، وأمره بأن يقوم على الأمر ويبدأ بتجنيد قوة من الفلّاحين فورًا. عندما حضر السيّد شدّاد أوعز إليه السيّد رشيد بأن يرسل قوّة من الدّرك لاحتجاز السيّد غريب، وأن يرسل قوّة أخرى تأتي بالفلّاحين الذين كانوا حاضرين يوم مقتل الدّركي ليتعرّفوا على الفلّاح الذي تقمّص دور السيّد غريب ويحتجزونهم إلى أن يحين موعد المحاكمة التي ستكون على رؤوس الأشهاد من سكّان الهضبة وكبار الفلّاحين من القرية. كان السيّد رشيد يريد أن يقيم محاكمة سريعة ويقوم بإعدام السيّد غريب على الفور، ولكنّ السيّد غسّان نصحه بأن يتمهّل ويختار وقتًا مناسبًا لتصل رسالته في أوضح صورة ممكنة لكلّ الأطراف الموجّهة إليها، سأله بعدها السّيد رشيد: «ومتى يحين ذاك الوقت المناسب؟»، قال له السّيد غسّان إن حدثًا كهذا لا يمكن أن يتم بدون حضور الشيخ يوسف الذي خرج في جولة إلى القرى الأخرى وسيعود خلال بضعة أيام وقال له معقّبًا على ذلك: «هل يمكن أن يتم حدث كهذا دون أن يكون الأولياء حاضرين؟!»، وأخبره أيضًا أن يوم المحاكمة يجب أن يترافق مع جنازة مهيبة يقيمونها للدّركي المقتول لتضفي مشروعيّة أقوى على أي حكم يصدر بحق المتّهم. سلّم السيّد رشيد بحكمة السيّد غسّان في تعاطيه مع الأحداث وأشاد عليه وأمر له بمكافأة جزيلة، قبل السيّد غسّان المكافئة بسرور وأيقن أنه منذ الآن أصبح هو الحاكم الفعليّ للقرية.

(3)

نزل آصف من هضبة الأشراف مسرعًا، ينظر أمامه مباشرةً ولا يحاول الالتفات إلى الخلف؛ شعر أن أي إلتفاتة منه ربّما تذكّره بقتلى الطّاحونة، وربما تذكّره بأراضي السيّد ماضي المحروقة، وربّما تذكّره بصديقه الذي ألقى به لتوّه في هوّة سحيقة ستودي بحياته. حاول أن يبقي نفسه منشغلًا بما هو آت، بما يمكن أن يحصل، يحاول أن يفكّر بجميع الاحتمالات

ويرسم سيناريوهات للتعامل معها؛ فكان يطرح أسئلة ويجيب، يعيدها بصيغة أخرى ويجيب بصيغة أخرى، حتّى وجد نفسه أمام منزل كنان، فتح الباب ونظر إلى موضع النّافذة فلم يكن كنان هناك، تقدّم إلى موضع الحبل في عجالة، كان الحبل على حاله مربوطًا بالنافذة، وطرفه الآخر معقودًا على حاله تنقصه فقط اليدان اللتان كانتا فيه، لم يبدُ على الحبل أنه قطع، ولم يبدو أنه انتزع بالقوّة، كان يبدو كأن كنان انزلق منه انزلاقًا، أو أنه اختفى فلم يعد الحبل قادرًا على تقييده. لم يعطِ للأمر الكثير من الأهميّة، تمدّد على إحدى الأرائك وغفا قليلًا، ثم خرج إلى أزقّة القرية يقطعها جيئة وذهابًا، كانت حالة اللّغط لازالت قائمة بعد حادثة الطّاحونة، شيء ما تغيّر في القرية بعد أن تهدّمت الطّاحونة، شيء ترك أثره على مظهر الأزقة والبيوت والوجوه، وعلى أصوات الفلّاحين وجدالاتهم، شيء ما تغيّر وربما لن يعود إلى حاله مجدّدًا.

حاول أن يبحث عن كنان فلم يجده، عرف مسبقًا أنه لن يكون موجودًا في القرية بعدما حصل، ولكنّه تابع البحث عنه؛ كان ليشعر براحة كبيرة حال رؤيته. بحث في كل أزقة القرية، وكان يسترق النظرات لأبواب البيوت المشرّعة، في كلّ مكان يمكن أن يوجد فيه بشر.

كانت الشّمس قد انزلقت عن كبد السّماء قليلًا عندما أطبقت على ذراعيه القبضتان القويّتان نفسهما اللتان كان ينتظرهما في الصّباح، أرخى جسده وتركهما يقودانه مجدّدًا إلى هضبة السّادة، كان السّيد غسّان في انتظاره على الأريكة نفسها وبالوضعيّة نفسها التي كان عليها في الصّباح، ولكن نظراته التي كانت في الصّباح نظرات احتقار وتشكيك صارت الآن نظرات إعجاب وتقدير، أعطاه السيّد غسّان الإذن بأن يبدأ بتشكيل قوّة الفلّاحين على شرط أن لا يتجاوز أعدادها أعداد درك السّادة، فقد كان السيّد غسّان يعلم أن عدد قوّة الفلّاحين سيتقلّص للنصف بعد المواجهة مع جماعة عزّام، ولن يكونوا بذلك يشكّلون خطرًا. لم يبدُ على آصف السّرور، شكر السيّد غسّان على تفهّمه لمطالب الفلّاحين ثم انسحب عائدًا إلى القرية.

في القرية اجتمع آصف مع يامن الذي كان قد حضّر عددًا غفيرًا من الفلّاحين الرّاغبين بالعمل مع السيّد غريب كما قال لهم. اصطفّ الفلّاحون في طابور في وسط سوق القرية يتسلّمون أسلحتهم النّارية ويسجلّون أسماءهم ويأخذون رقمًا كُلٌ حسب سلاحه ليكون مسؤولًا عنه مسؤولية كاملة، قال آصف ليامن أن يخبر الفلّاحين أنه يتم تجهيزهم لقتال جماعة عزام، وقال له ألّا يكرّر لهم كونهم تابعين للسيّد غريب، لم يسأل يامن عن السبب ولم يشرح آصف، رغب آصف أن يقول للفلّاحين ذلك في خطبة عصماء، ولكنّه امتنع عن ذلك خوفًا من إثارة ريبة السيّد غسّان، فاكتفى بأن كان حاضرًا على كلّ شيء أمام الفلّاحين ليجد ولاءهم طريقه إليه.

في اليوم التّالي أقام آصف بمساعدة يامن معسكرًا للتدريب على أطراف القرية في إحدى أراضي الزراعة التي كانت تتبع للسيّد غسان، وقام على أمر التدريب أربعة من الدّرك أرسلهم السيّد شدّاد على مضضٍ بعد أن تلقّى أمرًا مباشرًا من السيّد رشيد بذلك، فتعالت الصّرخات يرافقها أصوات الأعيرة النّارية والغبار الذي أثارته الأقدام والأجساد. أحد المتدرّبين كان ضخم الجثّة كثيف اللحية يبدو عليه الغضب أكثر من أي شخص آخر، كان يبطش بالفلّاحين أثناء التدريب الجسديّ، ويكاد السّلاح الآلي ينحني تحت وطأة قبضتيه، كان ذلك هو ضرغام الذي قطع جولته برفقة الشّيخ يوسف وعاد إلى القرية مسرعًا فور سماعه بتشكيل قوّة من الفلّاحين لتقاتل جماعة عزّام، ولم يكن يدري أنه سيقاتل معهم جنبًا إلى جنب، فقد انسلّت جماعة عزام في القرية بين الفلّاحين المتطوّعين بإيعاز من آصف.

الفصل الخامس عشر

المـُـحاكَـــمَة

(1)

عاد الشيخ يوسف إلى القرية بعد أن أتاه استدعاء عاجل من السيّد رشيد، قال الرّسول إن هناك حدثًا كبيرًا سيحصل في هضبة الأشراف ويريد السيّد رشيد منه أن يكون متواجدًا خلال ذلك الحدث، حاول أن يستوضح أكثر من الرّسول عن طبيعة الأمر ولكن الرسول ادّعى عدم علمه بتفاصيل الأمر وطبيعته. اقتربت العربة التي كان أرسلها له السيّد رشيد من هضبة السّادة وأخذت تميل صاعدةً المنحدر المؤدي إلى الهضبة. كان الشّيخ يوسف خلال ذلك ينظر إلى القرية ويشعر أن شيئًا جللًا حصل، أو أن شيئًا سيحصل، فلم تكن الأمور على سجيّتها، كان يشعر بأن الأجواء مشحونة وأن نذر الخراب بدأت تحيط بالقرية، انتبه بعدها أن طاحونة القرية لم تعد موجودة، استفسر من سائق العربة عنها فأخبره ما كان من أمرها، فأيقن بعدها الشّيخ يوسف أن نذر الخراب قد حلّت بالقرية ولم تعد تحيط بها.

ترجّل الشيخ يوسف من عربته أمام قصر السيّد رشيد، وأخذ يتوكأ على عصاه آخذًا طريقه إلى باب القصر المرتفع، كان بانتظاره السّيد رشيد والسيّد غسّان يرافقهما السيّد شدّاد والسيّد نديم، أما السيّد عزيز فقد كان في رحلة إلى المدينة ليطّلع على آخر المستجدّات. كان مظهر الشيخ يوسف يبدو غريبًا وغير متجانس مع أبّهة القصر وفخامته، فالأرائك المذهبة والقطع النفيسة لا ينسجمان مع ثوب مغبّر برقع صفراء وخضراء وحمراء، وأناقة الجلوس لا تنسجم مع اللحية الضخمة البيضاء والشعر الأشعث، دعاه السيّد رشيد للجلوس فرفض، كان السيّد رشيد يعلم أنه سيرفض، ولم يشعر بالاهانة لأنه لم يلبِّ دعوته، فلم تكن تلك المرّة الأولى التي يلتقون فيها، ولم تكن المرّة الأولى التي يرفض فيها الشيخ الجلوس على أثاث فاخر؛ فقد برّر الشيّخ يوسف الأمر للسيد رشيد مرارًا بأنه يخاف التعاطي مع الحياة الفارهة خوفًا منها على نفسه، وكان السيّد رشيد يقدّر ذلك. أطلعه السيّد غسّان على ما حصل من مستجدّات في القرية في غيابه، فقصّ عليه حادثة الطّاحونة التي كان يعرفها مسبقًا، ثم انتقل إلى حادثة مقتل الدّركي وأن المسؤول عن قتله فلّاح تقمّص دور سيّد يسكن الهضبة، كان الشّيخ يوسف يستمع إلى السيّد غسّان وهو يرتكز بذقنه على عصاه مغمض العينين، أخبره عن أمر المحاكمة وأنه يجب أن تكون له كلمة أثناء المحاكمة وحال

صدور الحكم أمام الحضور، قال له: «يجب أن تطالب بالقصاص قبل المحاكمة، ثم تؤيده بعدها، فيجب أن يطالب أولياء الله بالعدالة ثم يباركونها»، ارتفع جفنا الشّيخ يوسف ببطء وقال: «ومن يدّعي أنه يعرف العدالة؟... ومن يدّعي معرفة إرادة الأولياء وإرادة الله؟... سأكون هناك لأطالب بالمغفرة للقتيل والقاتل معًا، أمّا العدالة فإني أتركها لملكوت لا يحكمه بشر»، ثم استأذن بلطف وانسحب خارجًا من القصر.

الوجوه المعارضة لمجلس الأشراف داخل الهضبة استشاطت غضبًا بعدما علمت بواقعة القبض على السيّد غريب، ولم يصدّقوا كل الحكايات التي تروى حول كونه فلّاحًا قاتلًا، وانما اعتبروا الأمر تلفيقًا من مجلس الأشراف وإمعانًا في قمع جميع الأصوات المعارضة، ووجدوا في الأمر رسالةً واضحة من مجلس الأشراف حول المصير الذي سيلاقيه المعارضون للمجلس ولطريقة حكمه، وعلموا من مصادرهم المقرّبة من المجلس أن محاكمة ستقام للسيّد غريب في اليوم التالي ويرجّحون أنه سيتمّ إعدامه خلالها، فشعروا بأن الخطر محدق وأن الحبل الذي سيلتفّ حول رقبة السيّد غريب سيطال رقابهم جميعًا، وهنا أيقن السيّد مروان بوجوب استباق الأحداث والتقدّم بخطوةٍ على المجلس، فأقرّ بحراك عسكريّ في اليوم التّالي يتلو المحاكمة وينتهي فيه حكم مجلس الأشراف.

(2)

وصلت أخبار المحاكمة إلى آصف سريعًا، قيل له إنّها ستُعقد في اليوم التّالي ظُهرًا في ساحة الشريف سليم وسط هضبة السّادة. قام باستدعاء شرحبيل من معسكر التدريب على الفور، اجتمعا في مكان بعيد عن الأعين، أخبره بأمر المحاكمة وقال له إنها الوقت المناسب للتحرّك والاستيلاء على القرية؛ فكان هذا هو أمل آصف الوحيد لإنقاذ السيّد غريب من الموت المحقّق في آخر لحظة. استجاب شرحبيل سريعًا لطلب آصف لسببٍ ما، وأخبره أن بقيّة جماعة عزّام الآتين من خارج القرية سيلتحمون معهم ثم يضربون هضبة السّادة. لم يكن آصف يعوّل كثيرًا على التحام جماعة عزّام بقوّة الفلّاحين فكان يشكّ في وصولهم في وقت المحاكمة. قال له شرحبيل حينما صارحه بذلك: «سيصلون أسرع ممّا تتوقّع»، فلقد كان الشّيخ عزّام وتابعوه يتمركزون في الأحراش الغربية للقرية من جهة البئر القديمة منتظرين ساعة الصفر لاقتحام القرية ومن ثم الاستيلاء على هضبة السّادة. ولا شكّ أن تمركز جماعة عزّام في الأحراش الغربيّة وراء البئر القديمة لم يكن تمركزًا اعتباطيًّا خاليًا من التّخطيط، فلقد كانت لديهم خطّة محكمة مبنيّة على معلومات دقيقة. وعندما حاول آصف أن يناقش معه خطّة للهجوم قال له شرحبيل إن درك السّادة لن يكونوا متواجدين في القرية، ولن يكونوا متواجدين في الهضبة كذلك، وبهذا ستكون الهضبة لقمة سائغة

لقوّة الفلّاحين والجماعة. لقد أثارت ثقة شرحبيل التي كان يتحدّث بها ريبة آصف، وما أثار ريبته أكثر هو ثقة شرحبيل فيه.

(3)

في صباح اليوم التّالي، وصل السيّد عزيز الذي كان قد خرج في جولة للوقوف على آخر المستجدّات التي تخصّ جماعة عزّام من قلب المدينة، كان السيّد رشيد والسيّد غسّان يعوّلان كثيرًا على الأخبار التي سيأتي بها السيّد عزيز، والتي سيتأكد فيها موقع قريتهم من الصّراع الدّائر مع جماعة عزّام. دخَل السيّد عزيز عليهم وقد فرّت الدّماء من عروقه، قال لهم إنّ قرية الأشراف هي الهدف الأساس لجماعة عزّام، وإنّها ستتعرض لهجوم قريب ربما يكون في غضون ساعات قليلة. فهرعوا لوضع خطّة لمواجهة الجماعة بناءً على المعلومات التي أتى بها السيّد عزيز. قال لهم السيّد عزيز إن هجوم جماعة عزّام سيكون على ثلاثة محاور، قال لهم إنهم سيدفعون بثلثي قوّتهم للدّخول من المحور الغربي جهة البئر القديمة وهؤلاء سيقُودهم عزّام بنفسه، أما الثلث الباقي فسيقسّمونه على محورين، المحور الشّرقي خلف الهضبة، والمحور الشّمالي من جهة زاوية الشّيخ يوسف. تبادل الحاضرون الآراء حول خطّة الدّفاع، وهنا أبدى السيّد غسّان رأيه القائل بالدّفع بقوّة الفلّاحين في وجه القوّة الأكبر لجماعة عزّام، والذي كان قد طرحه عليهم مُسبقًا، والدّفع بقوّات الدّرك للتّمركز في الجهة الشّرقية خلف الهضبة والجهة الشّمالية والاحتفاظ بالبعض داخل الهضبة لضبط النّظام. اقترح السّيد شدّاد أن يقوموا بتأجيل المحاكمة إلى حين استقرار الأمور، ولكنّ السيّدين غسّانَ وعزيزًا أصرّا على إقامتها، ولكلٍ منهم غرضه من ذلك. بارك السيّد رشيد خطّة الدّفاع التي وضعت وأمر بتجهيز الأمور للمحاكمة. استدعى السيّد شدّاد قادة الدّرك ليطلعهم على تفاصيل الخطّة، واستدعى السيّد غسّان آصفًا وفعل معه بالمثل، أما السيّد عزيز فقد استأذن وعاد إلى المدينة مُسرعًا.

وسط ساحة الشّريف سليم نصبت منصّة ترتفع عن الأرض بضعة أشبار، ويعلوها إطار خشبي عريض يتوسّطه حبلٌ متدلٍّ ومعقود في نهايته حلقة. كانت المنصّة مقابلة تمامًا لتمثال الشّريف سليم، تقع في مكان متوسّط بين التمثال ومقاعد الجلوس التي أخذت هيئة أخرى غير التي كانت عليها، فقد أعيد ترتيب المقاعد بشكلٍ يقابل المنصّة ومن وراءه تمثال الشّريف سليم. عندما قارب الوقت الظّهيرة تتابعت مجموعات السّادة الذين أرادوا حضور المحاكمة، امتلأت المقاعد وأصبح الوقوف أكثر من الجلوس، وكان من بينهم المعارضون للسّيد رشيد، الذين كانوا يخفون أسلحتهم الآلية تحت ثيابهم استعدادًا للتحرّك بعد المحاكمة مباشرةً. حَضر السيّد رشيد برفقته بقية أعضاء المجلس باستثناء السيّد العزيز. تبوّؤوا مقاعدهم الأمامية المحجوزة، كان برفقتهم الشّيخ يوسف الذي فضّل

الوقوف ورفض الجلوس. آتت نرجس تدفع الدّرك المحيطين بالسيّد رشيد محاولة الوصول إليه لاستجدائه، للتوسّل إليه لكي يعفو عن غريب، كانت قد ذبلت تحت وطأة الحزن فلم يجد السيّد رشيد سببًا للاستماع إليها، فأشاح عنها ودفعها الدّرك بعيدًا. بعد حضور المجلس والشّيخ يوسف أمر السّيد شدّاد الدّرك فأتوا بغريب وقد ألبسوه ثيابًا رثّة وقيّدوا يديه إلى ظهره، كان يظهر أنه تعرّض للاعتداء من الدّرك؛ فبشرته البيضاء النّضرة في أحوالها العادية اكتست بشيء من السّواد وبعض البقع الزّرقاء وأحاطت هالتان سوداوتان بعينيه، كان يترنّح في مشيته كأنه في حالة متوسّطة بين الإغماء والوعي محاطٌ بالكثير من رجال الدّرك. أوقفه الدّرك في مكان بجانب منصّة الإعدام ومجاور لتابوت الدّركي القتيل. كان السيّد رشيد يقابل المشنقة تمامًا، فظهر له منها الحلقة المتدليّة ويتوسّطها من ورائها رأس تمثال الشّريف سليم، أراد أن يأمر بتغيير مكان المنصّة أو أن يغيّر هو مكانه، ولكنّ المحاكمة قد بدأت، وكان الأوان قد فات.

افتَتح الشّيخ يوسف المحاكمة بكلمته: «أيها السّادة الحضور... حفظكم الله بحفظه وبارك عليكم ببركة أوليائه وهداكم من نورهم الذي لا تخالطه ظلمة... أما بعد، فإني أقف بينكم اليوم في موقفٍ عسير وددت أن لا أقفه أبدًا، وأرى أمامي قتيلًا وقاتلًا جنبًا إلى جنب ينتظرون العَدالة، وأنا ما كنت أدّعي يومًا أنني وكيل للعدالة في الأرض... فعلم القاتل في الغيب وعلم القتيل في الغيب... ولهذا فإنني أطلب العدالة لكليهما في السّماء، أمّا عدالة الأرض فالسيّد رشيد حفظه الله يتكفّل بها... وإني أرى أن نذر الخراب قد حلّت بالقرية وبدأت تظهر فيها، ولهذا فإنّي أوصيكم بحكّامكم خيرًا، وأوصيكم بالسيّد رشيد خيرًا، فالقرية محفوظةً باسمه وبفعله... فاقطعوا دابر الفسدَة والمتآمرين بالالتفاف حوله وبإطاعة أمره». ثم بدأ الشّيخ يوسف بالبكاء، فأخذ ينشج ويقول: «حفظكم الله ورعاكم... حفظكم الله ورعاكم... حفظكم الله ورعاكم». تلقّفه مجموعة من المريدين وأجلسوه في مكانٍ قصيّ. قام بعدها السيّد شدّاد وقال: «ائتوني بالشّهود»، فأتي الدّرك بالفلّاحين الذين كانوا حاضرين يوم مقتل الدّركي، أشهدهم السيّد شدّاد فقال: «أليس هذا هو الفلّاح المدعو تيم الذي كان معكم يوم مقتل الدّركي؟»، هزّ الفلّاحون رؤوسهم إيجابًا، سألهم سؤالًا آخرَ بلهجةٍ أكثر قوّة: «أليس هو من قتل الدّركي ووارَى جثّته؟»، هزّ الفلّاحون رؤوسهم على استحياء وتبادل بعضهم نظراتٍ خجلة، إلا واحدًا منهم أخذت الدّموع تنحدر من عينيه متأثرًا بكلمات الشّيخ يوسف، فأجهش وصرخ: «لم يكن هو من قتله، لقد قتلناه جميعًا، لقد جلدنا فأدمى ظهورنا... لقد ظلمنا كما فعلتُم أنتم... لقد نال ما يستحقّه... وهذا ما تستحقّونه أنتم... هذه هي العدالة يا شيخ يوسف... هذه هي العدالة التي تطلبها السّماء، وليست عدالة السيّد رشيد... لقد اغتُصبت جليلة فضاع شرفنا بينكم... ولقد هرب قاتلها فضاع حقنا وحقّها... لقد جُوّعنا وجُلدت ظهورنا وطرد منا الكثير وقُتل منا الكثير ونحن والله لسنا بدواب!... وها أنا أعلم أني مقتولٌ اليوم ولن أطلب المغفرة إلّا من الله... ولن أطلب العدالة إلا من الله أن يقيمها... وأن يقيمها الآن بيننا!...»، سرَت همهمات بين الحُضور وتقدّم اثنان من الدّرك إلى الفلّاح فطرحُوه أرضًا وأسكتُوه عُنوةً. فقدَ عِندها السيّد رشيد هُدوءه ووجد أن يُبدي بعض الصّرامة حتّى لا ينفلت العقد وتنقلب الأمور، فوقف وقال:

«مخطئ من يعتقد أنه يستطيع أن يعبث بهذه القرية... مخطئ من يعتقد أنه يستطيع أن يقتل دركيًّا وينجو بفعلته... وإني أعلن أن الحكم الفصل قد صدر... اجمعوا هؤلاء الفلّاحين معًا فوق المنصّة ونفّذوا فيهم العدالة... أعدِمُوهم رميًا بالرّصاص... انتهت المحاكمة».
وكانت المحاكمة قد انتهت بالفعل؛ فما إن نطق السيّد رشيد كلماته حتّى سُمع دويّ إطلاق نار وسَقط دركيّان من المحيطين بالسيّد رشيد... لقد تحرّكت المعارضة.

(4)

قبل المحاكمة بقليل، وعلى أطراف القرية الغربيّة، كان آصف برفقة مساعده يامن وشرحبيل وبعض جماعة عزّام، بينما كانت قوّة الفلّاحين تتمركز على أبواب القرية تنتظر الأمر بالتّحرك غربًا نحو الجماعة، ولم يخطر لهم أبدًا أن تحرّكهم سيكون شرقًا نحو هضبة السّادة عن إرادة وقناعة تامّة. أمر آصف يامن أن يذهب إلى القوّة ويشيع بينها ما يحدث في الهضبة من أمر المحاكمة ومقتل السّيد غريب، خلال ذلك أعاد آصف لشرحبيل الأمر الذي يثير قلقه: «متى ستصل جماعتك؟»، قال له شرحبيل: «إنهم على بعد أمتار قليلة يختبئون في الأحراش منذ أيام». أثار ذلك تساؤلات كثيرة لدى آصف فوق الرّيبة التي كان يشعر بها منذ اليوم الماضي؛ فوصولهم إلى مشارف القرية بهذا الهدوء يثير تساؤلات وربما يشير إلى تسهيلات تلقّتها الجماعة ربّما من المدينة أو القرى المجاورة. احتفظ آصف بتساؤله ولم يبح بأمره لشرحبيل، ثم استأذن منه وانطلق نحو قوّة الفلّاحين.

«أيّها الفلّاحون المـُقاتلون... أيّها الجُند المـُخلِصون... أيّها الجـُند المـُخَلِّصون، يا أبناء القرية وحُرّاسها... إن جماعَة عزّام تقبع هناك خلف الأحراش غربًا، وإن السيّد غريب يُقارب أن يلقى حتفه شرقًا... إنّي وددت أن أقول لكم أن نهمّ بجماعة عزّام، ولكنّ ذلك يعني أنّنا نقتل من أراد لنا الحياة، إنّنا بذلك نحكم بالموت على الرّجل الذي نظر إلينا كبشر وليس كدواب، إنه الرّجل الذي حوّلكم من مزارعين إلى جُند يحمي أرضه وديارَه... إنّنا اليوم نقف بين عدوّين، عدُوٌ شرقًا استعبدكم واستباح دمائكم، وعدُوٌ غربًا قال لكم سكّان الهضبة إنّه عدوّ، فمن منّا يعرف جماعة عزّام؟ من هم جماعة عزّام؟ أليسوا بيننا في القرية؟ أليسوا فلّاحين مثلنا؟ أليسوا فلّاحين مسحوقين من القرى الأخرى يطلبون الحياة؟ إنهم يشبهونكم، يلبسون مثلكم، مصبوغين بطين الأرض وبفضلات الدّواب... إنهم يشبهون جليلة، يطلبوُن حقّ جليلة، يلبّون صرخات جليلة، إن جليلة التي اغتصبت وقتلت تطلب ثأرها، إنها تطلب شرفها، إنها تطلب شرفكم الذي ضاع طوال سنين، ألن تلبّوا صرخاتها؟».

صرخ يامن وسط الجـُند: «يا لثارات جليلة!»، ردّد الجند مثل قوله. استأنف آصف:

«إن جماعة عزّام الآن بينكم، يطالبون معكم بثارات جليلة... لم تتعرّفوا عليهم لأنهم يشبهونكم، فعدوّنا واحد... إننا نطلب الموت لمن يطلب لنا الموت، وللذين يريدون الموت لمن أراد لنا الحياة، وإن جماعة عزّام يريدون الموت لمجلس السّادة وكذلك نحن».

انحنَى آصف وحمل سلاحًا آليًّا وأخذ يلوّح به للجند ويقول: «إنني سأتقدّم صفوفكم، سنذهب إلى الهضبة ونقتُل كلّ من لا يشبهوننا، سننقذ غريب، وسنلبّي صرخات جليلة!».

تقدّم آصف الفلّاحين وانطلقوا يهرولون نحو الهضبة وأخذ آصف يردّد «أنقذوا غريب!»، «يا لثارات جليلة!» والجُند وراءه يردّدون بالمثل. شرحبيل وجَد في صرخات آصف والفلّاحين إشارة كافية للتحرّك، فأرسل إلى الشّيخ عزّام بأن آن الأوان للتحرّك نحو الهضبة؛ فخرجوا من الأحراش متوجّهين نحو الهضبة، وأرسلوا إلى الجبهتين الشّرقية والشّمالية بأن يلتحموا مع الدّرك هناك.

عندما وصلت قوّة الفلّاحين إلى الطريق المؤدي صعودًا نحو الهضبة سمعوا دويّ إطلاق نار داخل الهضبة. فاجأ ذلك آصف وأدرك أن شيئًا لم يكن في الحسبان حدث أثناء المحاكمة، ولكنّه وجد أنّ يستخدم الأمر ليحفّز الفلّاحين الذين شعروا برهبة الهضبة حينما اقتربوا منها؛ فصرخ فيهم:«لقد قُتل غريب!»، جُنّ جُنون الفلّاحين وأخذت صرخاتهم تتعالى وأخذت أقدامهم تتسابق نحو الهضبة، اشتبك آصف والفلّاحون مع أربعة من الدّرك يحرسون أبواب الهضبة. خلال ذلك كانت جماعة عزّام قد لحقت بقوّة الفلّاحين والتحموا بهم، فقضوا على الحرّاس سريعًا. صرخ آصف بهم عند دخولهم الهضبة: «اقتلوا كلّ من لا يشبهونكم!».

(5)

اختبأ السيّد غسّان تحت أحد المقاعد حينما سقط أمامه دركيّان من القائمين على حمايته وحماية السيّد رشيد، أصيب بالرّعب عندما وجد عيني السيّد نديم تحدّقان إليه وقد فقدتا الحياة، أما السيّد رشيد فقد أحاطه السيّد شدّاد ومجموعة من الدّرك وأخذوا يتبادلون إطلاق النّار مع المعارضين الذين اندسّوا بين الجموع؛ فكانت مجموعة الدّرك تطلق النّار عشوائيًّا على الجموع لأنهم لم يستطيعوا تحديد الأشخاص الذين يطلقون النّار، فسادت حالة من الهلع وسقطت نساءٌ قتلى وأطفالٌ وشيوخ. كان السيّد غسّان يعتقد أن جماعة عزّام اقتحموا الهضبة، ولكنّه تبيّن بين أصوات الأعيرة النّارية عبارات لأصوات قد ألفها تقول: «اقتلوا ابن الشّريف!»، «أقتلوا أولاد الشّريف!»، «اقتلوا اللّصوص!»، عند سماعه لتلك العبارات أيقن أنه تحرّك من داخل الهضبة، فأخذ يزحف متخطّيًا الجُثث يحاول أن يبتعد عن السّاحة حتّى يصل إلى الدّرك شرق الهضبة فيأمرهم بالانسحاب إلى داخل الهضبة،

ولكنّه قبل أن يبتعد عن السّاحة سمع عبارات أخرى اختلطت مع أزيز الرّصاص تقول: «اقتلوا كلّ من لا يشبهونكم!»، «لقد وصلت جماعة عزّام!»، فرفع رأسه ونظر إلى طرف السّاحة فرأى فلّاح الطّاحونة وخلفه جمهُور من الفلّاحين يحملون السّلاح ويطلقون النّار على الدّرك والمعارضة معًا، فوجد في ذلك فرصةً لا تُفوّت، فنهض وأطلق قدميه للرّيح محاولًا الوصول إلى الدّرك أسفل الهضبة، وقبل أن يتجاوز تمثال الشّريف سليم أصابه عيار ناريّ في رأسه فخرّ صريعًا تحت قدمي التمثال.

نرجس لم تستطع أن تتبين مكان غريب وسط الهرج القائم؛ فجنود الدّرك الذين كانوا يلتفّون حول غريب والشهود هرعوا لحماية السيّد رشيد، والفلّاحون الشّهود منهم من قُتل ومنهم من نجا هاربًا نحو بيوت السّادة، كانت نرجس تتمنّى أن يكون غريب أحد الذين هربوا، فأخذت تلقي بنفسها بين المتقاتلين وبين زخّات الرّصاص تُقلّب الجُثث وتبكي، حتّى وجدت غريب ملقًى بين الجثث مصابًا بعيارٍ ناري. لقد أطلق عليه أحد الدّرك النّار فور انفلات الأمور.

(6)

أثناء الهجوم كانت قوّة الفلّاحين وجماعة عزّام تخضعان لقيادة آصف، فلم يكن الشيخ عزّام على رأس جماعته خلال الهجوم، وإنما فضّل التواري عن الأنظار إلى أن تنجلي المعركة. أخذ آصف ومن معه يتبادلون إطلاق النّار مع جماعة من الدّرك المحيطين بالسّيد رشيد، وكانوا يتقدّمون خطوَة مع كلّ دركي يسقط، حتّى لفته رجلٌ أطلّ برأسه من تحت أحد المقاعد، فنظر إليه فالتقت عيناه به فعرفه، ثم التفت الرّجل وأطلق قدميه محاولًا الابتعاد عن ساحة المعركة، فصوّب آصف بندقيته إلى ظهره وأطلق النار، ولكنّ العيار أخطأ مكانه وأصاب رأسه، فسقط الرّجل، وذاك كان غسّان.

سقط الدّرك المحيطُون بالسيّد رشيد سريعًا، وسقط السيّد رشيد والسيّد شدّاد في أيدي المقاتلين أحياء. سادت حالة من الهدوء ساحة المعركة، وخلت إلّا من أنات لبعض المصابين الذين لم تنل منهم الرّصاصات، وروائح الدّم النّفاذة. أخذ آصف يأخذ طريقه بين الجثث، يقف عندها ويتفحّص كُلّ جثّة منها، بحثًا عن وجهٍ يألفه، ويتمنّى ألا يجده هنا.

قبل هذه اللحظة لم يكن آصف سعيدًا، ولم يكن حزينًا أيضًا، بل كان مشوّشًا لا يفكّر بالحزن والسّعادة، فالإنسان حينما يقتل إنسانًا آخر يتجرّد من كلّ المشاعر الإنسانية وتسيطر عليه غريزة البقاء، فيعود الإنسان بذلك إلى أكثر صوره بدائيةً، فمهما يدّعي البشر الحضَارة فيزرعون ويصنعون إلا أنهم حين يحملون السّلاح يتحوّلون إلى حيوانات تحكمها أعراف

الغاب، فتذوب كلّ السّنين التي كانت تفصل بين رجل الحجارة البدائي ورجل السّلاح الآليّ، فيستوون في كلّ شيء.

بعد انجلاء المعركة، كانت أُولى مظاهر الإنسانية التي حضرت لآصف هي صداقته لغريب، فأخذ يبحث عنه بين الجثث، إلى أن لفتته امرأة تنحني وتنتحب على إحدى الجثث، ثم رفعت رأسها تستنجد بالمـُحيطين وتطلب المساعدة، نهرها أحد رجال عزّام وحاول جرّها إلى مكانٍ ما، اقترب آصف منها فكانت نرجس. نهر آصف بدوره رجُل عزّام وضربه بمؤخرّة سلاحه فَألقاه أرضًا. كانت نظرات نرجس لآصف لا يمكن تفسيرها، لقد كانت نظرات مُعجزة، يجتمع فيها الضّعف والحزن والغضب والعتاب والخوف، لم تتفوّه بكلمة وعادت تنظر إلى غريب وتنتحب. كانت الحياة لم تفارق غريب بعد، صدره يعلو ويهبط وفمه مفتوح وعيناه تتقلّب في الفراغ، أصاب العيار النّاري صدره مباشرةً، فكانت نرجس تُغطّي جرحه بكفّها. اقترب منه آصف، فأشار إليه غريب بأن يقترب أكثر، شعر آصف وقتها أنه لازال مراهقًا ينظر إلى صديقه المقرّب، فتلاشت في تلك اللحظة السنين والأحداث الفاصلة. اقترب آصف منه وأسند رأسه إلى كفّه، دون أن يدري انزلقت الدّموع من عينيه وقال: «سامحني... لقد حاولت...»، ابتسم غريب ابتسامة متعبة وأخذ يتمتم بكلمات لم يسمعها آصف، اقترب منه أكثر، أوصاه غريب بنرجس بالرّغم من كل ما حصل، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وجزء من جسده في حجر نرجس ورأسه في كف آصف.

على مسافة منهما كان ضرغام ينتحب أيضًا فوق جثّة الشّيخ يوسف الذي وجده على كرسيّ في طرف السّاحة وقد فقد الحياة، لم يكن في جسده أي أثر لأعيرة ناريّة، فقد كان يبدو أن روحه انسحبت من جسده معترضةً على ما حصل في القرية.

الفصل السّادس عشر

عادت البئر القديمة!

(1)

وقع رشيد وشدّاد في قبضة الفلّاحين وجماعة عزّام، وعمت الفوضى السّاعات التي تلت المعركة. أخذت جماعة عزّام السيّد شدّاد، فقد كانت لديهم أوامر واضحة بأن يبقى حيًّا، فأُخذ وأودع في حظيرة الخيول في قصر رشيد، أما السيد رشيد فما إن وقع في قبضة الفلّاحين حتّى أخذوا يوبخونه ويصفعونه أينما اتفق، على وجهه أو على صلعته أو على قفاه، أمعنوا في إهانته وإذلاله؛ حتّى إنّ فلّاحًا منهم التقط سوطًا كان يحمله أحد الدّرك القتلى وأخذ يجلده على ظهره وفخذيه، أما هو فكان يئن ويبكي ويتوسّل الفلّاحين ويطلب العفو، ومازاد ذلك الفلّاحين إلّا إمعانًا في ذلّه وإهانته حتّى أفقدوه الوعي، فتلقّفته بعدها جماعة عزّام، انتظروا حتّى أفاق ثم أتى أحدهم بسكّين طويلة مخصّصة لذبح البهائم، فقيّدوا يديه إلى ظهره وأجلسوه على ركبتيه ثم حزّوا عنقه أمام جمهور من الفلّاحين والجماعة، امتعض البعض، وصفّق البعض الآخر، ولكنّ أحدًا لم يملك الجرأة ليعترض. علّقوه ساعةً على المشنقة وأخذ أطفال الفلّاحين يرشقونه بالحجارة، ثمّ أنزلوه وربطوه إلى إحدى الدّواب وأخذوا يطوفون به في أزقّة القرية، حتّى وصلوا به إلى السّوق، مرّوا من أمام دكّان الإسكافي العجوز، كان في يده حذاءٌ يعالجه، نظر إليه الإسكافي نظرةً آلية خالية من كلّ شيء، لا عجب فيها ولا فرح ولا حزن، ثم عاد ببصره إلى حذائه كأن شيئًا لم يحدث.

بعد أن غطّى الذّباب وجه جثّة رشيد وبعد أن تمزّق رداءه الثّمين فوق أراضي القرية وبعد أن تحوّلت جثّته إلى قطعة لحم زرقاء متعفّنة، قرّر الفلّاحون وجماعة عزّام أن يعفوا عنه أخيرًا، فربطوه إلى دابّة وجرّوه إلى المشارف الغربية للهضبة ثم ألقوا به من هناك نحو الوادي الذي تتمركز فيه قوّة الدّرك التي كانت لاتزال في حالة اشتباك مع جماعة عزّام. خلال ذلك كان جماعةٌ من الفلّاحين يمسكون بالمعاول ويطيحون بتمثال الشّريف سليم، وآخرون اتّجهوا نحو بيوت السّادة التي كانت خاليةً إلا من النساء والأطفال وكبار السّن، فالذين نجوا من المعركة من رجال السّادة فرّوا نحو قوّات الدّرك على الجبهتين الشرقيّة والشّمالية، منهم من استطاع أن يصطحب عائلته معه ومنهم من لم يستطع. نهب الفلّاحون كل ما كان في تلك البيوت من تحف وأموال وقطع نفيسة، واغتصبت عددٌ من نساء السّادة،

وفعل نفرٌ من جماعة عزّام الفعل نفسه في هضبة السّادة وحاولوا أن يفعلوا ذلك في منطقة الفلّاحين، مما أدّى إلى نشوب مواجهات خفيفة لم تتجاوز التراشق بالكلمات والاشتباك بالأيدي بين بعض الفلّاحين وبعض جماعة عزّام الآتين من خارج القرية، إلا أن شرحبيل قام بالسّيطرة على تلك الخلافات سريعًا. ولم تكن في تلك السّاعات قيادة واضحة تضبط أفعال الفلّاحين والجماعة، فالشّيخ عزّام كان لايزال خارج القرية ينتظر استتباب الأمور، وآصف كان منشغلٌ بمعالجة جثّة صديقه غريب تحضيرًا لدفنه.

ضرغام كان ينظر إلى أفعال جماعة عزّام بعد سقوط الهضبة وعيناه تقدحان شررًا، فهو لم يكن يريد أن يتوجّه برفقة الفلّاحين للهجوم على هضبة السّادة، ولكنّه ما كان ليستطيع أن يوقف طوفان الفلّاحين المندفع وبرفقتهم جماعة عزّام، ففكّر بأن يبقى وبعض المريدين الذين أتوا معه مكانهم إلا أنّه تذكّر أنّ الشّيخ يوسف حاضرٌ في المحاكمة المقامة هناك، فذهب برفقتهم ليقف على سلامته، ولكنّ أمله قد خاب، فقام وبعض المريدين معه بتجهيز جثّة الشيخ يوسف للدّفن، ولكنّ الشيخ يوسف كان قد أوصى بأن يدفن في زاويته شمال القرية، وزاويته الآن يتمركز عندها قوّات الدّرك، وجماعة عزّام يطوّقون الهضبة، فآثر أن يراقب تطوّر الأحداث على مضض، منتظرًا أن تسمح الأوضاع بأن ينقل جثّة الشيخ يوسف إلى زاويته أسفل الهضبة.

(2)

بعد أن تأكد سُقوط الهضبة للشّيخ عزّام أمر قوّاته على الجبهتين الشرقية والشّماليّة بالانسحاب والتّمركز داخل القرية، فزادوا من حالة الفوضى، إلا أن استقبال أهالي القرية من الفلّاحين لهم كان فيه الكثير من الحفاوة والتّرحاب، فأعدّت الولائم وذبحت المواشي وأخذ الفلّاحون يجهّزون ساحةً كبيرةً في سوق القرية استعدادًا لإقامة حدث كبير ترحيبًا بالقادمين واحتفالًا بنصر الفلّاحين، وقام على هذا الأمر يامن مساعد آصف، الذي كان له في ذاك الوقت أكبر سلطة على الفلّاحين، وقام بالتّنسيق مع شرحبيل المسؤول عن جماعة عزّام داخل القرية لضبط الأمور وتنظيمها وإنهاء حالة الفوضى والسّرقة والنّهب، فأمر يامن معظم قوّة الفلّاحين بالتّمركز على الجبهتين الشّرقية والجنوبية للهضبة لصدّ أي هجوم محتمل للدّرك، ووزّع البقيّة لضبط الأمن داخل الهضبة والبعض الآخر لضبط الأمن داخل القرية وتركت الجبهة الغربيّة جهة البئر القديمة خالية من قوّات الفلّاحين، أما شرحبيل فقد وزّع جماعته على الجبهة الشّمالية والشّرقيّة للهضبة، وترك البعض منهم داخل الهضبة، ووزّع مجموعات صغيرة في نقاط حول القرية من جهة الحقول للكشف عن أي محاولة للدّرك لاقتحام القرية من جهة الحقول ومنطقة الفلّاحين، وأمر قوّة بالتّمركز جهة البئر القديمة لتأمين دخول الشّيخ عزّام للقرية. بالإضافة إلى أنه أرسل قوّة تغلق الطّرق المؤدية

للمدينة من القرى المجاورة، والتي كانت تذهب منها المحاصيل إلى المدينة وتجيء منها البضائع إلى القرى.

أما عن الغنائم فقد كان الفلّاحون يتصرّفون في هذا الأمر فرادى، فكان كل شخص يظفر بغنيمة يحتفظ بها، أما جماعة عزّام فلم تكن تتصرّف بهذا النّمط، فقد جمعوا الغنائم كلّها في بيت السيّد رشيد وطوّقوه بحراسة مشدّدة، وقاموا بأسر نساء السّادة وأطفالهم وجمعوهم في بيت السيّد نديم وطوّقوه أيضًا بحراسة مشدّدة على اعتبار أنهم غنائم أيضًا، وانتظروا وصول الشّيخ عزّام حتّى يقوم على أمر توزيعها بين المقاتلين. نظر يامن إلى هذا الأمر بكثير من التحفّظ ولكنّه لم يجد في نفسه الشّجاعة لحسم أمر كهذا، ولم يكن ليتحمّل مسؤولية نزاع ينشب بين الفلّاحين وجماعة عزّام، فترك هذا الأمر ليحسمه آصف حين يعود.

(3)

حمل آصف جثّة غريب وتوجّه بها إلى منزله في الهضبة ترافقه نرجس، كانت نرجس تريد أن تسأل آصف ألف سؤال عن ما حصل، ولكنّ الحزن والدّموع لم يتّسعا. آصف حاول أن يظهر قويًا ومتماسكًا ولكنّ الدموع رغمًا عنه كانت تنحدر من عينيه دون نحيب، أما نرجس فقد كانت تنتحب طوال الطّريق، حتّى إنها تعثّرت أكثر من مرّة قبل الوصول إلى المنزل وكان آصف يمدّ يده إليها ويساعدها لتقف، دون حديث. بعد أن وصل إلى البيت نظّف جثّة غريب بمساعدة نرجس وأعدّوه للدّفن، غطّى آصف وجهه ونقله إلى حجرةٍ قصيّة وأقفل بابها بعد أن ودعه هو ونرجس، ولم تتوقّف الدموع خلال ذلك. لم يستطع بعدها الجلوس، وإنما انسحب خارجًا من المنزل واتخذ زاوية في الحديقة، وبمجرّد أن جلس انفجر بالبكاء وأخذ ينتحب ويصرخ، لم يكن يدري إن كان بكاؤه لأجل غريب أو لأجل قتلى الطّاحونة أو لأجل القتلى الذين سقطوا اليوم أو النّساء اللاتي اغتصبن والأرامل والأطفال الذين يُتّموا. خطرت على باله لحظتها فكرة: «قتلوا من أجل الفلّاحين»، لم يستطع التّعاطي معها وما كانت لتجدي في تلك اللّحظة، ولكنّه كان يعلم أن تلك الفكرة هي أمله الوحيد للنّجاة ولإكمال الطّريق الذي بدأه، فترك تلك اللّحظة للحزن وخبّأ فكرته إلى وقت آخر.

أمضى ساعة أو أكثر وهو ينتحب على هذه الحالة، تذكّر كلّ شيء وقتها، تذكّر أباه وتذكّر أمه وزوجها تذكّر رحلته للمدينة، كلّ شيء كان سببًا فيما أصبح اليوم عليه، كان يستحضر تلك الأشياء عمدًا ليُسقط عليها الدّموع فتطفئها، وتطفئ نيران صدره. بعد أن انتهى منها قام من مقامه وكفكف دموعه، وخرج من حديقة المنزل، صادفه أحد أفراد قوّة الفلّاحين

الذين يطوفون في شوارع الهضبة، آمره بأن يأتي بآخرين من القوّة ويقومون على حراسة المنزل، ثم اتّخذ طريقه للسّاحة وقد عادت له فكرته: «اقُتلوا من أجل الفلّاحين!».

لم يعد آصف يهتمّ بمظهره كثيرًا منذ أن عزله غريب عن منصبه ككبير للفلّاحين، فلم يبدّل منذ ذاك الحين ثوبه الذي كان قد اتّسخ وتهرّأ وبدأت تظهر فيه بعض الثقوب، وأضاف له اليوم بعض بقع الدّماء التي تحوّلت إلى اللون القرمزي بعد أن جفّت، أما قوامه النّحيف فقد زاد نحافة، وأصبح يناسب أكثر أنفه المدبّب المعقوف. لحيته استطالت وأصبحت تشبه لحى جماعة عزّام، وشاربه غطّى شفتيه الدّقيقتين. عندما وصل إلى ساحة الشّريف سليم، كان الفلّاحون قد انتهوا من تحطيم التمثال القابع وسطها، وكانت لاتزال الجُثث على حالها، أمرهم آصف بنقل كل الجثث من السّاحة وإعدادها للدفن، وأخذ يتحرّى أماكن حطام تمثال الشّريف سليم ويخطو فوقها، شعر برعشة سرت في جسده وقوّة لا مثيل لها. ترك الهضبة وتوجّه نزولًا نحو بيوت الفلّاحين، لاحظ تحضيرات الحفل وسط السّوق، هرع إليه يامن عندما رآه وكأن حملًا ثقيلًا أزيح عن ظهره، أخبره بكلّ ما كان من حالة الفوضى التي عمّت وما كان من أمر جماعة عزّام وأسرهم للنّساء والأطفال. هزّ آصف رأسه وأمره أن يبقي على قوّات الفلّاحين حيث هي، وقال له إنه سيكون له خطابٌ بالفلّاحين قبل بدء الحفل. تركه وتعمّد المرُور من أمام حانة السيّد سيمون، كانت جماعة عزّام قد أحرقتها، وقتلوا من فيها من البغايا والشّاربين، أمّا السيّد سيمون فكان قد غادر القرية قبل اندلاع الأحداث، تفكّر آصف قليلًا في أمر السيّد سيمون، كيف أنّه علم بالأحداث فغادر القرية قبل وقوعها، بينما لم يستطع وليّ الله يوسف أن يتنبأ بالأحداث فقُتل!

توجّه نحو منزل أمه، مرّ بمكان الطّاحونة، كان الفلّاحون قد أزالوا أنقاضها وبدا الأمر كأنها لم توجد منذ الأزل. دخل المنزل فاطمئن على أمه وزوجها وإخوته، ثم ذهب فاغتسل. نظر إلى المرآة بعد أن انتهى، أخذ يفكّر بشكلٍ مناسب يظهر به أمام الفلّاحين، هل يهذّب لحيته أو يتركها على حالها، أم يحلق اللّحية ويتّخذ شاربًا معقوفًا كما كان يفعل السّادة، أم يجمع بين الاثنين معًا، فكّر كثيرًا ثم تناول قطعة معدنيّة أشبه بسكّين معقوفة، وقرّر أن يتخلّص من الشارب واللّحية معًا. بعد أن تخلّص منهما أخذ من زوج أمّه ثوبًا نظيفًا لونه أقرب للون الطّين، ولفّ عمامة بيضاء حول رأسه باحكام، ليبدأ بذلك مظهرًا جديدًا وعهدًا جديدًا.

«أيّها السّادة الفلّاحون... ولست مُخطئًا بنعتكم بالسّادة، فلا أسيادَ إلا أسيادُ الأرض، حُرّاثها وزُرّاعِها وحُصّادِها... إنّنا اليوم نقف على أعتاب عهدٍ جديد حيث لا أشراف ولا عبيد ولا قصور ولا أكواخ ولا هضبة ولا حقول، فالقرية كلّها واحدة، قصر رشيد كمنزل أضعف فلّاح فيكم، وساحة سليم كساحة السّوق... وإني أعلن أن هذه هي المرّة الأخيرة التي أدعو تلك السّاحة ساحة سليم، فمن الآن سيكون اسمها ساحة السيد غريب، الرّجل الذي يجب أن نخلّد ذكراه في قلوبنا، وعلى أرضنا للأجيال القادمة.

أيّها السّادة الفلّاحون... إن الواقف اليوم أمامكم، ما هو بسيّد، وما هو بشريف، وإنما هو فلاحٌ تربّى بينكم، حرث الأرض وحصدها، ربط الدّواب وأطعمها، اتّسخ ثوبه بطين الأرض وبفضلاتها... شارككم أحلامكم وأحزانكم، تمنّى مثلكم عودة البئر القديمة، ولعن معكم شائيل ولعنته... غضب لموت جليلة وطالب بثأرها... مثلكم... وها أنا اليوم أعود وأعلن أن عهد لعنة شائيل قد ولّى، وعهد الظّلم والطغيان ولّى، وإنّا لآخذون بثأر جليلة!».

طارت عقول الفلّاحين، صفّقوا وهلّلوا، أثنوا عليه بما لم يقولوه في البئر القديمة، صرخت الحناجر بكلمات جديدة لم يكونوا قد عهدوها، صرخوا فقالوا: «يعيش القائد»، «يحيا القائد». حنى آصف رأسه تواضعًا، ثم ناوله أحد الحضور منديلًا فجفّف عرقه ثم استأنف:

«أيّها السّادة... إن الواقف اليوم أمامكم ما هو إلا خادمكم... فأنا لست طامعًا لا في سلطةٍ ولا في جاه، فأنا لا أريد القصور والزروع... كلّ ما أريده هو أمان هذه القرية وازدهارها، أنا هنا ليعيش الفلّاحون سادةً في أراضيهم، وأسيادًا بين القرى الأخرى... فمنذ اليوم... أرضنا لنا... ومحاصيلنا لنا... إن أردنا أكلناها وإن أردنا أتلفناها وألقينا بها للدّواب، وإن أردنا بعناها لمن نشاء دون شروط من أحد، ودون قيودٍ من تجّار المدينة.

أخيرًا، أودّ أن أشيد بدور جماعة الشّيخ عزّام فيما حصَل اليوم، وأبعث بتحيتي إلى الشّيخ عزّام الذي لم تتشرف به القرية بعد... وأؤكد على أنّ معركتنا مع الطّغيان والظّلم لم تنتهِ، وأؤكد على ضرورة تعاوننا الكامل لصد أي هجوم محتمل على جبهات القرية المختلفة، فلازال جند الطّغيان المهزوم يتربّص بنا أسفل الهضبة، فهم سيحاولون العودة عاجلًا أم آجلًا، ولكنّهم سيجدوننا لهم بالمرصاد».

ختم آصف خطبته بهذا، وانطلقت الهتافات وتسابق الفلّاحون على مصافحته وأكدوا على دعمهم الكامل له، حتّى إنه لم يستطع أن يتّخذ طريقه بين حشد الفلّاحين، فأتى يامن برفقة بعض الجند حتّى أوصلوه إلى مقعده وطوّقوه ليتأكدوا أن أحدًا من الفلّاحين لن يصل إليه.

(4)

في اليوم التّالي مع أولى ساعات الصّباح، فاضت البئر القديمة، انسابت منها المياه لتغطّي مساحات واسعة من الأراضي التي تغطّيها الحشائش حولها، فرح الفلّاحون وهلّلوا، قالوا إن عودة البئر القديمة تعني أن لعنة شائيل قد زالت عن القرية أخيرًا، ووجدوا في هذا تأكيدًا على ما قاله آصف في خطابه الأخير، فأعادوا كلّ الفضل إليه مما رفع من مكانته بينهم، فصار القائد آصف حديث الفلّاحين كبارهم وصغارهم، وخرجت أقاويل في القرية يرويها

كبار السن، عن نبوءات تتحدّث أن عودة البئر القديمة ستترافق مع قائد ينهي معاناة الأهالي وتزدهر القرية في عهده، وكان هو آصف القائد والـمُخلّص والمـُنتظر.

كان مذاق مياه البئر القديمة مرًّا، والمياه عكرة، ولكنّ الفلّاحين قبلوا بالأمر وقالوا إن المياه ستعود عذبةً كما كانت بمرور الوقت.

الفصل السّابع عشر

لعنة شائيل بعينها!

(1)

في ظهر اليوم الذي عادت فيه البئر القديمة، كان عزّام على رأس موكبٍ يستعدّ لدخول القرية، خرجَت الجماعة لاستقباله برفقة نسائهم وأطفالهم، وفعل بعض الفلّاحين الفعل نفسه، وتساءل الكثيرون من الذين كانوا يعتقدون في الصّباح أن آصف هو المخلّص، هل يكونُ المخلّص آصفَ أم يكون عزّامًا؟ تركوا الأمر لأهوائهم لتحكم فيه، فالذين يحبّون آصف قالوا إنه هو، والذين يحبّون عزّامًا قالوا إنه هو، وبهذا جادت الأقدار على القرية بمخلّصين بدلًا من واحد. دخل عزّام القرية وسط حراسة مشدّدة، فاستقبله أهالي القرية بصمتٍ يشوبه الكثير من الحذر، كان يجلس في عربة مغطّاة من جهاتها الأربع فلم يرَ النّاس وجهه ولم يخرج للنّاس ليحيّيهم، انطلقت عربته مرورًا بالقرية، وصل إلى سوقها، كان الإسكافي العجوز على حاله يعالج حذاءً، رفع رأسه ونظر إلى العربة، فأخذته دهشة.

وصلت عربة عزّام إلى هضبة السّادة، دار سائق العربة بها حول الهضبة، ثم عبر من ساحة السيّد غريب، حتّى استقرّ به أمام قصر رشيد شمال الهضبة.

شهِد ذلك اليوم أيضًا عودة الكثير من المطرودين والمبعدين والمنفيين من القرية، فأخذ السكان يستقبلون وفودًا من الفلّاحين وآخرين من السّادة الذين طردهم مجلس الأشراف سابقًا، وكان أغلبهم آتين من المدينة، فصاروا يهنّئون النّاس ويشيدون بأفعال قائدهم الهمام آصف، وصاروا أثناء حديثهم يأتون بكلمات مألوفة في سياق غريب، ككلمة «ثورة»، وكلمة «استقلال» وكلمة «تحرّر»، فهذه الكلمات كان النّاس يعرفون معانيها في سياق مثل: «ثورة الدّابّة»، «استقلال العربة»، «تحرّر الحمار من مربطه»، ولكنّ وقع هذه الكلمات حين ارتبط بالأحداث كان غريبًا جدًّا، فكان الآتون من المدينة يقولون: «آصف قائد الثّورة»، و«تحرّر الفلّاحين» و«استقلال القرية»، وبسرعة بديهة الفلّاحين استطاعوا أن يصلوا إلى المقصود من التّشبيه، فأصبحت تلك الاصطلاحات معروفة ودارجة بينهم.

كان من ضمن أولئك العائدين السيّد نائل، الذي ترك كل شيء في المدينة وعاد إلى القرية ليقف على ما حصل فيها، فكانت عودته تشفّيًا في السّادة ومجلس الأشراف أكثر منها رغبةً

في رؤية القرية والفلّاحين، فآصرّ على أن يدخل إلى منطقة السّادة ويرى بأم عينه تمثال الشّريف سليم المحطّم، ويرى جثّة نديم وشدّاد بنفسه، فقد كادوا له في الماضي واقتلعوه من أرضه وطردوه من القرية، وبعد أن رآهم وتأكد له سقوطهم، لم يستطع مغادرة القرية فحسب، بل أضمر في نفسه البقاء هناك ومحاولة استعادة أراضيه المسلوبة، وراهن في ذلك على الفوضى الحاصلة، والتي ستحصل.

في ذلك اليوم أيضًا، وبعد وصول عزّام إلى القرية بقليل، أقام آصف جنازة مهيبة للسيّد غريب ومن قُتل من الفلّاحين، حضر فيها جميع من كان في القرية من فلّاحين مع أطفالهم ونسائهم، ولعلّ اختيار آصف لموعد الجنازة لم يكن خاليًا من غاية في نفسه، أن تتلو الجنازة دخول الشّيخ عزّام إلى القرية كان فيه شيء من خطف الأضواء المسلّطة على دخول الشّيخ وحضوره، ويؤكّد بذلك حضورًا أقوى في أذهان الفلّاحين للسيّد غريب كرمز ومثلٍ أعلى، ويخلق بذلك كيانية مستقلّة للفلّاحين قادرةً على مواجهة الاستقطاب الكبير الذي ستقوم به جماعة عزّام في القرية. حضرت الجنازة نرجس التي كانت هي الوحيدة النّاجية من نساء السّادة من أسر جماعة عزّام. خرجت حاسرةً رأسها مرتدية ثوبًا أسودَ، وقد بدت عيناها الواسعتان أضيق مما كانتا وقد أحاطت بهما هالات الحزن، وبرزت وجنتاها اللتان كانتا في السابق تتورّدان تحت حرّ الشّمس. لم تكن تبكي في الجنازة، فقد كان يبدو أنها أخذت نصيبًا كافيًا من الحزن قبلها. لم تستطع الجنازة أن تتجه نحو مقبرة القرية الواقعة خلف زاوية الشّيخ يوسف شمالًا، فقد كانت قوّات الدّرك متمركزةً هناك؛ ولهذا قام آصف بتخصيص أرضٍ جنوب القرية بعد الحقول كمقبرة جديدةٍ للفلّاحين، ليبدأ بذلك عهدًا جديدًا للموتى أيضًا.

لم يعد جماعة عزّام يرتدون ثيابًا كتلك التي يرتديها الفلّاحون، ففي اليوم الذي وصل فيه الشيّخ عزّام إلى القرية اتّخذت جماعته أثوابًا سوداء فاحمة، وذَوو الشأن منهم اتّخذوا معها عباءة سوداء ولفّوا رؤوسهم بعمامات سوداء، أما الفلّاحون فقد اقتدوا في ذلك بآصف، فلبسوا أثوابًا بلون طين الأرض ولفّوا عمامات بيضاء على رؤوسهم، ولكنّ أمر اللحية والشارب لم يلقِ الكثير له بالًا سوى أولئك المهووسين بالقائد آصف؛ فعندما تجوب شوارع القرية أو هضبتها تجد أنه من اليسير جدًّا أن تميّز الفلّاحين عن جماعة عزّام، ستجد أسرابًا سوداء وأسرابًا حمراء قاتمة، وقلّما يجتمع النّوعان في سرب واحد، أما النّساء والأطفال فلم يكن من اليسير تمييزهم.

آصف، حاله كحال كل الفلّاحين، كان أيضًا ينظر إلى جماعة عزّام بكثير من الرّيبة والحذر، لا سيّما بعد وصول الشّيخ عزّام إلى القرية واتّخاذه قصر رشيد مركزًا له، فكان يسري بين الفلّاحين أن قصر رشيد صار اسمه قصر الشّريعة، والسّاحة التي أسماها آصف ساحة السيّد غريب صار اسمها ساحة الوَعد، وأن القرية كلّها صار اسمها قرية الصّابرين، ووصلت آصف أخبارٌ عن أنّ جماعة عزّام يقومون بتجهيز منزل السيّد شدّاد كدارٍ للعبادة ومركزٍ لتسيير شؤون القرية، خلاف ذلك، قام عددٌ من الجماعة بالتّوجّه إلى الأضرحة التي تقع على

أطراف القرية يحملون المعاول وبدؤوا بهدمها، في حين أن الكثير من الفلّاحين كانوا يعتقدون بشكلٍ ما أن تلك الأماكن أماكن مقدّسة، ولكنهم ما كانوا ليثوروا بسببها. كما أن الجماعة قاموا بشراء أكثر من منزلٍ متفرّق بين الفلّاحين واتّخذوها دور عبادةٍ أيضًا، ليستعيضوا بذلك عن الزّوايا التي كان يتّخذها الشّيخ يوسف لذلك الغرض، وطاف نفرٌ من الجماعة القرية والهضبة يُلقون المواعظ على النّاس، كانوا يضربون أولئك الذين يدخّنون لفافات التّبغ ويوبّخونهم واستثنوا من ذلك الأفراد الحاملين للسّلاح، وأمروا النّساء العاملات في الحقول بأن يحتجبن في بيوتهن، وأن يلبسن ثيابًا فضفاضة إذا استدعى الأمر خروجهن من المنازل، ويا حبذا لو يغطّين وجوههن وكلّ ما ظهر منهن، ثمّ انطلقوا إلى الرّجال يخبروهم عن سبب هدم الأضرحة والزّوايا، فكانوا يقولون لهم إن أصحاب الأضرحة أولئك بشرٌ كما هو حالكم، يخطئون ويصيبون، جاههم عند الله كجاهكم، فقالوا لهم بعدم جواز التبرّك بهم أو التوسّل بأسمائهم، وقالوا لهم إن ذلك كفر محض يقتضي القتل، ولكنّ الفلّاحين الذين كانوا مدجّجين بالسّلاح لم يلقوا بالًا لنصيحة يكون عاقبة عدم الأخذ بها القتل حتّى وإن كانت هي الحق؛ فقد كان الفلّاحون يدركُون أن الإله واحد، ولم تكن جماعة عزّام نبيًّا.

كما قلنا، كان آصف ينظر لتطوّر الأحداث بريبة شديدة، ويخشى أن يقدم على أي فعلٍ قبل أن تتّضح له كامل الصّورة، وقبل أن يرسم أشكالًا جديدةً، ويمدّ بينها خطوطًا جديدة؛ فقد كان المحيطون به يستعجلونه بفعلٍ ما، أن يذهب للقاء عزّام ويضع الأمور في نصابها، أن يطالب عزّام باعتاق نساء السّادة وأطفالهم؛ فقد قتلوا من تبقّى من رجالهم، ولا ذنب للأطفال والنّساء. ولكنّ آصف قبل أي لقاء مع عزّام، كان ينتظر حدثًا ما ليكون أساسًا لأي لقاء، فاستأذن منهم، واتّخذ مكانًا تحت إحدى الأشجار، وتناول عودًا يابسًا، وأخذ يرسم أشكالًا جديدة، ويمد خطوطًا جديدة، ولكنّه ترك خطًا واحدًا مفتوحًا، ذاك الخطّ الذي قُتل فيه غريب، والذي أعاد إليه كنان ومعه اللفافة، والذي اختفى فيه كنان أخيرًا.

(2)

كان الشّيخ يوسف يحظى ببعض الاحترام لدى الفلّاحين، فهو بالرّغم من ارتباط اسمه بالهضبة وبالسّادة وبمجلس الأشراف، إلا أنه كان الوحيد في القرية الذي كان يتحدث عن الموت والحياة الأخرى، بعد موت الشّيخ نعيم، ولهذا كان الفلّاحون يلومونه ويعذرونه في الوقت نفسه، فقد كانوا يرون أنه مجبرٌ تمامًا كما كانوا هم مجبرون على العمل، وكما كان كبراء الفلّاحين مجبرون على التّعاطي مع السّادة، ولا نغفل أن كثيرًا من مريدي الشّيخ يوسف كانوا فلّاحين في الأساس، ولهذا فإن موجة الغضب التي طالت السّادة والأشراف لم ينله منها الكثير. كان في القرية من مريدي الشّيخ يوسف مع قوّة الفلّاحين وقت

اقتحام الهضبة عددٌ قليل، أمّا الباقون فقد كانوا ينتظرون الشّيخ في زاويته الكبرى شمال القرية، ولكنّهم حينما سمعوا بحادثة موته، هرعوا إلى القرية يبكون وينتحبون، ويردّدون عبارات في حبّه كان جماعة عزّام ليقطعوا رؤوسهم لو سمعوها. اجتمع بهم ضرغام يومها، قال لهم: «كلاب عزّام يحيطون بالقرية، لا نستطيع الوصول إلى الزاوية»، وبعد مشاورات قليلة اتّفقوا على أن يبقوا على جثّته في تابوت في أحد المنازل إلى أن تسمح الظّروف بنقله إلى الزاوية، وأخذوا يقيمون طقوسهم في ذاك المنزل بحذر شديد خوفًا من الجماعة.

بعد غروب شمس ذلك اليوم، كان المريدون يجتمعون في منزلٍ وقد وضعوا تابوت الشّيخ يوسف في مكان يرتفع عن الأرض بضعة أشبار، أخذ ضرغام أولًا يروي بعض مناقب الشّيخ يوسف بحزن شديد، ثم تطوّر الأمر وانحدرت الدّموع من عينيه وتحشرجت الكلمات في حلقه، ثم انفعل وقام من مقامه وانقض على تابوت الشّيخ وأخذ يتمسح به ويقبّله أينما اتفق وفعل المُريدون الذين تزاحموا على التّابوت فعله نفسه، مزّقت الأيادي المتشابكة الممتدّة نحو التابوت ثوب الشّيخ، وأخذ البعض يلطمون ويشقّون أثوابهم، حتّى علا فوق صوت صراخهم صوت طرقٍ على باب المنزل الخشبي، أخذ الصّراخ ينخفض شيئًا فشيئًا وتحوّل إلى شيء أشبه بالهمهمات وعُلقّت أبصارهم بالباب الذي كان طارقه لا زال مصرًّا على الدّخول. أمرهم ضرغام بالصّمت وبالتّفرق بين حجرات المنزل، ثم كفكف دموعه، واتّجه نحو الباب وهو يتوقّع أن يرى أمامه أحد أفراد الجماعة، فتح الباب بتمهّل، لم يرى ثوبًا أسودَ، بل رأى عمامة بيضاء يعتمرها رجل قمحيّ حليق اللحية والشارب وابتسامة تحت أنف معقوف. كان الطّارق هو آصف.

أخذ آصف يجوب بنظره الغرفة التي كان فيها التّابوت، لم يكن بها أرائك كعادة بيوت القرية، بل كانت الأرضية مغطّاة ببعض جلود الماعز والشّياه كما كان حال كلّ زوايا المريدين، لم يستطب آصف الجلوس على الأرض فوق الجلود، فبقي واقفًا وأشعل لفافة تبغ متأملًا جثّة الشّيخ التي كان تابوتها مفتوحًا، وجد ضرغام في اشعاله اللفافة تقليلًا من احترام الشّيخ الفقيد، ولأن ضرغام كان يفتقد للباقة الحديث قال لآصف: «ويحك! إن الملائكة يحفّون جثمان الشّيخ الحيّ... إن دخّانك ينفّرهم!»، لم ينظر آصف إليه واستنشق نفسًا من اللفافة وقال له: «وهل كُنتَ ملَكًا من قبل؟، الشّيخ الحيّ لا ينطق ولا يستنشق شيئًا». كانت شوكة عزّام قد كسرت بعد موت الشّيخ وبعد ما حصل في القرية، وزد إلى ذلك أنه كان يتحدّث إلى الشخص الأعلى شأنًا بين الفلّاحين، فهو بالرّغم من الوقاحة التي أبداها آصف لم يستطع أن يبادر لأي فعل عنيف، ولكنّه مع هذا شعر بكثير من الغيظ، فلم يشعر بنفسه إلا وقد انهمك في جولة أخرى من البكاء. تنازل آصف بعد ما رأى الحالة التي كان عليها ضرغام، فأسقط اللفافة أرضًا ودهسها بنعله، ثم تقدّم ناحية ضرغام وربت على كتفه وقال له: «الشّيخ يوسف ترك أثرًا لا يمكن أن تنساه القرية... إنه يحظى باحترام الفلّاحين، وباحترامي أنا أيضًا... ولهذا لا يمكن أن نتركه هكذا، دون أن يرتاح في ضريحه، وفي زاويته... سنقيم له جنازة غدًا ظهرًا»، توقّف ضرغام عن البكاء، ورفع رأسه ناحية

آصف الذي كان قد التفت مستعدًّا للرّحيل، أراد ضرغام أن يسأل، ولكنّ آصف أجابه وهو يمسك بمقبض الباب: «لا تقلق من جماعة عزّام»، ثم انصرف خارجًا من المنزل.

في اليوم التّالي، طافت مجموعة من جند الفلّاحين القرية يدعُون إلى جنازة الشّيخ يوسف والتي ستنطلق من ساحة السيّد غريب أعلى الهضبة، قالوا لهم إن الدّاعي للجنازة هو القائد آصف، وإن على كلّ الفلّاحين أن يؤدّوا واجبهم تجاه الشّيخ يوسف. تجمهر الفلّاحون في ساحة السيّد غريب، وكان في وسطهم المريدون من القرية والمريدون الذين أتوا من القرى الأخرى لتوديع الشّيخ، مما جعل حضور المريدين مميزًا وظاهرًا، فقد كان يميّزهم لباسهم المعروف، المهترئ والمرقّع، وكانوا يرفعون أعلامًا خضراء كتب عليها عبارات باللّون الأبيض. انطلقت الجنازة نحو الشمال محاولةً الوصول إلى أسفل الهضبة عند زاوية الشّيخ الكبرى، علت صرخات المريدين، واختلطت ببكاء يتخلّله المديح والتوسّل. كان على الجنازة أن تمرّ من أمام قصر رشيد سابقًا وقصر الشريعة حاليًا لتكمل طريقها نحو الزّاوية، وقبل أن تصل إلى هناك استوقف الجنازة عددٌ من جماعة عزّام.

(3)

في قصر الشّريعة، كانت عينان غائرتان تتقلّبان بين الأثاث والأسقف المرتفعة، كان هو نفسه قصر رشيد، ولكنّ هذا أصبح خاليًا من التّحف والصّور المعلّقة على الجدران، واستبدل الأثاث بشيء أكثر زهدًا ليناسب أكثر قصر الشّريعة. كان أسفل العينين الغائرتين الأنف المعقوف نفسه، والقامة الطويلة الهزيلة نفسها مع ثوب أسود وعباءة وعمامة من اللون نفسه، ولحيةً ضخمة سوداء تصل إلى صدره، يتوسّطها خطّ شيب أبيض.

كانت سنون طويلة مضت على آخر مرةٍ رأى فيها القرية. أراد سائق العربة أن يتّخذ طريقه به إلى الهضبة مباشرةً، ولكنّه أصرّ على أن يمرّ بين بيوت الفلّاحين. أزاح ستارة العربة وأخذ يتأمل البيوت، كانت بيوت الفلّاحين قد تكاثرت، والقديمة منها تآكلت جدرانها بفعل الزّمن ونمت الحشائش فوقها. أخذ يتأمل الوجوه، لا يألف أحدًا منهم، لقد أوغل في البعد عن القرية. كلّ شيء في القرية تغيّر سوى مظهر الأطفال الذين يلعبون، ورائحة الدّواب وطين الأرض. فكّر أن يمرّ بجوار منزله القديم بجانب مكان الطّاحونة، ولكنّه عدَل عن فكرته، فزوجته تزوّجت آخر، وابنه ما عاد يعيش هناك. مرّ بسوق القرية، كان الإسكافي على حاله يعالج حذاءً، ولكنّه تجاوزه وتجاهل وجوده.

منذ وصوله، شرع يعطي أوامره لأتباعه عن كيفية فرض حكم الشّريعة في القرية، ويستدلّ بذلك بأقوال الأسلاف والعلماء القدامى، كان يقول إن النساء يجب أن يستترن حتّى لا يكنّ مصدرًا للفتنة، وأنهن لا يجب أن يختلطن بالرّجال، ويقول إن التّبغ مهلكة

ويجب أن يعاقب مدخّنوه، ويقول إنّ كلّ من يسمع النّهي ثم يعود إلى الفعل يكون في حكم الشّريعة كافرًا يحلّ قتله. قال أيضًا إن الرّبابة والناي مفسدتان وأمر بمنعهما من القرية. حرّم يومها الكثير من الأفعال التي كان يرى فيها الفلّاحون أشياءً بديهية تروّح عن النّفس وتجعل منهم بشرًا. كان بين تابعيه رجلٌ كثير السّؤال يدعى ميمون، يمعن في أدقّ التّفاصيل بعد صدور الأمر، نهره عزّام أكثر من مرة عن كثرة التّساؤل، ولكنّ الأمر بالنسبة إليه كان مخلوطًا بسذاجة، فكان يعود إلى التساؤل وكان عزّام يعذره كلّما عاد، وعندما سمع أحكام الشّريعة التي يجب أن تفرض حكّ رأسه وتردّد في أن ينطق، لاحظ عزّام ذلك، فأمره بأن يقول ما عنده، فقال ميمون: «إن كان يجب على النّساء أن يستترن في بيوتهن فكيف يعملن في الحقول؟»، فقال عزّام: «يعملن وهنّ مستترات»، فعاد إلى التّساؤل مرّة أخرى: «ألن يكون هناك رجال؟»، ضاق صدر عزّام به أخيرًا ونهره وأمره بالانصراف.

في إحدى الليالي أيضًا، عاد إليه ميمون وقد كان مذعورًا، فسأله عزّام عن أمره، قال له: «بينما كنتُ أنظّف سلاحي فكّكت الماسورة، فدَخلت إليها رياح فأحدثت صوتًا كصوت النّاي تمامًا، فأعدتها إلى موضعها واستغفرت الله، أأكون بهذا آثمًا؟»، قام عزّام يومها من مقامه وضربه على رأسه، وقال له: «توقّف عن التّفكير!».

في اليوم الذي دخلت فيه جماعة عزّام إلى القرية أمرهم عزّام بأن يستبيحوا أموال وأعراض السّادة فقط دون الفلّاحين، مع أن الاثنين كانا كافرين في حكم الشّريعة كما قال أكثر من مرّة، بعد أن انقضت المعركة أثار ذلك تساؤلات ميمون، فسأل عزّام حينما دخل القرية عن ذلك الأمر، قال له عزّام: «الشّريعة تبيح لي أن أعفو وتبيح لي أن أعاقب، وأنا المتصرّف في ذلك». اكتفى ميمون بإجابته تلك، وزاد ذلك عزّام تقديسًا في نظره.

في ذلك اليوم أتاه ميمون وقال إن جنازة للشّيخ يوسف انطلقت من ساحة الوعد متّجهة نحو قصره ولا أحد يدري أين يقصد مشيّعوها، سأله عزّام إن كان آصف موجودًا في تلك الجنازة، فأجابه بالنّفي، فأصدر أوامره بأن تمنع الجنازة من التقدّم.

(4)

استوقفت الجماعة جنازة الشّيخ يوسف أمام قصر الشّريعة، قالوا لهم إن عليهم أن ينزلوا الرّايات وأن يتوقّفوا عن الصّراخ والمديح، علاوةً على ذلك، كان في الجنازة من نساء الفلّاحين من كنّ حاسرات رؤوسهن، فأمروهنّ بالعودة إلى بيوتهن والاستتار. غضب المريدون بالطّبع، فتحولت صرخات الحزن لديهم إلى صرخات غضب، أمّا الفلّاحون فإن لم يكن الحديث عن الشّيخ يوسف أغضبهم فإن الحديث عن نسائهم جعلهم يستشيطون غضبًا ويمطرون الواقفين من الجماعة بأقذع الشّتائم. قال أحد الفلّاحين موجهًا حديثه

لمن حوله: «أزيحوا الغربان من الطّريق!»، ردّ أحد أفرَاد الجماعة: «جميعكم كفّار... أنتم كفّار يحلّ ذبحكم!»، ومن وسط المريدين انطلق حجرٌ فأصاب أحد رجال الجماعة في رأسه، ومن وسط الجماعة انطلق عيارٌ ناريٌ أردى فلّاحًا أرضًا. كان الكثير من الفلّاحين يحملون سلاحهم؛ فانطلق وابل من الرّصاص نحو الجماعة فسقط منهم من كانوا في المقدّمة، ردّ الجماعة بالمثل فسقط من الفلّاحين الكثير، انفضّ الجمع وتعالت صرخات النّساء وأخذ المقتتلون يحتمون بالبيوت ويتبادلون القتلى، وسقط حول تابوت الشّيخ يوسف الكثير من المريدين الذين كانوا يحمونه بأجسادهم وكان من بينهم ضرغام، حتّى حمل بعض الفلّاحين التّابوت وخبّؤوه في أحد البيوت. وبسرعة انتشار النّار في الهشيم، حضر إلى الموقعة كلّ الفلّاحين الذين يحملون السّلاح، وكذلك فعل أفراد الجماعة، فاتسعت رقعة المواجهة وتحوّلت شوارع الهضبة والأزقة بين بيوت الفلّاحين إلى ساحة معركة. خلال هذه المعركة تقدّمت جماعة عزّام فارضة سيطرتها من شمال القرية إلى أبعد من سوقها ببعض البيوت قبل مكان الطّاحونة بمسافة قليلة، أمّا الفلّاحون فقد استولوا على جنوب القرية أبعد من مكان الطّاحونة بقليل، أما من ناحية الهضبة فقد كان الفلّاحون متقدّمين، فقد كانوا يسيطرون على جنوبها مرورًا بساحة السيّد غريب ووصولًا إلى منزل السيّد نديم الذي كان يتلوه بمسافة قليلة قصر رشيد الذي كان يسكنه عزّام، فأطلق الفلّاحون يومها سراح نساء وأطفال السّادة وأمروهم بالعودة إلى بيوتهم جنوب الهضبة.

كان آصف يتابع المعركة عن كثب، ويوجّه تعليماته للجند عن طريق يامن الذي كان يقُود المعركة في الميدان. استمرّت المعركة من ظهر ذلك اليوم إلى قبيل غروب الشّمس بقليل، وعندما عرف آصف المواقع المتقدّمة التي حقّقها جنده في الهضبة أرسل إلى شرحبيل مبادرًا لوقف القتال، فالتقوا في منطقة محايدة لا يتخلّلها إطلاق نار شرق الهضبة، أبدى الاثنان أسفهما لما حصل، واتفقُوا على ضرورة تقسيم القرية بينهم، اقترح شرحبيل أن تأخذ الجماعة الهضبة وتنسحب من منطقة الفلّاحين، وتحتفظ بنصف الحقول المحيطة بالقرية، ولكنّ آصف رفض، واقترح أن تبقى مناطق السّيطرة حسب المواقع التي وصل إليها الجند حتّى هذه السّاعة، رفض شرحبيل عرضه أيضًا، فقد كان الفلّاحون يسيطرون على أغلب الهضبة، ولعلّ عامل الضّغط الوحيد الذي كان يمتلكه آصف أن جنود الفلّاحين يقتربون كثيرًا من القصر الذي يسكن فيه عزّام، فقد دفع آصف بأغلب قوّته في معركة الهضبة وترك منطقة الفلّاحين للجماعة ليبتلعوها على شرط ألّا يتعدّوا مكان الطّاحونة التي تتلوها نصف آبار المياه ونصف الحقول، فالجماعة كانت تبحث عن الحقول وعن آبار المياه، أمّا آصف فلم يكن ينظر إلى أبعد من المعركة، فرأى في سقوط عزّام سقوطًا لكلّ الجماعة. بعد مداولات كثيرةٍ بينهما، وبعد أن شعر شرحبيل أن الوقت والمماطلة لم يكونا في صالحه، اقترح على آصف أن تقسّم القرية طوليًّا إلى نصفين، نصف شماليّ ونصفٌ جنوبي، وبهذا يكون الفلّاحون يمتلكون نصف الهضبة ونصف منطقة الفلّاحين ونصف الآبار ونصف الحقول، وكذلك الجماعة. تحدّثوا عن البئر القديمة، فاتّفقوا على أن تكون منطقة محايدة. وبهذا صارت القرية قريتان، قرية جنوبية، وقرية شمالية، الجنوبية هي القرية القديمة، والشّمالية هي قرية الصّابرين.

(5)

في اليوم الذي تلا المعركة التي راح ضحيّتها الكثير من الفلّاحين والكثير من الجماعة، أخذ الفلّاحون يخلّون نصف القرية الشمالي، وأخلى الجماعة نصف القرية الجنوبي، وكلٌ منهم كان يخلي الجثث التي سقطت، وكلٌ منهم اعتبر أنه كان منتصرًا في المعركة.

في ذلك اليوم أيضًا، عاد بعض الفلّاحين من عند البئر القديمة، قالوا إن مياهها صارت أكثر عكورةً، ومذاقها أكثر مرارًا، وأن الحشائش والشجيرات التي طالتها المياه يبست وماتت. فزع الفلّاحون، وقال الذين كانوا يعتقدون أن لعنة شائيل زالت بعودة البئر، إن عودة البئر القديمة كانت هي لعنة شائيل بعينها.

الفصل الثامن عشر

هذا من ذاك!

(1)

جلس عزّام على أحد مقاعد القصر مغمومًا، فهو لا يدري إن كان قد آن الأوان ليرتاح أم إن وقت العمل جاء لتوّه، فلقد سلخ سنوات طوال في الجبال حول المدينة ينتظر اللحظة التي يمتلك فيها أرضًا ويفرض فيها حكمًا. ولعلّ هذا الأمر بالنّسبة إليه لم يعدو كونه حلمًا حتّى فترةٍ قريبة، وكان يدعو الله ويتضرّع إليه ليل نهار حتّى يرى حلمه واقعًا. قبل سنوات طوال كان عزّام حاله كحال كلّ الفلّاحين في القرية القديمة يرزح تحت وطأة الجوع والقهر، ولكنّه أيضًا حاله كحال كلّ الفلّاحين كان راضيًا على مضض؛ فقد كانت الحياة تسير بالرّغم من كلّ شيء. كان قد بدأ يشعر بتلك المعاناة مع أولى سني مراهقته، ثم استفحل الأمر جدًّا وبدأ الأمر يأخذ طابع العنف لديه على أسرته ومن حوله من الفلّاحين. وصل الأمر إلى ذروته عندما قارب منتصف العقد الثّالث من عمره، وفي ذلك العام تحديدًا تولّى رشيد الحكم في القرية بعد أن توفّي والده، وبدأ يعقد في ذهنه مقارنة بشكلٍ ما بينه وبين رشيد، ما الذي قد يجعل من ذلك شريفًا سيدًا ويجعل منه فلّاحًا وضيعًا، ولم يستطع وقتها أن يلقي المسؤولية في ذلك إلا على عاتق أسلافه، ويشعر بحقد مستطر نحو أسلاف رشيد، فأخذ يلوم والديه في كلّ مناسبة ويسبّ أسلافه وأسلاف الفلّاحين في كلّ جلسة. كان شابًا جامحًا جدًّا، وكان يرى الناس في تلك القرى التي تماثل القرية القديمة، أن لا شيء يكبح جموح الشّباب سوى الزّواج، فزوّجه والداه من إحدى فتيات القرية، ولا شكّ أن العام الذي تلا زواجه شهد فترةً ذهبيّة له، فقد أصبحت الحياة بالنسبة إليه أكثر سلاسة مما كانت عليه من قبل، وقد حقّق له وجود الجنس الآخر استقرارًا، وركودًا كبيرًا في نزعات التمرّد التي كانت تلمّ به. رزق أيضًا في ذلك العام من زوجته بطفلٍ أسماه آصف، تيمنًا بشخصٍ حكم القرية في أزمانَ غابرة. كان سعيدًا جدًّا، واستمرّت سعادته تلك إلى أن رفرفت الفراشة بجناحها وأدت إلى العاصفة التي تحدث اليوم في القرية.

في إحدى الليالي، وبسببٍ من سعادة مفرطة، فكّر عزّام أن يصطحب زوجته وطفله في نزهة إلى الغابة التي تقع شمال القرية، كان عليه قبل أن يصل إلى الغابة أن يمرّ بالطّريق المؤدّي إلى الهضبة، وصادف ذلك اليوم وتلك السّاعة تحديدًا، نزهة كان يقوم بها السيّد

رشيد إلى الحقول، وكعادة الدّرك عند كلّ نزهة لرئيس مجلس الأشراف، كانوا يخلون طريقه من الفلّاحين، فاستوقف عزّام عددٌ من الدّرك، قالوا له أن يرجع من حيث أتى، سألهم عن السبب فلم يجيبوا، قال لهم إنّه سيعبر إلى الغابة فقط ولن يبقى، لم يستجيبوا أيضًا. لو أن عزّامًا كان وحده يومها لاكتفى بذلك ولملم نفسه وانسحب، ولكنّ وجود زوجته وابنه الرّضيع خلفه جعلاه أكثر إصرارًا على تجاوز الأمر بشكلٍ يحمل له كرامةً أكثر، فتقدّم نحو قائد الدّرك محاولًا استجداءه للعبور، كان يكفي أن يعامله قائد الدّرك كإنسان، أن يصرفه بلطف فقط، كان ذلك ليحقّق له مراده، وما كان ذلك أكثر من بعض الكرامة. رمقه قائد الدّرك بنظرةٍ غاضبة، وفجأة، صفعه على وجهه فارتدّ للوراء، ولم يكتفِ بذلك، فبينما كان عزّام يترنّح على أثر الصّفعة، تقدّم قائد الدّرك نحوه ورفسه بقدمه فأسقطه أرضًا، وقبل أن يبادر بأي فعل وجد رماحًا موجّهة نحو عنقه، ولم يكن قائد الدّرك ذاك سوى السيّد شدّاد.

بكت زوجته وتناولته من ذراعه بعد أن سقط، وأخذ طفله الرّضيع يصرخ معترضًا. استجاب ليد زوجته التي طوّقت ذراعه وقام وغادر المكان، لم ينبس ببنت شفة طوال الطّريق، ولم ينظر إلى عيني زوجته منذ ذلك اليوم إلى أن غادر القرية.

أصبح عزّام بعد هذه الحادثة قليل الكلام، وقليل المكوث في منزله، ويكتفي من الطّعام والشّراب ما يكفيه ليبقى حيًا فقط. تجاهل تمامًا وجود زوجته وابنه الرّضيع، حتّى إنه بعد الواقعة لم يجرؤ على حمله ومداعبته كما كان يفعل في السّابق، ولعلّ هذا المظهر المتماسك الذي كان يظهر به في منزله لم يكن هو ذاته عندما يختلي بنفسه، فقد كان يمضي ساعات طوال في البكاء والتساؤل، أين العدالة... العدالة في الأرض؟، وتحت هذا السؤال كان يسأل نفسه أسئلة كثيرة، وحاله كحال كلّ الضّعفاء، كل الإجابات كانت تنتهي إلى الله.

لم يكن في القرية في ذاك الوقت من يتحدّث باسم الله سوى نعيم ويوسف، اللّذين أصبحا فيما بعد الشّيخ نعيم والشّيخ يوسف، فأصبح عزّام يتحرّى أماكن وجودهما. كان يوسف يتحدّث عن الأولياء والكرامات والتّسامح والمغفرة ويبكي، وكان نعيم يتحدّث عن الكذب والصّدق، الأمانة والخيانة، حسن الخلق والمغفرة، ويتحدّث عن حياة النّبي وما كان له من هذه الصّفات الحميدة. كلاهما كان يتحدّث عن المغفرة والتّسامح، ولم تكن هذه هي ضالّة عزّام، فكيف يتحقّق العدل بالمغفرة؟ فكان يرى أن المغفرة هي دعوةٌ للظلّم بأن يستشري، كان يرى أن المغفرة هي أن نقف بصدور عارية أمام طعنات الظّلم حتّى نهلك. وفي إحدى جلسات يوسف مع رفاقه- ولم يكن له مريدون بعد- قرّر عزّام أن يسأله عن ذلك، فقال له يوسف: «العدالة في السّماء، ولقد رفعت من الأرض»، قال له عزّام: «تريد أن تقول إن البشر لا يريدون إقامتها!»، تنهّد يوسف وقال له: «إقامة العدل في الأرض تعني مجابهة الظّلم بالظّلم، وبهذا يكون كلاهما ظلم...». همّ يوسف أن يقول شيئًا آخر، ولكنّ عزّامًا كان قد تركه وقام متأفّفًا، ولعلّ عزّامًا لم يكن بحاجة لسببٍ إضافي يجعله ساخطًا على يوسف، فمنذ

تلك الأيام بدأ يوسف بالتّقرب من مجلس السّادة والسّيد رشيد، وكان هذا سببًا كافيًا يجعل عزّام يحمل له الكثير من البغض. وفي إحدى اللّيالي رأى عزّام جمعًا يتوسّطه نعيم، فانضم إليهم، وأعاد سؤاله له عن العدالة فقال له نعيم: «العلوّ والهبوط في الأرض أقدار، تقبّلها كما تقبل وصفك واسمك»، وكانت إجابة أخرى غير شافية لصدر عزّام. ولأن عزّامًا كان يكنّ لنعيم بعض الاحترام، انتظره حتّى انفضّ الجمع من حوله، وانفرد به وقال له: «ألم يكن النّبي يدفع الظّلم عن نفسه؟»، بعدما رأى نعيم إصرار عزّام على السؤال عرف غرضه منه، فسأله: «من الذي ظلمك؟»، فقصّ عليه عزّام حكايته مع قائد الدّرك، فتأثر نعيم لمصابه، وقال له: «أطلب حقّك من الله».

بقي عزّام على هذه الحالة لأسابيع، ولم يذق خلالها طعم الرّاحة، ولم تسعفه الوصيّة التي أوصاه بها نعيم بأن يطلب حقّه من الله، وفي أحد الأيام تردّدت الأقاويل عن أن عددًا من الدّرك قُتلوا على أطراف القرية، في الأيام الأولى لم يعلم أحدٌ من قام بقتلهم، ثم بدأ الناس يتناقلون أقوالًا في الأيام التي تلت، عن أن الذين قتلوهم جماعة يسمّون أنفسهم «جماعة الصّابرين»، وأخذ النّاس يتناقلون همسًا غرضهم من قتل الدّرك، فكانوا يقولون إنهم يريدون إقامة الشّريعة كما كانت في القرون الأولى، استبدّت الفكرة برأس عزّام، وأخذ يتقصّى عن أماكن تواجدهم، وما كانت إلا بضعة أيام وكان عزّام قد ارتحل عن القرية مدفوعًا بفكرة العدالة التي تجسّدت لديه فيما بعد في حكم الشّريعة الأولى.

لسببٍ لا يعلمه، لم يشعر عزّام بالرّاحة بعد مقتل رشيد ويوسف، وبعد استيلائه على القرية، وبعد سنوات طويلة أمضاها في الإغارة على الدّرك، لم يشعر بالرّاحة بعد أن أزهق الآلاف من الأرواح على مرّ السنين. كان طوال تلك السّنين يحاول أن يقنع نفسه أنه تخلّص من ثأره القديم، وأن دافعه الوحيد لم يكن إلا إقامة الشّريعة الأولى، إقامة العدل، ولكنّه وجد نفسه وجهًا إلى وجه مع ثأره ذاك عندما كان على أبواب القرية، عندما طلب من أتباعه أن يبقوا على حياة شدّاد، قال في نفسه إنه ربما يشعر بتلك الرّاحة بعد أن يقتصّ منه، وقد شعر أن الأوان لذلك قد آن بعد أن عقد صلحًا مع الفلّاحين، فأمر أتباعه أن يأخذوه إلى شدّاد.

كان شدّاد في حظيرة الخيول مقيدًا من يديه إلى قضيب خشبيّ في السّقف. دخل عليه عزّام، وقد كانت رأسه متدليّة إلى صدره ولباسه الفاخر مغطًّى بالدّماء وقد استبدّ به التّعب. تقدّم عزّام نحوه وقبض على شعره وردّ رأسه للوراء، نظر إلى عينيه، كانت عينا شدّاد لا تزالان تحملان ذاك الكبرياء والقسوة اللتين عهدتا منه. حاول عزّام أن يذكّره بنفسه، فلم يستجب شدّاد ولم ينطق. قرّر عزّام أن يذكّره بطريقةٍ أخرى، فرفع يده إلى الأعلى وهبط بها كالمطرقة على وجه شدّاد، تحوّلت القوّة في عيني شدّاد إلى ضعف وقهر. ذكّره عزّام بنفسه مرّة أخرى، الفلّاح الذي صفعه، الذي ركله فأراده أرضًا. استجاب شدّاد، قال له إنّه يذكر، حاول أن يبرّر. رفع عزّام يده مرّة أخرى وصفعه صفعة أخرى. نظر إلى عينيه. رأى نظرة الانكسار التي كان ينشدها. اجتاحته نشوة. أمر بعدها عزّام بكومة من

القشّ والكثير من الحطب توضعان تحت قدمي شدّاد، ثم آمر بشعلة من النّار، وأشعل القش تحته، ثم التفت مغادرًا، غير آبه لصرخات شدّاد. لقد أحرقه حيًّا.

بعد أن اقتصّ عزّام من شدّاد وانتهى من ثأره، وجد أن يتفرّغ لأمر آصف وحفنة الفلّاحين الذين يحيطون به، فقد كان يرى أنهم كالبيضة في يده يفقسها متى شاء، ولكنّه بعد المواجهة التي حصلت بين رجاله وبين الفلّاحين أدرك أن الفلّاحين قوّةٌ لا يمكن أن يستهان بها، فكان يخطّط لإضعاف شوكتهم وفرض سيطرته على كامل القرية، فأمر جماعتة بأن يسرعوا في استقطاب المقاتلين من القرى الأخرى حتّى يشكّلوا قوّة تدحر الفلّاحين وتفرض حكم الشّريعة فرضًا، وكان يخطّط قبل ذلك للقاء مع آصف يحاول فيه أن يعيده تحت حكمه كحاكم للقرية، وكابن لأبيه.

في ظهر ذلك اليوم، دخل ميمون على عزّام يخبره بأن مبعوثًا من المدينة يقف منتظرًا أمام باب القصر، فأمره بأن يسرع بإدخاله.

(2)

بعد المعركة التي وقعت بين الفلّاحين وبين الجماعة، وجد آصف أن يقوم بتنظيم أمر الحكم، وأن يقوم بتعيين معاونين له، ولم يكن يعلم وقتها سوى الأسلوب الذي كان يتّبعه السّادة من أمر مجلس الأشراف، فقام بتشكيل مجلس من الفلّاحين، وخالف في هذا المجلس مجلس الأشراف بأن جعل قوامه عشرة أفراد، وقال لهم إن الأمر قائم على المشاورة ولم يضع لنفسه تمييزًا، فكان في المجلس هو ويامن وبعض الفلّاحين ممن أثبتوا ولاءهم المطلق، وأثار آصف دهشة بقيّة أعضاء المجلس حينما قام باختيار السيّد نائل العائد إلى القرية كأحد أعضاء هذا المجلس، ولكنّ دهشة بقيّة الأعضاء لم تتحوّل أبدًا إلى اعتراض، فقد وصل آصف إلى درجة من التّقديس تجعلهم يسلّمون بحكمة قراراته. تلت أول جلسة جنازة أقامها الفلّاحون للذين قتلوا أثناء المعركة مع جماعة عزّام، كان أوّل ما نوقش في تلك الجلسة مصير أراضي الزّراعة وكيفية تقسيمها، فقد أصبح الأمر محلّ نزاع بين الفلّاحين، وصار كلّ فلّاح يطوّق أرضًا ويدّعي ملكيّته لها، قال لهم آصف إن هذا الأمر لا يعدّ أولوية. قال إن الأولوية القصوى تقع في التّخلص من جماعة عزّام وطردهم من القرية، والتّعامل مع الدّرك أسفل الهضبة، ثم يتمّ بعدها التفرّغ لتلك الأمور. قال لهم آصف: «إننا اليوم نواجه عدوّين بدلًا من واحد، يجب أن نقلّص الأعداء ونعقد تحالفات تخدم الفلّاحين... فقوّة الفلّاحين لا يمكنها أن تجابه جماعة عزّام وقوّات الدّرك في الوقت نفسه»، استأنف آصف: «يجب أن نقدّم بادرة سلام مع الدّرك أسفل القرية.. ماذا تقترحون؟»، سمع آصف اقتراحاتهم فردًا فردًا، ثم استقرّ الأمر على أن تُرسل توابيت قتلى الدّرك الذين

سقطوا يوم المواجهة مع السيد نائل إلى ذويهم أسفل الهضبة، وأن ينقل رسالة عن القائد آصف مفادها أن نساءهم وأطفالهم ينعمون بالسّلامة والحريّة في منازلهم.

اختُتمت الجلسة بـــ«عاش القائد آصف» و«سدّد الله خطى القائد»، وانفضّ الجمع، وأمر آصف السيّد نائل بالبقاء. كان آصف يناقش معه ما يجب أن يقال عند لقائه بالدّرك أسفل الهضبة عندما دخل عليه يامن وهو يقول إن أحد الفلّاحين أقسم أنه رأى السيّد عزيز يدخل قصر عزّام.

(3)

قضى الدّرك أسفل القرية أيامًا من التخبّط والفوضى بعدما حصل في القرية، فقد كان قائد الدّرك الذي أرسله شدّاد عاجزًا عن اتخاذ أي قرار. وبعد أن قُتل جميع أعضاء مجلس الأشراف- باستثناء عزيز الذي فرّ- لم يبقَ من الوجوه المرموقة في السادة سوى تلك المعارضة منها، وكان أبرزهم السيّد مروان، وبعد مشاورات وجدالات ومناكفات كثيرة، اتفقوا على أن يكون السيّد مروان هو كبيرهم، وكان ذلك قبل يوم من المواجهة التي وقعت بين جماعة عزّام والفلّاحين. كان السيّد مروان قد قرّر أن يهجم على الهضبة ويطرد من فيها، وكان من المقرّر أن يحدث ذلك في اليوم الذي وقعت فيه المواجهة بين الفلّاحين والجماعة، ولكنّ السيّد مروان حينما أتته أخبار تلك المواجهة قرّر أن يتمهّل وينتظر حتّى «يكسر الفخّار بعضه» كما قال.

عندما اقترب السيّد نائل برفقته بعض الشّباب العائدين يحملون التّوابيت، استنفر الدّرك هناك ووجهوا بنادقهم نحو المسيرة المتقدّمة، ولكنّ السيّد نائل ومن معه كانوا يرفعون الأعلام البيضاء التي كانت تعلو التّوابيت، وقبل أن يصلوا إلى مواقع الدّرك بمسافة قليلة، أمرهم السيّد نائل بأن ينزلوا التّوابيت ويتوقّفوا عن المسير، وتقدّم السيّد نائل وحده.

عندما دقّق السيّد مروان النّظر إلى الرّجل الآتي من بعيد، بدأت تتشكّل لديه صورة رجل كان يعرفه جيدًا، فهو لديه طريقة المشي نفسها، والوجه المجعّد نفسه تحت أشعّة الشمس، ومع اقتراب الرّجل أكثر فأكثر، أيقن أنه لم يكن سوى السيّد نائل، الذي طرد من القرية قبل سنوات عدّة. كان السيّد نائل أحد رفقة السيّد مروان قبل أن يطرد، ولعلّ أحد الأسباب الكبرى التي جعلت السيّد مروان ناقمًا على مجلس السّادة هي حادثة طرد السيّد نائل ومن مثله من القرية بعد مؤامرات من مجلس السّادة للاستيلاء على أراضيهم. كان السيّد نائل عائدًا عودة المنتصر، أما السيد مروان فلم يعرف أيستقبله كمنتصر أم منهزم؛ فاستقبله بحفاوة مخلوطة بألم بسبب فقدان الهضبة. جلسا ساعة يتسامران ويعودان بالماضي ويخلطانه بالحاضر ويفتحان منهما نافذة نحو المستقبل، خلال ذلك كان جند الدّرك قد

تسلّموا التوابيت وبعض المعونات الغذائية التي كان آصف قد أرسلها، وبدؤوا التّحضير للجنازة. خلال الحديث قال مروان: «لن يهدأ لي بال حتى أستعيد الهضبة»، لم يؤكد السيّد نائل على كلامه بل ألقى ببصره نحو الأرض، وقال له: «فرصنا تكاد معدومة في التغلّب على الاثنين معًا... الفلّاحين والجماعة»، وقال له إن هناك فرصة ثمينة لعقد تحالف مع الفلّاحين ضدّ الجماعة، وأخبره عن النّوايا الطّيبة التي قدّمها الفلّاحون، وعن تشريفهم للسيّد غريب بتسمية ساحة الهضبة باسمه، ثم عاجله بالعرض الذي كان قد أطلعه عليه آصف قبل أن ينطلق بالتّوابيت. قال له عن أمر الملجس، وقال إن آصف يعرض على السّادة أن يضيف خمسة منهم إليه، ليشاركوا بذلك في حكم القرية، ويعرض أن تعود كل بيوت السّادة إليهم بعد طرد الجماعة، باستثناء بيوت مجلس السّادة السابق. أمّا عن أمر أراضيهم، فقد أخبره أن ملكيّتها لن تعود كالسّابق، واكتفى بذلك. انفعل السيّد مروان، وقال إن أمر الأراضي يجب أن يكون واضحًا، وإلا فلا اتفاق مع الفلّاحين، وعندها اقترب منه السيّد نائل وقبض على كتفه وقال: «لن تعود السّيادة دفعة واحدة!».

(4)

أمضى آصف السّاعات التي تلت اجتماعه مع المجلس في التفكّر في أمور الفلّاحين والجماعة والسّادة، ولعلّ أكثر الأشياء التي شغلت خاطره في تلك السّاعة كانت قدوم السيّد عزيز إلى الهضبة، ولقاءه مع عزّام. فأمسى يختلق الاحتمالات، يضرب الأخماس بالأسداس. فأخذ يتفكّر في أفعال جماعة عزّام منذ استيلائهم على القرية، عن استيلائهم السّريع على القرية، عن ثقة شرحبيل يوم المعركة بخلوّ الهضبة من درك السّادة، وقطعهم الطّرق المؤدية إلى المدينة من القرى الأخرى، وكانت كل الإجابات تقوده إلى تجّار المدينة.

دخل عليه يامن مسرعًا، يقول إن شرحبيل بعث إليه برسالة، ناوله إياها، ففضّها آصف. كان مكتوبٌ فيها: «بسم الواحد الأعظم... أما بعد... فإن شيخنا ومولانا عزّام يطلب لقاءكم في ساحة الوعد عصر اليوم... والسّلام ختام». أمر آصف يامن بأن يجهّز قوّة من الفلّاحين ترافقه إلى ساحة السيّد غريب عند الموعد.

(5)

خطٌّ رقيق يفصل الأشياء عن نواقضها، خطٌّ رقيق لا يتّسع إلى أن يسمّى منتصفًا. لا يرقى لكونه منطقة ثالثة. تمامًا كالحاضر الذي يقع بين ما مضى وما هو آت، لحظة تفصل بين هذا

وذاك، نسمّيها حاضرًا عجزًا فينا، ونقصًا منّا. كُلّ أولئك الذين حاولوا أن يكونوا في المنتصف ضاعوا، طحنوا تحت وطأة ضيق الخطّ الفاصل، تحت وطأة دفع الطّرفين اللذين لا يقبلان بوجود المنطقة الثّالثة. الذين حاولوا اختلاق منطقة ثالثة ضاعوا، كالشّيخ نعيم الذي بقي مغمورًا منسيًا إلى أن مات، وكنان الذي ضاع، وما حصل للشّيخ يوسف يوم المحاكمة. هذه القرية أيضًا لم تحاول أن تكون منطقةً وسطى يومًا ما، حتّى حينما وقعت بين طرفين، آثرت أن تنقسم على ذاتها حينما حاول كلّ طرفٍ جذبها إليه.

لم يكن بالإمكان تجاهل ذاك الخط الفاصل في اللقاء المرتقب ما بين آصف والشّيخ عزّام، الخط الذي يفصل القرية القديمة عن قرية الصابرين، والذي يفصل ساحة السيّد غريب عن ساحة الوعد. اصطفّت مقاعد الفلّاحين في ساحة السيّد غريب قرب الخطّ الفاصل، واصطفّت مقاعد الجماعة في ساحة الوعد قرب الخطّ الفاصل أيضًا، لم يكن ذاك الخط الفاصل سوى خطٌّ أبيض من الجير رسم ليقطع السّاحة والقرية. خطٌّ في ذاته لا يساوي أكثر من فتات حجر جبلي آت من مكان بعيد، ولكنّه لدى هؤلاء كان يساوي دماءً كثيرة سفكت، ويساوي حدًّا فكريًّا فاصلًا. فوحده نتاج الفكر هو الذي يضفي قدسيّة على حجارة وتراب، كزاوية يوسف، وكالأضرحة، كوصايا الشّيخ الرّحباني، كتمثال السيّد سليم، والطّاحونة، وكالبئر القديمة.

حضر اللّقاء ذلك اليوم آصف ويامن والسيّد نائل من طرف الفلّاحين، وحضر اللّقاء من طرف الجماعة عزّام وشرحبيل وميمون. واصطفّ خلف كلّ طرفٍ جندٌ مسلّحون تحسّبًا لأي طارئ. لم يكن بين الطّرفين شيئًا متشابهًا، لا اللّباس ولا الهيئة، ولا حتّى الكلمات، الشّيء الوحيد الذي كان مشتركًا بينهم، ويحمله واحد من كل طرف، كان هو العينان الغائرتان والأنف المعقوف، الشيء الذي لم تستطع الخلافات أن تمحوه، ولم تستطع المعارك أن تحدث فيه خدشًا، الشّيء الذي كان يؤكّد دومًا، أن هذا لم يكن إلا من ذاك.

تعمّد آصف أن يكون آخر الحاضرين لغاية في نفسه. قام له يامن والسيّد نائل، ولم يقم أحد من الطّرف الآخر. اتّخذ مكانه وأمر تابعيه بالجلوس. بمجرّد أن جلس، التقت عيناه بعيني الشّيخ عزّام، لاحظ فيهما لمعة وحنينًا، لم يشأ أن يبدأ معه بأي نوعٍ من أنواع السّلام، احترامًا للدماء التي سفكت، وانتظر من أحد آخر أن يفتتح الجلسة، ولكنه كان يعود ببصره كل حين إلى الشّيخ عزّام، والشّيخ عزّام يثبّت نظره عليه، والحنين في عينيه يزداد. تجاهل آصف ذلك، وأصبح يتجنب أن تلتقي عيناهما. خلال ذلك، كان شرحبيل قد افتتح الجلسة، وقال إن هذا الاجتماع لبحث سبل التّعاون بين شقّي القرية، وبهدف تثبيت الاتفاق الذي أوجب وقف القتال وتقسيم القرية. كان يبدو أن شرحبيل يتحدّث إلى نفسه وعن نفسه فقط، لم يكن معه أحدٌ من الحضور. بقي يتحدّث عن أهمية التّعاون، وعن تسيير الحياة، فقاطعه عزّام بإشارة منه فصمت، ثم قال عزّام وهو يثبّت نظره على آصف: «أريد أن يكون الاجتماع فرديًّا... أنا وقائد الفلّاحين فقط»، فهم شرحبيل ومن معه الأمر فأطاعوه وانصرفوا، أومأ آصف إلى تابعيه فانصرفوا أيضًا.

ليس من الصواب أن نعتقد أن آصف لم يظنّ ولو للحظة أن عزّامًا هذا هو أبوه، حتّى قبل أن يراه، عندما كان يسمع عنه بعد كل حادثة يتردّد صداها بين الفلّاحين. كان مجرّد ذكر «جماعة عزّام» يطرق الباب الذي يختبئ وراءه والده الذي لم يعرف عنه سوى اسمه فقط. إن عدم وجود والده معه كان يفتح احتمالات لانهائية عن أماكن تواجده، وإحدى تلك الاحتمالات أن يكون هو عزّام الجماعة نفسه. بدأت تلك الشّكوك التي كانت تراوده على مدى سنوات تأخذ طابع اليقين حينما التقت عيناهما أول مرة في هذا المجلس، فلا يمكن لهذين العينين إلا أن تكونا مألوفتين، لا يمكن لهذه الملامح إلا أن تكون ذات صلة به بشكلٍ ما. كان آصف يتحاشى النّظر إلى عينيه هروبًا من هذه الحقيقة، هروبًا من لحظة لطالما كان يحلم بها في صغره وشبابه، كان يظن أن لحظة التقائه بوالده ستكون لحظة عناق ودموع وفرحة، لم يتخيّل أن تكون قائمة على أشلاء وضحايا ودماء. كان يهرب من عينيه خوفًا من استيقاظ عاطفة ما بداخله، خوفًا من الانجراف وراء دموعه التي كان يحبسها مرغمًا. في تلك اللحظة بدأت مقارنة تنعقد بداخله، السلطة والنّفوذ، الدماء والضحايا، يقابلها والده، أي الكفتين قد ترجح، كفّة الدّم الذي يجري في العروق، أم كفة الدّم المسفوك.

بقي آصف متماسكًا، ولكن يبدو أن عزّامًا لم يستطع؛ فقد بدت لمعة واضحة في عينيه، كان يقاوم دمعة تريد الانزلاق، رأى في تلك اللحظة كل حياته أمامه، عبرت في طرفة عين، ماذا لو لم يكن ما هو عليه الآن، ماذا لو كان مزارعًا، من كان السّبب، هل كان السبب السيّد شدّاد، أم السيّد رشيد، أم والده الذي ولده فلّاحًا، أم إن الخطأ كان في قراره هو بالابتعاد عن القرية والانضمام للجماعة، أين يكمن الخطأ الحاصل، هل في قراره في أن ينجب طفلًا يشعر نحوه بالحنين، أين الخطأ، هل يوجد خطأ من الأصل، وهل يوجد صواب؟

على كل حال، كان عزّام في تلك اللحظة يتخيّل لو أنه لم يبتعد عن القرية، لو بقي فلّاحًا بسيطًا فقط، يستمتع برؤية ابنه يكبر أمامه فقط، أن يكون كل هدفه في الحياة الاستمتاع بكونه حدًّا يحول دون انقراض الجنس البشري، ككل فلّاح بسيط. لم يكن في تلك اللحظة يشك أن آصف عرفه، فأراد أن يعرف كيف يراه ابنه قبل أن يراه، فسأله:

- أين والدك؟

- رحل.

- وماذا إن عاد؟

- الآباء الرّاحلون لا يعودون.

- وإن عادوا؟

- عندها يفسدون الزّمن...

- الآباء الرّاحلون يرحلون من أجل أبنائهم، ويعودون من أجلهم.

- الرّاحلون ليس لهم سوى الغياب.

- ولكنّني... عُدت!

- لتُفسد الزّمن...!

- ..

الفصل التّاسع عشر

الإيمانُ وحده!

(1)

في ساعة متأخرة من ليل القرية، قبل فجرها بساعات قليلة، قطعت أقدام حذرة المسافة من زاوية الشّيخ يوسف إلى جنوب الهضبة، في طريقهم للصّعود إلى بيوتهم التي استولى عليها الفلّاحون. كان الجند يتهامسون، يتحسّسون الأرض بأقدامهم، يتقدّمون بحذرٍ شديد، خوفًا من أن يكتشف أفراد الجماعة أمرهم. كانوا يمسكون بأطراف بنادقهم بكلتا أيديهم حتّى لا تصدر حفيفًا ينذر بوجودهم، يوجّه قائدهم تعليماته لهم بحركات من يديه، يحاولون الالتفاف حول نقاط الرّصد التي أقامتها الجماعة. البعض منهم كان ينظر إلى نفسه ساخرًا، والبعض الآخر كان ينظر إلى نفسه بحزن وقهر شديدين، ولعلّ كلا النّظرتين كانت لسبب واحد، ذاك السّبب الذي جعلهم يتبادلون الأدوار مع الجماعة، فأصبحوا هم مجرمون وأولئك الحماة. كان بعض الجند عائدين إلى قرية السّادة، والبعض الآخر عائد إلى قرية الأشراف، في انتظارهم القرية القديمة المتاخمة لقرية الصّابرين. القرية القديمة وقرية السادة والأشراف والصّابرين، لم تكن يومًا ترابًا وحجارة، ولم تكن يومًا لحمًا وعظمًا، كانت دومًا أفكارًا تدور في الرّؤوس، مع أن القرية واحدة، والتراب واحد والحجارة واحدة.

كان واضحًا من مظهر آصف وعزّام اللّذين فضّا اجتماعهما مبكّرًا أنهما لم يتوصّلا إلى اتفاق، وكان واضحًا لآصف وحده قبل اللّقاء أنه لم يكن ينوي أن يتوصّل لاتفاق، فهو لم يحضر إلى اللقاء إلا من باب التعرّف على العدوّ، حتّى عندما وجد أن ذاك العدوّ لم يكن إلا أبوه، لم يغيّر ذلك من كونه عدوًا في نظره، تمامًا كالبئر القديمة، عادت، ولكنّها عادت عكرة، مسمومة، تميت ولا تحيي. لقد انتهت البئر القديمة، ولن تعود يومًا كما كانت، فلقد غفل الفلّاحون الذين ينتظرون عودة البئر القديمة عن شيء هام، لقد غفلوا أن مياه البئر القديمة قد تفرّقت منذ زمن على آبار القرية، على تلك الآبار التي يشربون مياهها ويروون بها محاصيلهم ودوابهم، لقد نسوا أن البئر القديمة أصبحت بضعة آبار متفرّقة في القرية كلٌّ منها يحمل بعضًا من مياهها، ولا يمكن جمعها في بئر واحدة أبدًا. لقد كانت عودة البئر القديمة هذه على صورتها الأخيرة ضروريًّا، ليعلم الفلّاحون أن البئر القديمة لن تعود يومًا كما كانت، وليعلموا أن لعنة شائيل قد وقعت بالفعل... فيتجاهلونها.

كما قلنا، أخذ جند الدّرك يتسلّلون إلى نصف الهضبة الجنوبي حيث يتمركز جند الفلّاحين، وكان ذلك نتيجة لسريان الاتفاق الذي جرى بين السيّد نائل مبعوث آصف والسيّد مروان قائد الدّرك. اختار آصف أن يعود جند الدّرك إلى الهضبة متسلّلين ليلًا حتّى لا تعلم الجماعة نيته بشنّ هجوم على قرية الصّابرين، وأشار بأن يبقى عدد من جند الدّرك أسفل الهضبة ويقومون بمناوشات سريعة مع جند الجماعة وإغارات على نقاط الاستطلاع الخاصة بهم لصرف النّظر عن احتمالية عودتهم إلى الهضبة والتحامهم بجند الفلّاحين، أما جماعة عزّام فقد كانوا يستقبلون المقاتلين نهارًا على مرأى ومسمع من الجميع. وخلال ذلك، قام آصف بتجنيد كل من شبّ من الفلّاحين، كل صبي بلغ قام بحمل السّلاح، ولعلّه ما فعل ذلك إلا ليضمن التفوّق والغلبة على جند الدّرك حين عودتهم إلى الهضبة، وبعد أن تنتهي معركتهم مع الجماعة.

استغرق الأمر بضعة أيام حتّى استكمل جند الدّرك انتقالهم من أسفل الهضبة إلى أعلاها، كان كل فوج منهم يصل إلى الهضبة يجبره الفلّاحون على التخلّي عن زيّ الدّرك واستبداله بزيّ الفلّاحين، حتّى لا يثيروا ريبة الجماعة، أو هكذا كان مبرّر الفلّاحين لهم، فبأي حال من الأحوال ما كان الفلّاحون سيسمحون بعودة أي مظهر من مظاهر عهد السّادة، ولعلّ أولئك السّادة فيما بعد لن يضطرّوا إلى استبدال لباسهم فحسب، بل سيكونوا مضطّرين إلى مراقبة كلماتهم التي يخاطبون بها الفلّاحين، سيكونوا مضطّرين إلى مراقبة لكنتهم أثناء الحديث، سيتجنّبون اللهجة الآمرة التي اعتادوا عليها، سيبدّلون حتّى نظراتهم المتعالية، سيعيشون مع الفلّاحين على أمل استعادة مجدهم يومًا ما، وهذا ما لن يحصل أبدًا، وسيظل أملًا يعيشون عليه وأمجادًا يتغنّون بها وحكايات يقصّونها على أبنائهم، بأنهم كانوا يومًا سادة، وبأن هؤلاء كانوا يومًا عبيدًا.

عاد السّادة إلى بيوتهم، كان البعض منهم يراهن على الوقت، يراهن أن استعادة بيوتهم هي الخطوة الأولى لاستعادة الهضبة كاملة، وطرد الفلّاحين وطرد الجماعة منها، كانوا يراهنون على أن تكتّلهم في الهضبة قد يسمح لهم بتكوين جبهة ينطلقون منها لتحرير الهضبة، لقد كان ذلك بمثابة الأمل الذين يجعلهم يتماشون مع النّظام الجديد للقرية، الأمل الذي يجعلهم يتقّبلون أنهم أصبحوا متساوين مع الفلّاحين، بل إن بعض الفلّاحين أصبحوا أعلى منهم شأنًا.

(2)

في النصف الآخر من القرية القديمة، في قرية الصّابرين، كانت تحضيرات المعركة تجري على قدم وساق. لم يقل عزّام شيئًا عن ما جرى بينه وبين آصف في ذاك اللقاء القصير،

ولكن كان يبدو جليًّا أنه لم يتم التوصّل إلى اتفاق ينهي النّزاع، وتخضع القرية القديمة فيه لقرية الصّابرين. هكذا كان هو الاتفاق المرضي بالنسبة للجماعة، أن تخضع القرية القديمة لقرية الصّابرين، دون قيد ودون شرط، فقرية الصّابرين عقيدة، قرية الصّابرين رؤى إلهية غير قابلة للجدل والمفاوضة، هي رؤى إلهية لا تُرى إلا عبر عيني عزّام.

كانت الجماعة على علم بكل ما يحضّر له آصف، بالرّغم من أن الفلّاحين والدّرك قد حرصوا حرصًا شديدًا على إبقاء أمر انتقالهم إلى الهضبة سرًّا، إلا أن السرّ في هذه القرية لا يختلف عن الجهر في شيء إلا أنه ينتقل عبر الأشخاص همسًا، ولم يكن من الصعب أن يدسّ كلّ طرفٍ عيونًا عند الآخر، فكانت الجماعة على علم مسبق بكل ما يقوم الفلّاحون بالتّحضير له، ولعلّ الأمر كان ذاته لدى الطّرف الآخر، فكان آصف على علم بما تحضّر له الجماعة، بما في ذلك زيارة السيّد عزيز للشّيخ عزّام التي حاول آصف جاهدًا أن يصل إلى ما دار بينهما فيها ولكنّه لم يستطع.

تحضيرًا للمعركة، اجتمع عزّام بشرحبيل وميمون والثقات من الجماعة في قصر الشّريعة. لم يعلم الجالسون ما الذي جرى في لقائه مع السيّد عزيز الذي أتى كمبعوث من المدينة، ولم يعلموا أيضًا ما الذي جرى في لقائه مع آصف الذي أتى كقائد للفلّاحين، ولم يجد أحد من الجالسين الشجاعة في نفسه ليسأل عن ما جرى هناك سوى ميمون الذي لم يكن يجد حرجًا في السّؤال كما هي عادته، فقال له ميمون بمجرد أن اتّخذوا مقاعدهم: «ماذا قال لك كافر الفلّاحين؟ وماذا قال لك كافر المدينة؟»، وكما جرت العادة نهره عزّام وأمره بأن يصمت. كان شرحبيل هو المسؤول عن تتبّع أخبار الفلّاحين فأمره عزّام أن يدلي بما لديه. قال شرحبيل وقد بدا عليه يأس وقنوط: «الأخبار غير سارة... أعداد الفلّاحين تتضاعف... الدّرك ينسحبون من أسفل الهضبة إلى أعلاها منذ أيام... ولم نستطع إيقافهم...»، قال عزّام:

- وماذا عن مقاتلينا الآتين من القرى الأخرى؟

- أعدادهم ضئيلة... الآتون يقولون إن الطّرق إلى قريتنا مغلقة، ولا يسمحون لأحد بالعبور.

كان شرحبيل ينتظر من عزّام أن يفصح عن ما جرى في اللقاءين الأخيرين مع مبعوث المدينة ومع قائد الفلّاحين، كان ينتظر أن يطمئنه عزّام بأن تحالفًا قريبًا سينعقد مع أحد الطّرفين لإنقاذهم، ولكنّ عزّامًا بقي صامتًا ولم يفصح عن شيء، ولأول مرّة قرّر شرحبيل أن يتجاوز الخطوط الحمر فقال:

- يجب أن نحكّم العقل!

- أي عقل؟

- الأمور تستوجب تحكيم العقل!

- عقل من؟

- ...

- الإيمان وحده... الإيمان وحده!

(3)

في ساحة الوعد وساحة السيّد غريب، كان الطّرفان يتظاهران بأن الحياة تسير على ما يرام، في حين أن كلا الساحتين كانتا تغليان كالمرجل، يتحيّن كل طرفٍ منهما الفرصة للانقضاض على الآخر. الآتون إلى الساحتين كانوا يتعمدون أن يظهروا بلباسهم الذي يميّز كل منهما عن الآخر، أما في ما عدا السّاحتين فإن الناس كانوا قد تجاهلوا اللباس الجديد مع مضيّ الأيام. في ساحة السيّد غريب ظهر رجلٌ أبيض البشرة ذو قامة مستوية، كان يرتدي ثوبًا كثوب الفلّاحين، وله لحية كلحى الجماعة. استرعى الرّجل انتباه كل من كان في ساحة السيّد غريب وساحة الوعد، فهو لا يبدو كهؤلاء، ولا يبدو كهؤلاء. لم يلحظ أحد كيف أتى الرّجل، فقد كان يبدو أنه ظهر من الفراغ، أتى من العدم. كان كلا الطّرفين ينظران له بإعجاب وريبة. أما الرّجل فلم يلقِ للطّرفين بالًا، كان يسير بينهم بجلال مطمئنًا، حتّى إنه أثناء مسيره كان يقتحم الخطّ الفاصل بين الساحتين دون أن يهتزّ له جفن. ولم يجرؤ أحد من الطّرفين أن ينهره على فعله ذاك. اقتحم الرّجل السّاحة وتجاوزها وانعطف نحو الجزء الجنوبي من الهضبة الذي يسكنه السّادة والفلّاحون.

أصبح آصف يستعين بعددٍ من جند الفلّاحين أثناء تحركاته، خاصةً بعد عودة جند الدّرك إلى القرية، فقد كان مساعده يامن حريصًا على أن يكون مطوّقًا بالجند من كل جانب حتّى لا تصيبه يد الغدر من الجماعة أو من السّادة العائدين. في هذا اليوم خرج آصف من منزله في الهضبة ليتفقّد أحوال جند الفلّاحين قبل المعركة المرتقبة مع الجماعة. كان آصف قد طوّق الهضبة بمراكز مستحدثة لجند الفلّاحين، ليحبط أي محاولة للسّادة باستعادة الهضبة. أثناء تجاوزه لشوارع الهضبة للوصول إلى تلك المراكز لمح رجلًا له لحية تبدو كلحى الجماعة. لفت الرّجل انتباه الرّجال الذين يطوّقون آصف، فتوقّفوا عن المسير وقد كانوا ينظرون إليه بإعجاب وريبة أيضًا، استرعى الأمر انتباه آصف، فأمرهم أن يفسحوا له حتّى يرى. نظر آصف إلى الرّجل فعرفه، أزاح الجند من أمامه وانطلق يعدو خلف الرّجل، كان الرّجل قد توارى وراء أحد المنازل، وعندما اعتقد آصف أنه وصل إليه، كان الرّجل قد اختفى، ولم يكن ذاك الرّجل سوى كنان.

كان الجند قد لحقوا بآصف وطوّقوه مجدّدًا عندما اختفى كنان، أمر آصف بأن يبحثوا عن الرّجل ويأتوه به، ثم أكمل مسيره. مرّ بساحة السيّد غريب، كانت عن شماله ساحة الوعد، وعن يمينه بيوت السّادة. كان غارقًا في التّفكير في كنان، عندما سقط أحد المحيطين به وسُمع دويّ عيارٍ ناري.

ضيّق الجند الحلقة حول آصف وانطلقوا به إلى أحد مراكز الجند الآمنة. انتظر يامن الأمر من آصف بأن يردّ على العيار الذي أطلق، ولم يعلم أحد إن كان العيار قد أتى من جهة ساحة الوعد أو من جهة بيوت السّادة. تجاهل آصف أن يكون العيار مصدره بيوت السّادة، وقال إن العيار لا بد أن يكون قد أتى من ساحة الوعد، ولم يكن بإمكانه أن يقول غير ذلك.

(4)

عُقد مجلس القرية ليبحث في ردّ مناسب على محاولة اغتيال قائد الفلّاحين، كان المجلس مكونًا من خمسة عشر فردًا، عشرة من الفلّاحين وخمسة من السّادة كما تم الاّفاق. كان انعقاد المجلس شكليًّا، فقد كان القرار بالحرب محسومًا، ولم يكن هذا الحدث الأخير سوى الشرارة التي عجّلت في اشتعال الحرب. كان هذا الاجتماع ليؤّكد آصف على تحالف الفلّاحين مع السّادة، وللتنسيق بين الدرك ومقاتلي الفلّاحين أثناء المعركة. اتّفق الطّرفان على أن يهجم جند الفلّاحين من ناحية الهضبة والقرية، وأن يلتفّ جند الدّرك عائدين إلى موضعهم عند زاوية الشّيخ يوسف ليطبقوا على الجماعة من الجهتين. انتهى الاجتماع بحسم قرار الحرب، وتركوا تحديد ساعتها للقائد آصف.

كان آصف خلال الاجتماع يبدو مطمئنًا لنتيجة المعركة، فلم يكن يبدو عليه أي مظهر من مظاهر التوتّر، لم يكن يبدو عليه أنه مقبل على معركة ستسفك فيها كثير من الدّماء وسيحدّد فيها مصير قرية بأكملها. كان يبدو عليه أنّه أمضى ليلة أخرى يرسم خطوطًا وأشكالًا جديدة.

في فجر اليوم التّالي، قبل الهجوم بدقائق. أخذ الكثير من جند الجماعة ينسحبون من الهضبة والقرية نحو البئر القديمة حاملين أسلحتهم النّارية. كانت القرية والهضبة يومها خالية من نصف جند الجماعة الذين تمركزوا عند البئر القديمة، وتلا ذلك هجوم الفلّاحين والدّرك الذين كانوا يفوقون جند الجماعة بأضعاف بعد تحييد نصف قوّة الجماعة. أطبق الفلّاحون والدّرك كالكماشة على الجماعة، فكان جند الجماعة يسقطون كالذباب أمامهم. كان التقدّم سريعًا جدًّا، فلم يستغرق الأمر سوى ساعات قليلة، حتّى كان جند الفلّاحين يحاصرون قصر عزّام يقودهم آصف. خلال ذلك، كان عزّام وبعض معاونيه يحتمون داخل القصر، ويشتبكون مع جند الفلّاحين من حين لآخر حرصًا على ذخيرتهم من النّفاد. أما

عزّام فقد كان يجلس على أحد المقاعد في بهو القصر ممسكًا بسلاحٍ ناري، استعدادًا لاقتحام جند الفلّاحين للقصر، فقد أقسم أن يقاوم حتّى آخر رمق، وأقسم أن لا يظفر به الفلّاحون حيًّا.

لم يجرؤ أحد من الفلّاحين على اقتحام القصر خوفًا مما قد يكون في انتظارهم، ولم يجرؤ آصف على اقتحام القصر خوفًا من لحظة التقائه بأبيه. كان يراهن على نفاد ذخيرة مقاتلي الجماعة واستسلامهم مع مضيّ الوقت. ولكنّ الأمور لم تسر كما خطّط لها.

ظهر كنان وسط الجند، ظهر من الفراغ مرّة أخرى، أخذ المقاتلون يفسحون له الطّريق حتّى وصل إلى باب القصر، كان باب القصر موصدًا بإحكام، اتّكأ كنان على الباب بيده ودفعه بلطف. فُتح الباب. دلف كنان إلى البهو. استنفر عزّام. حمل سلاحه ووضع إصبعه على الزّناد. أوشك أن يطلق النّار قبل أن يتبيّن وجه القادم. تقدّم كنان نحوه بطمأنينة. أرخى عزّام إصبعه من الزّناد. أسقط سلاحه أرضًا. كان الجند قد لحقوا بكنان ودلفوا إلى البهو. لم يلقِ لهم عزّام بالًا. لم يفوّت الجند الفرصة. أمطروا عزّامًا بوابل من الرّصاص. كان لا يزال معلّقًا عينيه بكنان، حتّى أجبره سقوطه على الإشاحة عنه.

عمّت الفوضى القصر بعد أن اقتحمه الجند. تبع آصف الجند أملًا في ملاقاة كنان، ولكنّ كنان كان قد اختفى مرّة أخرى. تلفّت حوله. التقت عيناه مرغمًا بعيني أبيه المعلّقتين بالفراغ.

(5)

أي عقل؟، وعقل من؟، علق هذان السؤالان في ذهن شرحبيل بعد اجتماعه بعزّام. ألم يكن تقسيم القرية منذ البداية وعقد هدنة مع الفلّاحين عقلًا؟، أكان قول عزام: «عقل من؟» إشارة منه أن الحكم لعقله فقط، الشريعة كما يراها عقله. هكذا فسّر شرحبيل أقوال عزّام. ولم يشفع له عنده قوله الأخير: «الإيمان وحده»، فقد فهم شرحبيل أن عزّامًا كان يطلب منهم إيمانًا بعقله هو، وليس إيمانًا بالله، وليس إيمانًا بالشّريعة. لقد صغُر عزّام كثيرًا بنظر شرحبيل بعد ذاك اللّقاء، فقد كان يبدو لشرحبيل أن عزّامًا يلقي بالجماعة نحو الموت المحقّق، يسير بهم بخطوات ثابتة نحو الهاوية؛ فالمعلومات الآتية من القرية تقول إن الفلّاحين يفوقونهم بأضعاف كثيرة، والمعلومات تقول إن كل الطّرق من وإلى القرية موصدة في وجوههم. كان هذا يعني أن هذه القرية سوف تتحوّل إلى مقبرة للجماعة إن لم يلبّوا نداء العقل الذي كان يتحدّث عنه. في ذلك اليوم وبعد أن انقضى اجتماعه بعزّام، انطلق شرحبيل إلى قادة جند الجماعة يطلعهم على الأمر، يخيّرهم بين الحياة والموت، يقول إن أمامهم فرصة أخرى للبقاء على قيد الحياة وإكمال مسيرتهم في السّعي نحو

إقامة الشّريعة، كان يقول لهم إن موتهم يعني موت الشّريعة، وأن لا بأس بالتّماشي مع المرحلة، لا بأس بالمهادنة، لا بأس بالمسايسة، فالإيمان محلّه في القلوب. استجاب له الكثير من قادة الجند، ولم يستجب له آخرون، فشكّل حلفًا داخل الجماعة يتبنّى رؤيته بعقد تحالف مع الفلّاحين ووقف القتال. وصل الأمر لعزّام عشيّة محاولة اغتيال قائد الفلّاحين، استشاط غضبًا، ووجد فيهم نقطة ضعف تهدّد بقاء الجماعة في القرية، فأمر بطردهم من القرية.

كان شرحبيل حينها أمام خيارين، إما أن يستجيب لأمر عزّام ويخلي وجماعته القرية، وإما أن يخوض مواجهة مع عزّام ومن تبقّى معه من الجماعة، ولكنّه حكّم عقله ثانيةً، واختار الخيار الأول. انطلق ليلتها إلى قائد الفلّاحين بعد أن حسم أمره مع جماعته. قال شرحبيل لآصف إنه يرغب في حلّ النّزاع القائم، قال له إن نصف الجماعة تخضع لأمره. انتظر من آصف عرضًا مناسبًا. غاب آصف ساعةً. رسم خطوطًا جديدةً وأشكالًا جديدةً، ثم عاد إليه، كان عرضه مماثلًا للعرض الذي عرضه على السّادة. خمسة مقاعد في المجلس، وينتهي النّزاع بشكل دائم وإلى الأبد. لم يكن شرحبيل يريد أكثر من ذلك. قبل بعرضه الذي كان مقابله أن تحيّد نصف الجماعة عن أي نزاع مستقبليّ مع عزّام. قال له شرحبيل إن نصف الجماعة سوف تنسحب من القرية نحو البئر القديمة إلى حين انتهاء النّزاع. انتظر آصف إلى أن انسحب شرحبيل ونصف الجماعة ثم شنّ هجومه الذي انتهى بمقتل عزّام.

الفصل العشرُون

تـُـجّار المدينة

(1)

«تقتضي الخطّة أن يدفع السّادة بقوّة الفلّاحين في وجه الجماعة جهة البئر القديمة.. وتقسيم قوّة الدّرك على الجبهتين الأخرتين للقرية... وتبقى الهضبة خالية من قوّات الدّرك».

كان هذا كلّ ما يحتاجة السيّد عزيز قبل مغادرته إلى المدينة يوم المحاكمة. خطّة السّادة للدّفاع عن القرية في وجه الجماعة. استقلّ عربته يومها وعاد إلى المدينة مسرعًا، يقصد أحد تجّار المدينة الصّاعدين، فحال المدينة كما هو حال القرية كما هو حال أي جماعة بشريّة، لا تخلو من الصرّاع والمنافسة وطحن العظام. لم يكن هذا التّاجر هو ذاته الذي يودع عنده السيّد رشيد والسّادة أموالهم للتّجارة، ولم يكن هو ذاته الذي يحتكر واردات القرية من الغلال المختلفة. كان هذا التّاجر يتطلّع لأن يكون كذلك.

بالنسبة للمدينة، كانت القرية القديمة هي حجر الزّاوية للحصول على النّفوذ في المدينة، كانت غلال القرية هي التي تطعم المدينة وسكّانها، كانت بدائية القرية القديمة هي الأساس الذي تقوم عليه حداثة المدينة. فقد كانت المعادلة واضحةً بالنّسبة للتّجار هناك، من يسيطر على الغذاء يسيطر على المدينة، ومن يسيطر على القرية يسيطر على الغذاء. لهذا اتّجهت عينا التّاجر الجديد نحو القرية القديمة فور أول رغبة له في النّفوذ. اعتقد أن لا شيء قد يزلزل عرش التّاجر القديم سوى ضرب قوائمه التي تنمو من طين القرية القديمة، التي كان يسقيها السيّد رشيد ومنظومة الحكم فيها.

اتّجه السيّد عزيز يقصد منزل التّاجر الجديد في المدينة، فلم يكن لهذا التّاجر قصرًا كما كان حال سادة القرية، ولم يكن لديهم ذاك الشّغف بالأبّهة والمظاهر كما كان يفعل مجلس سادة القرية، فقد كان الفرق شاسعًا بين أطباع هؤلاء وأطباع هؤلاء. منذ أن ورث السيّد عزيز مقعده في مجلس السّادة عن والده وبدء رحلاته إلى المدينة وهو يسأل نفسه عن هذه الهوّة التي تفصل سادة القرية عن تجّار المدينة، لماذا لا يكون هو ذاته مثل تجّار

المدينة؟ لماذا لا يكون له سطوة كسطوتهم ونفوذ كنفوذهم وأموال كأموالهم. ما الذي يجعل حياته حكرًا على القرية وحكرًا على المجلس وحكرًا على خدمة السيّد رشيد.

عندما سأله السيّد غسّان سابقًا عن السبب الذي يجعل السّادة يتطلّعون للحكم، قال له السيّد عزيز إن النّاس عندما يحصلون على سلطة ما فإنهم يتطلّعون لسلطة أعلى، لو أن السيّد غسّان حينها فهم إجابته لما حدث كل ما حدث، لو أنه فهم إجابته لكان الآن يخطو بحذائه فوق جثث جماعة عزّام وجثث الفلّاحين الذين قتلوا، لكان آصف الآن معلقًا على حبل مشنقة أو ملقًى على وجهه ورصاصة مزروعة في مؤخرة رأسه.

القرية القديمة، الأرض المقدّسة، التي تحوي البئر القديمة، وزوايا الأولياء، تلك الأرض التي ترك شائيل كل أراضي الدّنيا ولعنها هي وحدها. لم تكن تمثّل للسيّد عزيز شيئًا، فالبئر القديمة خرافة، وشائيل لم يوجد، ولعنته محض هراء، ويوسف دجّال استغلّه السيّد رشيد للتّلاعب بالفلّاحين، وكل الأولياء الذين سبقوه دجّالون. حتّى آباؤه ونسله الشّريف، كانوا لصوصًا، لقد كان على قناعة تامّة بهذا، كانوا لصوصًا يتلاعبون بالأخلاق والمُثل للاستيلاء على الأراضي وتنمية تجارتهم. إذًا ما هو الشيء الذي يحمل قيمة حقيقية في هذه الدّنيا؟ الدّين والغيب، المُثل والأخلاق، كلّها وسائل للثّروة والنّفوذ، إذًا فهذه هي القيمة الوحيدة والعليا في الدّنيا، الثّروة والنّفوذ. وإذا اتّفق وكانت القرية القديمة بكل مثلها وقيمها العليا تتعارض مع الثّروة فلا بأس بالزّج بالقرية القديمة بكل ما فيها إلى المحرقة. لا بأس باستبدالها بالمدينة، بل إن استبدالها بالمدينة أمرٌ ضروري له. فهذا العصر هو عصر المدينة، عصر الصّخب والمجون، عصر الفرد الذي لا يذوب في الجماعة بالرّغم من الازدحام، ففي المدينة لا يوجد أتباع ينصهرون في فكرة عزّام أو يوسف، أو الشّريف أو السّادة أو الفلّاحين. هذا العصر هو عصر الضّمير الفرديّ.

(2)

في تلك السّنة، وقع حدثٌ ترك صدًى واسعًا بين سكّان المدينة وبين تجارها بشكلٍ خاص. استيقظت المدينة على مجموعة من جثث الدّرك معلّقة على أسوار المدينة الغربيّة، كانت أعناقهم محزوزة بالسّكاكين وقد أمعن القاتلون في التّمثيل بهم. بدأت الشائعات تنتقل بين النّاس، يقول البعض إنها فعلة قطّاع طرق، وقال البعض إنها صراعات بين التّجار تركت أثرها على أسوار المدينة، ولم يعلم أحدٌ يقينًا من كان الفاعل. بعد هذه الحادثة بأيام قليلة، تكرّرت الفعلة مع دركيّين آخرين كانوا يحرسون قافلة حبوب متّجهة للمدينة، ولكن الفاعلين هذه المرّة فضّلوا أن يفصحوا عن أنفسهم فتركوا توقيعًا على أحد الجثث باسم جماعة الصّابرين بعد أن نهبوا القافلة.

لم يكن لهذا الحدث أو الحدث الذي سبقه أن يمرّ دونما تحقيق في الأمر، فلقد بدأت أفعال الجماعة تضرّ بحركة التّجارة وبمصالح التّجار. بدأ التّحقيق في الأمر، تقول التّحقيقات إن الجماعة تختبئ في الجبال المحيطة بالمدينة، وتقول أيضًا إن رأس الجماعة رجلٌ يدعى عزّام آتٍ من القرية القديمة. قالوا عنه إنه لقيط ولد لعاهرة لا أب له، وقال عنه البعض إنه كان سيّدًا ذا مال كثير ونسب ولكنّ شيئًا ما دفعه للتّخلي عن كل هذا والتّصدي لجشع تجّار المدينة. تلا ذلك حادثة أخرى، شنّت الجماعة هجومًا على أطراف المدينة، نهبت بيوتًا، واغتصبت نساءً، وقتلت أطفالًا، ثم ارتدّوا على أعقابهم إلى الجبال. تلاشت الرّواية التي كانت تقول إنه رجلٌ ذو نسب وجاه، وسادت الرواية القائلة بأنه لقيط ابن زنا. أما بالنّسبة للتّاجر القديم، فقد وجد أن الأمر استفحل جدًّا، فشنّ حملة واسعة على الجماعة، أرسل دركيين كثر إلى الجبال حول المدينة سعيًا وراء الجماعة، وقام خلال ذلك باقتصاص أجزاء من أثمان المحاصيل الآتية من القرية، ورفع أثمان المحاصيل في أسواق المدينة، فحقّق بذلك أرباحًا طائلة.

قد نكون مخطئين إذا قلنا إنه لم يكن بمقدور التّاجر القديم أن يقضي على الجماعة ويجتثّها من جذورها، لقد كانت لديه المقدرة الكافية لفعل ذلك، ولكن ما الذي قد يدفعه للتّخلي عن أرباحٍ إضافية لم تكن في الحسبان.

هكذا كان أمر الجماعة بالنسبة للتاجر القديم، أداة لابتزاز السيّد رشيد والسّادة، كان كلما شعر بأن شوكة الجماعة قد كسرت خفّف من وطأة المواجهة، وعندما يطول عليهم الأمد يخطّط هو لأحداث قتل مشابهة على أطراف القرية لكي تستمر عملية الابتزاز. في الأشهر الأخيرة، لم تقم الجماعة بأي هجوم، قام التّاجر القديم باختلاق أحداث مشابهة، ولكنّه شعر أن الأمر ربما يكتشف إذا استمر بهذه الوتيرة، فاضطر أخيرًا لوقف اقتصاص أرباح سادة القرية، وإعادة الأسعار إلى سابق عهدها.

(3)

لم تكن فكرة النّفوذ لدى التّاجر الجديد وليدة اللّحظة التي وجدت فيها جماعة الصّابرين أو جماعة عزّام، ولكنّها كانت الباب الذي تجاوزت منه تلك الأفكار عقله إلى أرض الواقع. ما الذي قد يحدث إذا توقّفت واردات القرية من الغلال المختلفة إلى المدينة، من الخاسر الأكبر بخلاف العامّة الذين سيجوعون؟.. سيسقط التّاجر القديم في غضون أيام.

بدأ التّاجر الجديد بالإعداد لتلك اللّحظة، كانت له ثروة طائلة، قام بتحويلها كلّها ذهبًا، اعتقد الكثيرون من التّجار أنه قد أفلس عندما قام بتصفية تجارته. أما بالنسبة إليه فقد كانت هذه مغامرة محسوبة بعناية شديدة.

رجلٌ مثل عزّام لا ينظر إلى الفكرة كآداة للثروة، ولكنّه ينظر إلى الثروة كآداة للوصول إلى الفكرة، أداة ضرورية قد تموت الفكرة لو لم توجد، وبهذا لم يكن الوصول إليه وعقد اتفاق معه شيئًا صعبًا. قام التّاجر الجديد بتمويل جماعة عزّام في الأشهر الأخيرة، كان التّمويل مشروطًا أن يتم عمل الجماعة وفق خطّة مدروسة، خطّة تبدأ بتجهيز الجماعة وتسليحهم وايقاف العمليّات المتفرّقة والعشوائية التي يقومون بها، ثم الانقضاض على القرية القديمة وضرب الأساس الذي يستند إليه التّاجر القديم، وبهذا تنتصر الفكرة التي يسعى وراءها عزّام في القرية ثم تتلوها المدينة، وقد كانت كل الأموال التي تصل إلى عزّام موقّعة بإمضاء «أهل الخير» الذين يريدون للشريعة أن تنتصر في القرية والمدينة معًا.

هل بمقدورنا أن نقول إن عزّامًا كان مغفلًا حينما قبل بهذا الاتفاق المغلّف بالفكرة السّامية التي يتطلّع إلى تحقيقها، قطعًا لا، ولعلّ ما لاقاه عزّام أخيرًا لم يكن إلا نتيجة طبيعية، وتكرارًا مبتذلًا لقصة يرويها التّاريخ مرارًا وتكرارًا، فلطالما سقطت الأفكار ضحيّة للسلطة والنّفوذ.

قبِل السيّد عزيز بالتّعاون مع التّاجر الجديد بعد عدّة عروض ومفاوضات تكلّلت بالنّجاح أخيرًا، كانت نتيجتها أن يصبح السيّد عزيز أحد التّجار الكبار في المدينة في فترة وجيزة لا تتجاوز أسابيع قليلة، ولعلّ ما جعل أمر التعاون سهلًا عليه أنه لم يكن مطّلعًا على تفاصيل كثيرة قبل هجوم الجماعة، فقد كانت كل مهمّته تنحصر في نقل أخبار مجلس السّادة إلى التّاجر الجديد، أن ينقل كل ما يدور في لقاءاتهم، ولقد شدّد عليه في الأيام الأخيرة أن يأتيه بكل تجهيزات سادة القرية في المواجهة مع جماعة عزّام، ثم وصلت هذه الخطّة إلى جماعة عزّام على أطراف القرية موقّعة باسم «أهل الخير».

مع أول ساعة في سيطرة جماعة عزّام على القرية، قُطعت كُلّ الطّرق مع المدينة، وتوقّفت الواردات، توقّف الغذاء، وماذا عساها تفعل المدينة دون غذاء؟ وماذا عساه يفعل التّاجر القديم؟. نزل عليه الخبر كالصّاعقة، لم يكن للأمر إرهاصات تشير لهجوم شامل للجماعة، حتّى الأخبار التي نقلها السيّد عزيز إلى السيّد رشيد قبل الهجوم، لم تكن إلا أخبارًا من التّاجر الجديد، ولم تكن منقولة عنه. بدأت الأسعار ترتفع بشكلٍ جنوني، وبدا رغيف الخبز أثمن من الحداثة برمّتها. في اليوم التّالي تفاقمت الأزمة أكثر، وكما جرت العادة، لكل أزمة تجّار، حتّى وان اضطر التجّار لاختلاق الأزمة، وهذه الأزمة كان تاجرها هو التّاجر الجديد.

حشد التّاجر القديم جنده، هدّد وتوعّد، وخلال ذلك، ظهرت الواردات من الجماعة، ولكن لا مقابل لها سوى الذّهب، هكذا طلبوا. كان مضطرًا لتوفير الواردات، فكّر بالاقتراض، كلّ التّجار لديهم أموالٌ طائلة، ولكنّها ليست ذهبًا، ولم يكن يمتلك الذّهب الكافي سوى التّاجر الجديد.

خلال تلك الأيام، كانت المعارك تجري في القرية، تماثلها مذابح أخرى تجري في المدينة، ولكنّ الأخيرة كان الطّرف الأقوى فيها هو التّاجر الجديد ومن التفّ حوله من التجّار، وأما ضحيّتها فقد كان التّاجر القديم الذي نبذه التجّار ولم يبقَ معه سوى القليل. كانت تلك الفترة التي سيطرت فيها جماعة عزّام على القرية كفيلة بإحداث ذاك الانقلاب الذي حدث في المدينة، كانت كفيلة بأن تخضع المدينة بكلّ ما فيها للتّاجر الجديد. خلال ذلك، كان التّاجر الجديد قد أخذ كفايته من الواردات من عزّام الذي كان يعتقد أنه يرسل تلك الواردات لـ«أهل الخير» لتمكينهم في المدينة، وحتّى الذّهب الذي اقترضه التجّار من التاجر الجديد، كان يعود إليه بعد أن يصل إلى السيّد عزيز الذي كان يرتّب عمليّات البيع بين الجماعة والتجّار، أما عزّام فما كان ليأخذ ذهبًا من «أهل الخير» الذين دعموه كثيرًا، وكان يكتفي بالقليل منه لتسليح المقاتلين وإعدادهم. وبهذا خسر الجميع وربح التّاجر الجديد.

(4)

كان التّاجر الجديد يعرف الكثير عن القرية دون أن يزورها، كل شيء كان يهمّه، مجلس الأشراف، الفلّاحين، البئر القديمة، ولعنة شائيل، ثأر جليلة، الصّراعات بين الأشراف والسّادة، الصّراعات بين مجلس الأشراف وأبناء عمومتهم. كان يعلم عن كل الأحقاد المتراكمة في القرية جيلًا بعد جيل، لم يكن يرى في تلك الأحقاد إلّا مجموعة من أحجار الصوّان التي ما إن تقرعها حتّى تشعل النّار في القش من تحتها ومن فوقها، لم يكن بحاجة إلا لأن يقرع الأحجار، أو يرسل من يقرعها، أو يبعث في الأحجار أرواحًا تجعلها تقرع بعضها بعضًا.

إن أردت أن تعرف أسرار مكانٍ ما، أي بقعة تحوي جمعًا بشريًّا، اختر منها إنسانًا حاقدًا، معبأً بالحقد والكراهية، فذاك الانسان لن يتوانى عن الحديث عن أسوأ ما يرى. عندما راودته فكرة السّيطرة على المدينة والقرية معًا، كان قد قابل الكثير من الآتين من القرية بحثًا عن حياة أفضل، ولكن لا أحد منهم كان يحمل ذاك الكره الذي يجبره على البوح، والأكثر منهم لم يكونوا يملكون الوعي الكافي للإلمام بالأحقاد المتراكمة في القرية فضلًا عن البوح بها. لم يكن التّاجر الجديد يذكر أن أحدًا منهم كان كذلك، ولكنّه كان على يقين أن ذاك الشّخص موجود ويمكن العثور عليه.

على أطراف المدينة، في نهاية الطّريق المؤدي منها إلى القرية، توقّفت قافلة حبوب آتية من القرية القديمة، كان التّاجر الجديد هناك. ترجّل من القافلة عددٌ من الفلّاحين الذين كانوا يبدون كنسخ متطابقة عن بعضهم البعض؛ بشرةٌ مسمرّة وثياب متّسخة بطين الأرض

وفضلات الدّواب، لحية مهملة، عبارات آمرة، سخرية، ضحك متقطّع، يتبعها توبيخ من الدّركي الذي يرافق القافلة. توقّف التّاجر الجديد يراقب جمع الفلّاحين، علّه يستطيع تمييزهم، أو علّه يستطيع أن يميّز واحدًا منهم فقط. استمرّ الفلّاحون ينقلون شوالات الغلال من العربات إلى الصّوامع لتخزينها. كان التّاجر الجديد يراقبهم من عربته الفارهة. ترجّل منها برفقة مساعده. أعطاه حفنة من العملات الفضيّة، أمره بأن يوزّعها على الفلّاحين. فعل مساعد التّاجر الجديد ذلك، ولكنه لم يكن يناول الفلّاحين العملات في أيديهم، بل كان يلقيها أرضًا قبل أن يصل أحدهم إليه، كان الفلّاحون ينحنون ويلتقطون عملاتهم ويعودون إلى عملهم مسرورين. فعل كلّ الفلّاحين الفعل نفسه، إلا فلّاحًا واحدًا، تجاهل وجود التّاجر الجديد، وتجاهل العملات الفضيّة، واستمرّ في عمله ينقل شوالات الغلال دون أن يلتفت إلى ما كان يحصل حوله، وكأن الأمر لا يعنيه. لم يكن لأحد ليلقي بالًا لأمر هذا الفلّاح أو يلحظ ما فعله لو أنه لم يمعن في تصرّفات الفلّاحين الذين كانوا هناك. أثار أمر الفلّاح اهتمام التّاجر الجديد، قال إنه إما أن يكون إنسانًا ذا مال أو إنسان يحمل كرامة. استبعد كونه رجلًا ذا مال، وقال إنه فلّاح يحمل بعض الكرامة، يحمل بعض الكبرياء الذي يجعله يتنازل عن عملة فضيّة دون أن ترمش له عين، ومن يحمل حقدًا أكثر من إنسان يحمل كرامة؟

وقع اختيار التّاجر الجديد على هذا الفلّاح الحاقد الذي سيكون له بمثابة نافذته التي تطل على القرية بوجهها القبيح، الوجه الذي يمكن العبث به ليصبح أكثر قبحًا. لم يكن التّاجر الجديد قد قام بتصفية تجارته بعد، فقد كان له بالإضافة إلى مخازن الغلال التي التقى عندها بالفلّاح الحاقد تجارة واسعة باللحوم والمواشي والبقول والأقمشة أيضًا. اختار التّاجر الجديد أن يأتي بالفلّاح ذي الكرامة ذاك ليعمل في أحد متاجر الأقمشة التي كان دائم التردّد عليها، ليكون دائم القرب منه.

كان الفلّاح قليل الكلام في أيامه الأولى، يجيب بقدر السّؤال ولا يسترسل، ينهي عمله ثم يمضي بقية اليوم متجوّلًا في شوارع المدينة وأزقتها، حتّى يحلّ الليل فيعود إلى المتجر ليقضي ليلته فيه ويستيقظ مبكرًا ليعود إلى العمل وهكذا دواليك. لم يكن لذلك الفلاح أي اهتمامات سوى العمل، حتّى أحاديثه مع التّاجر كانت في أغلبها تدور حول العمل في المتجر وتجارة الأقمشة، أما حديثه عن القرية القديمة فقد كان عرضيًّا وسطحيًّا ولا يعطي للتّاجر مراده. ولكنّ التّاجر الجديد كان لا يزال مصرًّا أن هذا الفلّاح يحمل الكثير عن القرية، فقرّر في أحد المرّات أن يستخدم طريقة أخرى في استخراج الكلمات منه، فقال له:

- السّادة في القرية يعاملونكم كالعبيد.

- نعم، لأنهم عبيد.

- من هم؟

- الفلّاحون.

- أولست منهم؟

- كنتُ كذلك.

أمره عندها التّاجر بأن يترك لفافات القماش التي كان يرتّبها على الجدار وبأن يجالسه. بدأ الفلّاح يحكي عن الأسباب التي جعلته يترك القرية، عن العبودية والاستبداد، عن الفلّاحين الآخرين الذين وصفهم بأنهم لا يعدون كونهم حيوانات أليفة، عن صمتهم عند اغتصاب جليلة ومقتلها، عن أملهم بعودة البئر القديمة التي لن تعود أبدًا، عن لعنة شائيل التي يلصقون بها كلّ الشّرور، عن مجلس السّادة والأشراف عن الصّراعات في الهضبة.

أنصت التّاجر الجديد له بكل اهتمام، وأصبح يعود إليه في كلّ يوم ويسمع كلامه عن القرية القديمة، حتّى إنه أصبح يخصّص له وقتًا يوميًّا للحديث معه عن القرية، كان يدعو ذلك الوقت بوقت الفلّاح الحاقد، أو الفلّاح ذي الكرامة، قبل أن يعرف أن اسمه آصف.

(5)

لم يكن التّاجر الجديد قد قام بتصفية تجارته بعد، ولكنّه كان قد بدأ فعلًا بدعم جماعة عزّام، ولم يكن ينقصه إلا بعض المعلومات عن القرية القديمة والتي كان يستقيها من آصف. كان التّاجر الجديد حينها يفكّر بأن يكون آصف هو بيدقه في القرية، ولكنّه علم أن شخصًا مثل آصف لن يرضى بكونه بيدقًا عاديًّا أبدًا، ربّما يرضى بكونه بيدقًا حرًّا، بيدقًا يخوض معركته الخّاصة على الرّقعة، يختار هو إلى أي الصّفين ينضم.

في آخر لقاء بينهما، سأله التّاجر الجديد عن الطّريقة التي يمكن أن تنقلب بها الموازين في القرية، قال له آصف إن النّفوذ هو المفتاح، والنّفوذ بحاجة إلى مال كثير. قال له التّاجر الجديد أن يفترض أن معه ذاك المال، كيف يحصل على النّفوذ في قرية تعدّ العرق والنّسل عاملًا لا يقل أهميّة عن المال. أخبره آصف حينها عن صديقه وعلاقته التي تربطه بنرجس ابنة السيّد ماضي، أخبره عن خطته لزرع صديقه وسط السّادة واستغلاله في الحصول على ذاك النّفوذ. على السّيطرة على آبار المياه التي تروي المحاصيل، عن حفره لآبار أخرى غير التي تخضع للمجلس، عن استغلاله لأراضٍ جديدة وزراعتها، عن محاولته لتحويل ولاء الفلّاحين من الطّعام والشّراب والجنس إلى ولاء يرتبط بالأرض وبالحقوق.

علم التّاجر الجديد أن رهانه على هذا البيدق الحرّ سيؤتي ثماره، ولم يكن يتخيّل تلك الثّمار إلا على صورة فوضى يحدثها في القرية تسهّل عليه ما ينوي فعله.

قال له التّاجر الجديد«عُد إلى القرية وستكون سيّدًا»، أخبره عن اليوم والسّاعة الذي سيكون فيه الذّهب عند البئر القديمة، ولم يخبره التّاجر أنه كان مرسلًا إلى الجماعة، بل لم يعلم آصف بأن هذا التّاجر ذاته كان يدعم جماعة عزّام.

الفصل الواحِد والعشرُون

باقيةٌ ما بقِي القدَر

(1)

لأولِ مرةٍ منذ زمن لا يذكره الفلّاحون، عادت المنطقة التي تمتد من الهضبة غربًا إلى البئر شرقًا تسمّى بالقرية القديمة. اكتسبت تلك الأرض أخيرًا اسمًا يلائمها ويتّسق مع ماضيها ورموزها، فلم يعد اسمها مرتبطًا بأشخاصٍ وأفكار، كالصّابرين والسّادة والأشراف. لقد أثبتت تلك الأرض أن كلّ الخطى التي تركت أثرًا على ترابها هي خطًى زائلة مصيرها إلى الفناء مع أول ريح عاتية تقلب عاليها سافلها، أو مع نسمات عابرة تحرّك ذرّاتها فتتراكم فتمحو تلك الخطى، لقد أثبتت تلك الأرض أنّها باقية وكلّ ما عليها قابل للاستبدال، لقد كانت تلك الأرض كالقدر، باقية ما بقي القدر.

ما الذي فعلته القرية القديمة في تلك الشّهور المنصرمة، ما الدرس التي أرادت أن تقدّمه لمن بقي فوقها، للذّين يحاولون أن يتركوا آثارهم فوق ترابها، للقادمين الذين سيتلون هؤلاء، لقد أرادت القرية القديمة أن تقول للجميع إنها لا يمكن أن تختزل في أشخاص أو حقبة أو فكرة، لقد أرادت أن تغيّر في الإنسان طبعه الذي من خلاله يرى أنه المركز الذي تدور حوله الأفلاك. حتّى التّاجر الجديد، الذي اعتقد أنه كائن أسمى من تلك الكائنات التي تعيش في القرية، الذي اعتقد أنه قد تلاعب بمصيرها، لم يعدو كونه ترسًا في تلك الحركة الدؤوبة. لا أحد يستطيع أن يسيطر على حركة القرية الدّائمة، ولا أحد يستطيع أن يوقفها، بل لا أحد يستطيع أن يدرك الآلية التي تتحرك بها، فكما قلنا، هذه القرية قدر، ترفع حينًا وتخفض أحيانًا، ثم تبتلع الجميع في آخر المطاف.

الفلّاح الوضيع القاتل، أم الفلّاح ذو الكرامة، أم الفلّاح الحاقد، أم الفلّاح القائد والمخلّص والمنتظر؟، أيّ الأسماء نختار، كيف يمكننا أن نصنّف آصف، ومن لديه الحق ليحكم أي الأشخاص كان هو؟ لن يستطيع البشر أن يستوعبوا سوى اسمٍ واحدٍ من تلك الأسماء المذكورة، لن يستطيعوا أن يلصقوا به سوى صفة واحدةٍ منها، سيقول عنه السّادة بأنه فلّاح وضيع، وسيقول التّاجر إنه فلّاح حاقد، وسيقول الفلّاحون إنّه مخلّص ومنتظر، وسيقول آصف في نفسه إنه قاتل، وفي حقيقة الأمر، إنّه كان كلّ ذلك، لقد كان وضيعًا وحاقدًا وذا كرامة وقائدًا وقاتلًا، وحدها القرية القديمة هي التي ستنظر له بكلّ تلك

الصّفات، وحدها القرية القديمة التي تمتلك نظرةً شموليةً لمن يعبرون فوقها، وحدها التي لن تظلمهم إلا بالقدر الذي يظلمون به أنفسهم.

(2)

لم تستتب الأمور في القرية القديمة بعد، بالرّغم من القضاء على جماعة عزّام، وبالرّغم من كسر شوكة السّادة والأشراف، لقد كانت التحدّيات التي تواجه آصف لا تقلّ عظمًا عن مثيلتها قبل القضاء على الجماعة، فلقد شهدت اجتماعات مجلس القرية الذي شكّله آصف بعد طرد الجماعة مناكفات حادة بين أعضاء المجلس من الفلّاحين وأمثالهم من السّادة وأتباع شرحبيل، غير أن أتباع شرحبيل كانوا في أغلب القضايا يصطفّون جنبًا إلى جنب مع أعضاء المجلس من الفلّاحين، فمشكلة الفلّاحين مع السّادة كانت هي ذاتها مشكلة شرحبيل معهم، والتي كانت تتمثل في سؤال بسيط، لمن ستؤول ملكية أراضي الزراعة وآبار المياه؟ أراد السّادة أن يحتفظوا بأكبر قدر من أراضيهم التي كان قد سلبها الفلّاحون بالفعل، بينما قال بعض الأعضاء من الفلّاحين بتقسيم الأراضي بالتّساوي بين الجميع، سادة وفلّاحين، وذهب بعض الفلّاحين بعيدًا بأن طالبوا باستثناء السّادة من أي عملية تقسيم للأراضي، وعندما اعترض السيّد مروان على ذلك، قال له أحد الفلّاحين: «احملوا أمتعتكم وارحلوا!»، ولا شكّ أن ذلك لم يكن خيارًا مطروحًا أو شيئًا يمكن حدوثه دون سفك الكثير من الدماء. كثُر اللّغط والملاسنات بينهم، حتّى تدخّل آصف في نهاية المطاف، وقال إن الأرض لن تعود ملكيّتها لأحد، كان هذا يعني أن تكون ملكيّة جميع الأراضي وآبار المياه ملكيّة عامة، تعود لمجلس القرية، وتعود عائداتها لمجلس القرية أيضًا وتقسّم بالتّساوي بين جميع السكان، من فلّاحين وسادة، لقد أراد آصف بذلك أن يصهر جميع الأفراد في كيان القرية، فلا وجود لفرد قائم بذاته إلا في إطار القرية. لم يكن هذا الحلّ بالطّبع حلًّا مرضيًا لأعضاء المجلس من السّادة، ولكنّه كان أفضل ما يمكن أن يحصلوا عليه في ذاك الوقت. أما أعضاء المجلس من الفلّاحين فقد باركوا قرار القائد الحكيم وصدّقوا عليه.

كان هذا بالنّسبة للمجلس، أمّا هناك على الأرض، فقد كانت الوقائع مختلفة، اعترض بعض الفلّاحين ورفضوا هذا القرار، وقام البعض الآخر بإثارة القلاقل وشحن الفلّاحين، كان منهم أفراد من أتباع شرحبيل، ولم يعلم أحد إن كان فعلهم هذا تصرفًا فرديًّا أم توجّهًا من شرحبيل ذاته، أما السّادة فقد اكتفوا بالصّمت. تطوّر الأمر يومًا بعد يوم، وتحوّلت أزقّة القرية إلى أماكن للجدال والمناكفة بين أولئك الذين يدينون لآصف بتحريرهم من العبودية وبين أولئك الذين قالوا إنه يريد أن يعيدهم عبيدًا مرّة أخرى، غير أن الفرقة الأولى كانت هي الفرقة العظمى من سكّان القرية من الفلّاحين. تطور الأمر، ولم يعد يكتفي المعترضون بالجدال والمناكفة، بل أخذ الأمر لديهم طابع العنف، فأصبح الأمر يظهر في حرق بعض

المحاصيل وبعض بيوت قادة جند الفلّاحين، حتّى إنهم حاولوا في إحدى المرّات أن يحرقوا مخازن الغلال لولا أن اكتشف الجند الأمر قبل أن يكتمل. كثرت الأقاويل بين العامّة خلال تلك الأحداث، كان البعض يقول إن أولئك المخرّبين مدعومون من بعض السّادة الذين يريدون للفوضى أن تتفشّى في القرية، وقال البعض إنهم مدعومون من ما تبقّى من جماعة عزّام في القرية، وفي كلا الحالتين، كان يعتبر ذلك خيانة عظمى للقرية وأمنها. أصدر حينها آصف تعليماته لقائد الجند يامن. شنّ حملة واسعة، واعتقل كلّ من اشتبه بقيامه بأعمال تخريبية، وكان ذلك الاشتباه ينطوي حتّى على خوض حديث جانبي فيه اعتراض على القرار. اعتقل الكثيرون، وأقيمت محاكمة في سوق القرية، أعدم خلالها عددٌ من المخرّبين، وأطلق سراح البعض الآخر منهم بعد فترة قضوها في سجن أقيم حديثًا، ثم هدأت القرية بعدها.

(3)

قبل أن تستتب الأمور في القرية، كان الفلّاحون يهرّبون المحاصيل من القرية إلى المدينة خلسةً ويبيعونها للتّجار هناك بأسعار مضاعفة وجنوا من ذلك أرباحًا كثيرة، ولعلّ ما يسّر لهم ذلك أنه لم تكن هناك طريقًا تحمل طابعًا رسميًّا تصدّر الغلال من خلالها، أما حينما قام آصف بشنّ تلك الحملة وضبط القرية أوقف تصدير الغلال إلى المدينة تمامًا، ولعلّ التّاجر الجديد كان قد اكتفى من واردات الغلال من القرية أثناء حكم عزّام تحسّبًا لظرف كهذا، ولكن كما هي طبيعة الحال، لم يكن للأمر أن يستمرّ هكذا، كان لابد لواردات القرية أن تصل إلى المدينة شاء آصف أم أبى.

استقبل آصف في قصر رشيد سابقًا وقصر الثّورة حاليًا السيّد عزيزًا الذي أتى هذه المرّة بصفته مندوبًا من التّاجر الجديد. لم يكن يبدو أن السيّد عزيزًا يحمل أي ضغينة، ولم يبدُ أن سيطرة الفلّاحين على القرية وعلى قصر رشيد تحديدًا قد أثارت بداخله أي أحقاد من أي نوع، ولم توشِ ملامح وجهه ولا نظرات عينيه بشيء كهذا. تقدّم نحو آصف بابتسامة عريضة مهنّئًا إياه على تولّيه الحكم في القرية، وصار يشيد بقطع أثاث القصر التي قام باستبدالها، وقال إنها خيارات موفّقة، وانتقد خلال ذلك فترة حكم رشيد ومجلس الأشراف وقال إنهم كانوا متحجّرين يرفضون الحداثة، وإن حكم الفلّاحين هو التطوّر الطبيعي، ثم تطرّق بعدها إلى قصره وقال إنه هديّة مقدّمة منه للفلّاحين، وأكد أنّه لا يحمل أي ضغينة لا للفلّاحين ولا لقائدهم بسبب ما حدث.

تحوّل الحديث بينهم عن جماعة عزّام وعن ما فعلته في القرية، وعن ما كان يمكن حدوثه لو أنهم لازالوا يسيطرون على القرية، اعترف خلال ذلك أنه كان مندوب التّاجر الجديد

للجماعة لإتمام صفقات الغلال بينهما، معلّلًا ذلك بحاجة النّاس الملحّة في المدينة لتلك الواردات، ثم قال لآصف: «لقد قدّمنا لك يد العون دون أن تدري... في آخر لقاء لي مع عزّام أخبرته بضرورة أن يصل إلى تفاهم معكم... أخبرته أن عدم الاستقرار في القرية سيضرّ بسكّانها وبسكّان المدينة... ولكنّه كان عنيدًا وأودى بحياته ومن معه»، أخبره أيضًا أنّ التّاجر الجديد راهن وقتها على قدرة الفلّاحين وقائدهم في التغلّب على الجماعة ودحرها من القرية، وأن ثقته تلك كانت في محلّها تمامًا، وأن التّاجر الجديد يتطلّع لإقامة علاقة طيّبة معه تزدهر من خلالها القرية والمدينة معًا.

لم يذكُر السيّد عزيز خلال حديثه أمر الذّهب الذي أخذه آصف صراحةً، لأن ذلك يعني اعترافًا منه بأن التّاجر الجديد كان يدعم الجماعة، بل إنه كان السّبب المباشر في استيلائها على القرية، ولكنّه اختار أن يلمّح للأمر تلميحًا، فسأله عن مصير الذّهب الذي تركه السيّد رشيد في قصره، قال له إن ذاك الذّهب أصبح ملكًا لسكّان القرية جميعًا، قال له السيّد عزيز حينها: «احذر من أن يقع ذاك الذّهب في أيدي معارضيك... يمكنهم حينها أن ينازعوك هذا الكرسيّ!» ابتسم السيّد عزيز ونظر إليه نظرةً ذات مغزى، وبالرّغم من أن التّلميح لم يكن واضحًا، إلا أن آصف وجد فيه رسالتين يوجّههما إليه التّاجر الجديد، كانت أولاهما هي تذكيره بفضله عليه بإعطائه ذاك الذّهب، وثانيهما تحذيرٌ له بأنه يمكن استبداله بالطّريقة نفسها التي وصل بها هو نفسه إلى الكرسي.

طلب منه السيّد عزيز أن تعود صادرات القرية إلى المدينة بالأسعار نفسها التي كان يتعامل بها مجلس الأشراف مع التّاجر القديم، رفض آصف، ولعلّ ذلك لم يكن إلا تأكيدًا منه على استقلاليّة قراره، وطالب بسعرٍ أعلى، معلّلًا ذلك بأن مسؤوليات هذا المجلس تفوق مسؤوليات مجلس الأشراف الذي لم يكن ينفق إلا على طبقة محدودة تتمثل في سكّان الهضبة، أمّا الآن فهو مطلوب منه أن يوفّر حياة كريمة للجميع. وافق السيّد عزيز على الفور، فهذه الاستقلالية التي يريد قائد القرية الجديد أن يشعر بها لم تكن إلا ضررًا جانبيًّا يمكن تداركه، فقد كان الهدف الأساس للتّاجر الجديد هو إزاحة التّاجر القديم عن عرش المدينة وإسقاط مواليه في القرية.

(4)

استتبّ الحكم في القرية لآصف، فبالنّسبة للفلّاحين أصبح الاعتراض على أي شيء يحدث في القرية خيانة تعطّل مسيرة القرية نحو النّمو والازدهار، وأما بالنّسبة للسّادة وأتباع شرحبيل فقد كان يكفيهم «عارهم» الماضي، وأصبح الواحد منهم مدان حتّى تثبت براءته؛ فأصبحوا يتقرّبون إلى الفلّاحين ويحاولون الاندماج معهم لإزالة أي شبهة تمرّد يمكن أن

تلحق بهم، ولا شك أنهم خلال ذلك لم يكونوا قد تخلّوا عن طموحاتهم وأطماعهم في الانقضاض على الحكم فور أول ضعف يظهر لدى الفلّاحين، ولكنّ ذاك الضّعف الذي كان ينشدونه لم يكن مأمولًا في الأمد القريب.

خلال الفترة الماضية، لم يكن آصف يجد الرّفاهية ليفكّر في ما فعله، ليعيد تقييم أفعاله وفق معايير أخلاقية، فقد كانت آخر مرة فكّر فيها بهذا الشّكل هي بعد تفجيره للطّاحونة، وتتالت الأحداث بعدها ولم يكن قادرًا على الالتفات إلى الوراء، لأن كلّ التفاتة منه كانت ستتسبب بكارثة تلحق به وبالفلّاحين معه، بل إنه خلال تلك الفترة لم يكن يجد الرّفاهية ليفكّر حتّى في ذاته، ليفكّر هل هو سعيد أم تعيس، كان كلّ تفكيره ينحصر في إيجاد أسباب النّجاة والبقاء، أمّا الآن، وقد استتبّت الأمور له، وجد آصف نفسه يعيد تقييم الأحداث ويضيف إلى قتلى الطّاحونة ومعركة الهضبة قتلى آخرين، وجد أنه يضيف إليهم قتلى المعركة الأولى والثانية بين الجماعة والفلّاحين، ويضيف إليهم دماء الشّيخ يوسف، وذنب اختفاء كنان، ومقتل والده، وضاق صدره وكاد ينهار حينما داهمته ذكرى السيّد غريب وملابسات قتله. لقد كانت لذكرى غريب وقع أشدّ في نفسه، ربما لاعتبارات الصّداقة التي كانت تجمعهما والتي تجعل منه خائنًا بالإضافة إلى وصفه قاتلًا، وربّما لأنّه كان يرى أن تضحية أولئك الفلّاحين بأرواحهم لم تكن إلا تضحية طبيعية لرفع الظّلم والقهر وإقامة العدالة.

ما الذي بقي من ذكرى غريب على وجه الأرض؟ لقد كانت نرجس، محبوبته نرجس التي أوصاه بها وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. لقد كانت دوافع آصف للاهتمام بنرجس أكبر من كونها وصيّة من صديقه، لقد كانت تكفيرًا عن ذنب لن يستطيع الخلاص منه ما حيي. بدأ الأمر حينما أرسل آصف إلى السيّد ماضي، والد نرجس، والذي كان قد اعتزل في زاوية الشّيخ يوسف طوال تلك الفترة المنصرمة، وأصبح خلال ذلك من كبار مريدي الشّيخ يوسف، وبالرّغم من أنّه لم يكن من المرشّحين لخلافة الشّيخ يوسف، إلا أن آصف جعله كذلك، فأمر آصف بتجديد زاوية الشّيخ وأمر ببناء الزوايا التي كان قد هدّمها أتباع عزّام سابقًا، وقرّب ماضي الذي أصبح اسمه الشّيخ ماضي منه وأصبح يستشيره في كثير من الشّؤون، وسمح له بإلقاء الخطب والمواعظ في أهالي القرية.

أمّا نرجس، فلم تطل فترة حزنها على غريب، فسيرة السيّد غريب بين الأهالي والتّعظيم الذي ناله بعد موته كان له شأن كبير في شدّ أزرها. وما تبقّى من حزن في قلبها ظهر على صورة تعصّب للثورة التي قام بها الفلّاحون، فعادت لها نضارتها، وصارت تجتمع بأعداد كبيرة من نساء القرية بصفتها زوجة السيّد غريب تحثّهم خلالها على التّمسّك بنتائج الثّورة التي قام بها الفلّاحون، وأنّهم قد رأوا بأم أعينهم البدائل، بأنهم رأوا حكم جماعة عزّام وحكم السّادة، والويلات التي لحقت بهم جرّاء حكم الفرقتين. لم تفاجأ نرجس حينما وصلها عرض آصف بالزّواج منه، فوصيّة غريب لآصف قبل موته تدفعه لذلك، ومركزها بين

نساء القرية يدفعه لفعل ذلك، وكونها ابنة الشّيخ ماضي يدفعه لذلك. أما بالنسبة لآصف فكان أكثر ما يدفعه لذلك عقدة الذّنب.

لم تكن نرجس قد نسيت أن آصف كان السبب في مقتل زوجها غريب، ولكن هناك أسباب كثيرة جعلتها تتناسى ذلك، كان أحد تلك الأسباب الملابسات التي حدثت أثناء مقتل غريب وبعدها، والتي كان آصف حاضرًا فيها، لقد لمست من آصف حينها ندمًا وحزنًا حقيقييّن، ورأت في كلمات غريب له قبل موته غفرانًا لما فعله، ولعلّ أعظم الأسباب التي جعلتها تتناسى ذلك أن غريبًا نفسه قد رحل.

تزوّج آصف من نرجس، وأصبحا يمثّلان عائلة أشبه بالعائلات الملكيّة التي تلتف حولها الجماهير فترفعها إلى مكانة فوق التّقديس، فقد ازدهرت القرية وأصبح الفلّاحون ينالون أكثر من حاجتهم من الطّعام والشّراب والحياة الكريمة مقارنة بما كانوا يعيشونه أثناء العبودية للأشراف والسّادة.

بنى آصف مكان الطّاحونة القديمة طاحونة أخرى أعظم من سابقتها، وأمر ببناء عظيم وسط سوق القرية وأسماه باسم مجلس القرية، واستصلح أراضٍ أخرى بعيدة وهيّأها للزّراعة، وقام بحفر آبار جديدة للمياه، فتوسّعت القرية أكثر وأخذت تلتهم مساحات من الأراضي من حولها، واستورد آلات حديثة للزرّاعة من المدينة، وأضاء بيوت الفلّاحين بالكهرباء، وتوسّعت التّجارة بين القرية والمدينة. أقام آصف أيضًا بناءً ضخمًا يطل على ساحة السيّد غريب لجند القرية، وأقام معسكرات تدريب كثيرة حول القرية، وأصبح يجتذب الكثيرين من أبناء الفلّاحين والسّادة تحت شعار حماية منجزات الثّورة وكان يوفّر لهم مزايا عديدة كان أهمّها السّلطة والنّفوذ. أعيد بهذا تصنيف سكّان القرية بين طبقة عليا تتمثّل في أعضاء المجلس والجند الحاكم، وبين تجّار ازدهرت تجارتهم من الفلّاحين، وبين آخرين يعملون لدى هؤلاء التّجار.

أمّا البئر القديمة، التي فاضت منها مياه سامّة أثناء حكم جماعة عزّام، أمر آصف بدفنها بالتّراب وإخفائها منعًا من أن تنبع مرّة أخرى بمياه مماثلة فتضرّ بالحياة في القرية.

لقد تغيّرت القرية كثيرًا، فبيوت الفلّاحين لم تعد أكواخًا كما كانت في السّابق، بل أبنية عالية تماثل تلك التي كان يسكنها السّادة في العهد السّابق، وسوق القرية التهمه بناء ضخم لمجلس القرية، وأولئك الفلّاحون ذوو الثياب المتّسخة والمهلهلة صاروا يلبسون ما غلى منها، وانتشرت الحانات في القرية مع توسّع التّجارة والازدهار، ولكن هناك أشياء في هذه القرية لا يمكن أن تتغير أو تُنسى بالرّغم من ثورة الحداثة والتّنمية التي حدثت فيها، فالإسكافي لازال على حاله، يجلس أمام متجره يعالج حذاءً ولا يدهشه العابرين، ولعنة شائيل لازالت تتّسع لمصائب أخرى تحلّ بالقرية، وثأر جليلة لازال عالقًا، والبئر القديمة التي دفنت بالتّراب حتّى عنقها، أصبح أطفال القرية يقصدونها، وينبشُون التّراب من فوقها.

انتهت

1. Cover
2. cover1.html
3. ثارات جليلة
4. الفصل الأوّل
5. الفصل الثّاني
6. الفصل الثّالث
7. الفصل الرابع
8. الفصل الخامس
9. الفصل السّادس
10. الفصل السّابع
11. الفصل الثّامن
12. الفصل التاسع
13. الفصل العاشر
14. الفصل الحادي عشر
15. الفصل الثاني عشر
16. الفصل الثّالث عشر
17. الفصل الرّابع عشر
18. الفصل الخامس عشر
19. الفصل السّادس عشر
20. الفصل السّابع عشر
21. الفصل الثامن عشر
22. الفصل التّاسع عشر
23. الفصل العشرُون
24. الفصل الواحِد والعشرُون
25. الغلاف